



16167

100
C286 A

نظرات

في لغات العرب والحياة

SPC

لواضعه

B
1575

توماس طاريل

A7

S53

1927

RBK

مكتبة كلية بيرزيت
١٥٦

يطلب من جميع المكاتب

٤٣

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المعرب

«توماس كارليل» اسم غير جديد على مسامع القراء من أبناء العربية . فلقد سبقني أخى محمد السباعى الى تعريب كتابه «الابطال وعبادة البطولة» ولست أشك في أن كثيراً ممن أطلعوا على هذا الكتاب الممتع قد فتنوا بطريقته المعجبة في التفكير ، وأسلوبه الاعجب في التعبير . ولكن «كارليل» قد اقتصر في كتاب الابطال على شرح مذهبه في فلسفة التاريخ ورأيه في تقدير عظماء الرجال ، فبقي علينا أن نعرف رأيه فيما هو أجل وأعظم : في الحياة ذاتها وموقف الانسان ازاء أسرارها الهائلة ومشاكلها العويصة . وذلك ما أحاول اليوم ان أفعله بتعريب كتابه «فلسفة الملابس» (١)

بيد انى لا أدري أيها القارئ ، وقد جلوت عليك هذا الكتاب في ثوبه العربى ، أوفقت الى غرضى أم لم أوفق ، وأخفقت في محاولتى أم لم أخفق . لقد أردت ان أحدث في نفسك ثورة وانقلاباً - أن أحل العصابة عن عيفك ، وانزع السدادة من أذنك ، حتى ترى بعض ما يحيط بك من جمال ، وحتى تسمع بعض ما يصدح حولك من أنغام . أردت أن أغير ولو لحظة مألوف

(١) الاسم المعروف به هذا الكتاب في اللغة الانجليزية هو «سارتر ريزارتس»

وهي عبارة لاتينية معناها : الخياط يرقع .

نسبتك الى الحياة ، وأبدل معهود وضعك في الكون ، لتتغير الاشياء في نور جديد ، وتتأمل الدنيا من غير وجهها المعهود ، فتلمح بعض ماخفي عليك من صلات القرب بين المتباعدات ، وأواصر النسب بين المتناقضات ، وتذكر أن الكون كله وحدة مترابطة الاجزاء ، يمت وضيئها الى رفيقها بأمتن الاسباب ، وينتمى دقيقتها الى جليلها بأقرب الانساب .

اتذكر اذ أنت غلام كيف كان يلذك أن تنظر الى المراثيات من خلال بلورة تحلل الضوء الابيض الى عناصره الاولى ، فاذا الاشياء التي عهدك بها لا رواء لها ولا هجة قد اكتست حلة ظلية من أصباغ زاهية وألوان بهية ؟ كذلك أردت أن أضع في يدك من هذا الكتاب منشوراً بلوريا يحلل مظاهر الحياة المألوفة الى عناصرها الاولى من حقائق تبهر العيون رونقاً ، وتستبي العقول جمالا .

تلك في الواقع هي الغاية التي قصد اليها «كارليل» من وضع كتابه «فلسفة الملابس» . والحق ان هذا هو الغرض الذي يرمى اليه الادب في جملة ، وعلى اختلاف فنونه . فانما وظيفته ان ينفخ الغبار عن وجه الحياة - أو بمعبارة أصح أن يهتك الغشاوة عن أعيننا - حتى نشاهد من روائقها وروائعها ، وعجائبها وغرائبها ، ما هو خليق بان يستثير كوامن نفوسنا ، ويفسح مدي أبصارنا ، وينبه خامل مشاعرنا ، فاذا حياتنا قد ارتفعت من ضعة ، واتسمت من ضيق ، وأثرت من فاقة ، واذا حظنا من الاستمتاع بها قد بورك وتضاعف . وأشهد لقد وفق «كارليل» الى ما ابتغاه من اقامة دولة العجب أياً توفيق ، فاني لا أعرف كتاباً كان له من بليغ الوقع في نفس وعميق الاثر في حياتي ما كان لكتاب فلسفة الملابس هذا . ولقد أذكر اني في أول عهدي بقراءته ،

وقد أثار من كوامن نفسي ما أثار، وغير من طرائق تفكيري ما غير
وحرك من ساكنات خواطري ما حرك - كنت سائراً في بعض الشوارع
أتجول، فرقعت عيني على قشرة برتقالة ملقاة على الأرض. لقد مضى الآن
على هذه الحادثة نيف وخمسة عشر عاماً، ولكن هذه القشرة الذابلة الصفراء
لا تزال تتوهج في مخيلتي. أتدري لماذا أيتها القاريء؟ لأن الوقر الذي في اذني
والغشاء الذي على بصري، كانا قد رفعا عني في تلك اللحظة المقدسة، فرأيت
في تلك القشرة المهيبة المطرحة مظهراً آلهياً - رأيت يد الله، جلت قدرته،
تعمل فيها دائبة مبدعة، متنقلة بها في اثناء الأبدية وانحاء الانهائية في سلسلة
لا تنقطع من عجيب التطورات. فطوراً تكون فتاة من صخرة، وطوراً
ثمرة على شجرة، وتارة نسيجة في عضلة حيوان، وتارة ذرة في مخ إنسان
فهي في رحلة لا نهاية لها تستغرق الزمان من مبداه إلى منتهاه، وتنظم
المكان من أقصاه إلى أقصاه، متخللة في سيرها مظاهر السكون اجمع، من جوامده
ورواسيه، إلى سوائله ونواميه، إلى كواكبه ودراريه. ثم لا تسلمني عن مبلغ
ما شاع في صدري من طرب، وما استفاض بين جوانحي من أريحية، وأنا
أسمع من فم قشرة البرتقالة هذا الحديث المعجب.

على أن كتاب فلسفة الملابس لا يقتصر على تناول الحياة من هذه الناحية
دون سواها، بل هو يتناولها من جميع جوانبها، ويمبر - كما أسلفنا - عن
رأي صاحبه في كل ما تضمنته من عويص المشاكل وملفز المضلات، وأحرى به
أن يسمى « فلسفة الحياة » لا « فلسفة الملابس ». ولئن كان الشأن بالنسبة
لاكثر الفلاسفة واصحاب المذاهب أنك لا تستطيع الوقوف على رأيهم في
فلسفة الحياة إلا بالرجوع إلى كل ما ألفوا، واستيعاب كل ما صنفوا، فالأمر

لحسن الحظ ليس كذلك بالنسبة الى «كارليل». ذلك بانه كان قد استوفى
نضوجه الفكري قبل أن يخرج للناس كتاب فلسفة الملابس، فلما وضعه،
وكان قد ناهز الاربعين، ضمنه خلاصة آرائه وأصول معتقداته، ثم مضى
بعد ذلك في كل ما أخرج من مؤلفات، وفي كل ما انتجت يراعاته من
ثمرات، يفصل ما أجهل، أو يسهب فيما أوجز، أو يعيد ويبدى فيما قرر،
دون أن يأتى مع ذلك بشيء في فلسفة الحياة جديد.

ولئن اردت أن تجمل فلسفة «كارليل» هذه كما أوجزها وفصلها لاستطعت
أن تفعل في كلمتين من كلماته التي يصح أن ترسل أمثالا وهما: (ملكوتي
وسلطاني فيما أنتج وأصنع، لا فيما أملك وأجمع) و(انما الدنيا كهف عجائب
وأحلام). في هاتين الكلمتين تتلخص الرسالة الكبرى التي جاء «كارليل»
يشرح للناس تفاصيلها، ويفرس في القلوب أصولها. فهو من الناحية
السلبية يريد أن يقف الانسان من الكون موقف الاعجاب والخشوع
والاجلال، وهو من الناحية الايجابية يريد أن يقبل الانسان على العمل في
الحياة بروح التفاؤل والنشاط والاقدام، محاولا بذلك أن يوفق بين استغراق
المتصوف في نشوته، ومضاء رجل العمل في همته، أو بعبارة أخرى أن
يمزج مادية الحضارة الغربية، بروحانية الحضارة الشرفية.

ولقد نحا «كارليل» في وضع كتابه «فلسفة الملابس» نحوا غريبيا، فزعم
انه انما ينقله نقلا عن كتاب ظهر حديثا لفيلسوف الماني، ومضي يطنب في
بيان خصائصه، ويردف ذلك بما زعم انه ترجمة حياته. ولسوف يفطن
القارىء لاحتمال الى أن هذه القصة الغربية التي يقصها علينا المؤلف عن كتاب
فلسفة الملابس وفيلسوفها ان هي الاتلفيق محكم من قلم ماهر، واختراع بديع

لذهن خصيب ، وإن تيو فلسدروخ — تلك الشخصية المعجبية الملمزة — ليس
الاصورة رمزية ، ان لم تكن صورة شمسية ، « لكارليل » نفسه .

وما نطن بعد اذ يفطن القارئ الى هذه الحقيقة أننا في كبير حاجة الى
التعليق على الكتاب في ايجاز أو اطناب . والحق أن الناشر الاصلى — واعني به
« كارليل » كما يلقب نفسه — قد اغنى كل ناشر سواه عن معالجة هذه المهمة بما نثره
نثرا في تضاعيف كتابه من تعليقات وملاحظات ، أفرغت أحيانا في قالب
أنيق من التهم ، ولكنها على كل حال لا تعدو أن تصيب الحقيقة في صميمها .
بقي أن نشير قبل ختام هذه الكلمة الى أننا لما خطر لنا ترجمة هذا
الكتاب فكرنا كثيرا ، وترددنا طويلا ، ولولا تخمس كان يحفزنا حفزاً
لمباشرة هذا العمل ما كنا لنقدم عليه . ولعل من اطلع على الكتاب في لغته
الاصلية يجد لنا في هذا الاحجام بعض العذر ، فإن « لكارليل » وبخاصة في
هذا الكتاب ، أسلوبا غريبا يصح أن يوصف بأنه وحشي . وما ظنك بأسلوب
يحكي الطبيعة ذاتها في أروع مجاليها وأهيب مظاهرها ، أسلوب يعج
عجيجا بما اكتظ به وبما احتشد فيه من تشبيهات واستعارات تشير الى كل
شيء في الارض والى كل شيء في السماء ، ويتدفق كالنهر في انحداره ، بل
كالسيل في استبحاره ، مرغيا زبدًا ، متهمزما متلاطما ، قد انعقدت فوقه
هالات من أقواس قزح ، وإن كان يحمل على صدره أحيانا مالا بد منه من
غشاء وحثالة . ولا شك في أن جانبا عظيما من التأثير الذي يحدثه « كارليل » في
نفس قارئه يرجع الى سحر أسلوبه وفراجه . فاذا كنا قد أعربنا في صدر هذه
الكلمة عن ارتيابنا في ادراك الغرض الذي قصدنا اليه من تعريب هذا الكتاب ،
فلاننا نحشى ان تكون لطيفة ذلك السحر قد أفلتت منا في طريق النقل .

فان كنت أمها القارىء تخرج من هذا التعريب وأنت لا تشعر بانك بدلت
بنفسك نفساً سواها، فاعلم أن الذنب ليس بذنب «كارليل» ولكنه ذنب غيره.
٧ ابريل سنة ١٩٢٧ طه الباعى

الكتاب الأول

الفصل الأول

مقدمة

إذا اعتبر المتأمل أى شأ وطموح فى الثقافة بلغناه ونظر الى سراج العلم - ذلك الذى ما برح منذ نيف وخمسة آلاف من السنين يحمل عالياً ، طوراً وهاجاً وطوراً خائياً - كيف راح فى وقتنا هذا يتوقد بشدة لم تعهد من قبل ، بل كيف أن شُعلاً لا تحصى قد فصلت منه ، وتطايرت عنه ؛ منبثة فى كل ناحية ؛ مندسة فى كل زاوية ، حتى لم يبق فى عالم الطبيعة أصغر ثقب ، أو فى عالم الفنون أخفى ثقب ؛ إلا أضاءت ثنياه ؛ وانكشفت خباياه - إذا تأمل المتأمل هذه الحقائق أدهشه أن لا يجد مؤلفاً وضع حتى اليوم فى موضوع الملابس لا من قبيل الفلسفة ولا من طريق التاريخ .

أن نظرية الجاذبية تكاد تبلغ حد الكمال فهذا « لاجرانج »^(١) قد أثبت أن نظام الكواكب السيارة جدير بأن يثبت على تلك النظرية مدى الآباد بل هذا « لابلاس »^(٢) يرى انه ما كان ثمة من سبيل لوضع ذلك النظام على أية نظرية أخرى ؛ ومن ثم أصبحت دلائلنا البحرية أكثر دقة وهداية كما صارت وسائل النقل المائية على اختلافها أجمع لأسباب الراحة . كذلك نحن قد أخذنا بالخط الأوفر من علم طبقات الأرض وعلم مواد الأرض حتى لقد أصبح كثير من الجمعيات الملكية يرى أن خلق أى عالم من الموائم لم يعد

سراً خفياً أكثر من صنع أية فطيرة من الفطائر - هذا عدا ما لدينا من
المباحث الطوال عن عقد الاجتماع ومقياس الذوق وهجرة الأسماك وعدا
ما اهتدينا اليه من نظريات القيم والأجور وفلسفات اللغة والتاريخ والخزف
والأشباح والجنور - والواقع أن حياة الانسان بحذاويرها وظروفه بأجمعها
قد هتكت عن بواطنها الحجب وأميّطت عن غوامضها الاستار حتى لا تكاد
ترى قطعة أو نسيجة من روحه أو جسمه أو مقتنياته وملكه الا قد سبّرت
واختبرت وشرّحت وقطرت وجففت وحملت .

فلقائل بعد ذلك أن يقول كيف كان إذن ان العلم قد أعرض كل
الاعراض عن أعظم النسائج شأنها وأكبرها خطراً ، عن النسيج الحقيقي الوحيد
أعنى النسيج الثوبي الذي يحاك من الصوف أو ما عداه والذي تتخذ
النفس الآدمية دثاراً شاملاً تلتف في أثناءه وتحتّمى بحماه فيكون لها غلافاً
ظاهراً يحجب ويحوى ما للانسان من سائر النسيج . نعم لقد نرى في بعض
الاحايين مفكراً مهيباً الجناح يلقي نظرة كنظرة البومة العشواء شطر
ذلك الاقليم الغامض الارزاء ولكن معظم الفلاسفة والمفكرين يحلقون
فوقه ضاربين عنه صفحاً معرضين عنه كشحام معتبرين الملابس للانسان خاصة
فطرية لا ظاهرة عرضية كأنها تخلق لنا عفواً ورهواً بحكم الطبيعة كما تتفطر
الاوراق على لحاء الأغصان وكما ينبت الريش في أجنحة الطيور . فهم يصورون
الانسان ضمناً في جميع مؤلفاتهم حيواناً مكسواً مستوراً والحقيقة أنه بحكم الطبيعة
حيوان عار مكشوف ، لا يستطيع تغطية بدنه بالملابس الا في أحوال معلومة
بعد أن يعتمد ذلك تعمداً فيتخذ له أهبتة ويدبر له حيلته . يقول شكسبير
نحن خلألق نرى بأبصارنا خلفاً وأماماً . فيا للعجب نفعل ذلك ثم لا نهتم

بالنظر حولنا قليلاً حتى نرى ما يقع تحت أعيننا وما يجري بين أقدامنا .
 ولكن في هذا المقام - كما في سواه من المقامات - نجد الألمان أهل
 الرأي والعرفان والمثابرة التي لا تعرف الونى والكلال - يتقدمون الى
 معونتنا واسعافنا . وانها لنعمة من الله أن يظل بين البلاد في هذا العصر
 المضطرب والزمن العصيب بلد يجد فيه البحث النظري مأوى وملجأ وأنه
 ينما ضوضاء الفتن السياسية والقلقل الدينية قد أصمت آذان الفرنسيين
 والإنجليز ، لا يزال الألمان قادراً على الوقوف في مرقبه العالمي ثابت الجنان
 يعلن للجماهير المتخبطة حوله في كل مكان كم تكون الساعة آنا بعد آن .
 وكثيراً ما يلام الألمان على اجتهادهم في المباحث النظرية العقيمة كأنهم
 عدلوا عن سواء السبيل الى مفاوز قاحلة لا يجنى سالكها غير وعشاء السفر
 وكأنهم صدوا عن المناجم الذهبية التي في المباحث المالية والاقتصادية وانطلقوا
 من النظريات في فياف جرداء جل حظهم منها أن يرتطموا في بعض مناقعها
 النائية . والحق اننا لا نستطيع الدفاع عن ذلك العلم الأحمق الذي يحصر
 همه كما يقول الشاعر الفكاهي « في تقدير احجام الدنان بالمقياس الهندسي »
 كلا ولا نستطيع الدفاع عن ذلك النشاط الضائع الذي نراه مشيحاً مجدداً يدرس
 تبناً محضاً . فان كانت هذه التهم في حق الألمان صحيحة فلتتركهم وشأنهم
 يتحملون مغيباتها : وانما نريد أن نقول كلمة من باب الملاحظة وذلك انه مامن
 مسرح قفر الا وفيه بقع مخصبة وأكلاء مريعة، وهذه فيافي سيبيريا التي يضرب
 المثل بمحالتها لا تعدم ما يزينها من كل زهرة زهراء وبقعة نضراء ، وكم من بلد
 تقتحمه العين على البعد ولا تحسب فيه غير صحار قفراء تحدها صخور صماء
 حتى اذا أقبلت اليه تكشف عن كل منظر رائع فتان وكل واد ناضر العشب

مترع الغدران ، فيا للعجب أترى فن النقد لا يكتفى بأن ينصب في طريق العقل
أعلاماً تهديه بل هو يريد أن يقيم حوله أسواراً ويضرب دونه أسدادات ؛ لقد
جاء في الكتاب المقدس « ان كثيرين سيقبلون ويدبرون ويضربون في
أكناف الارض ويطوفون وبذلك تزداد المعارف وتنكشف العلوم »
والفائدة الجلية هي بل لا ريب أن ندع كل انسان يمضى في سبيله وننظر
الى آية غاية تفضى به ، فلکم رأينا من مخاطر جوال سلفه الناس بالسنة التعذال
قد عثر في تطوافه على اقليم شاحط مهمل ولا كنه من الخطورة بالمكان
الأرفع ، فكان ذلك المخاطر أول من استثار مكنون دقائمه وما زال يعلن للملأ
نبأ استكشافه حتى توجهت الانظار والمجهودات الى حيث يشير وبذلك
تم الفتح . فكانت هذه الجولات التي لم يكن لها في الظاهر غرض معلوم
سبباً في رفع أعلام جديدة وانشاء مستعمرات حديثة في ذلك الاقليم الشاسع
الارجاء المحيط بنا من جميع الانحاء - أقليم المجهول . فله درك أيها الحكيم
حيث تقول « من حقوق العقل أن يكون مفسوح المجال لمحاول العقل يذهب
غير خائف ولا وجل حيثما شاء من مناحي الرأي ومذاهب التفكير »

وربما كان في اعترافنا معشر الانجليز لأول مرة بأن شيئاً من فلسفة الملايس
لم يخطر على بال أحد منا قبل اليوم دليل على ما وصلت اليه العلوم النظرية فيما
بيننا من الوهن والاضمحلال وبرهان على أن عظمتنا التجارية ودستورنا
النفيس قد ضيقا على الفكر خنقه وشدا وثاقه . فأى ذهن انجليزى كان
يستطيع التعرض لهذا الموضوع الفلسفى صدفه واتفاقاً ، بله تعمداً واختياراً ؟
والواقع أن هذا المبحث النظرى الدقيق كان على خطورته لا محالة يلبث أبداً الدهر
مهملًا لولا تلك العيشة الحرة الطليقة وإن شئت فقل المحجبة المعزولة التي

يميشها الالمان فتسمح لهم بل تحضهم على التصيد بجميع أصناف الشباك في جميع أنواع المياه

وان ناشر هذه الصحف بالرغم مما يدعيه لنفسه من اعتياد التفكير الفلسفي والنفوذ في البحث المنطقي ليعترف بأن هذه الخواطر الجلية عن افتقارنا التام الى فلسفة الملابس لم تخطر بباله الا منذ عهد قريب ولم ترد الى ذهنه الا من مصدر أجنبي أعنى من كتاب جديد ألفه الاستاذ « تيوفلسدروخ » في هذا الموضوع مورداً كلامه في أسلوب لا أدري ان كان مفهوماً أو غير مفهوم ولكني أعلم انه من الغرابة بحيث يستوقف أنظار العمى فضلاً عن المبصرين ، ولقد تصفحت هذا الكتاب العجيب المرة بعد المرة وتأملت فيما حوى من الآراء والنظرات فكان لها في نفسي أشد وقع وأبلغ أثر .

والكتاب مطبوع في مدينة « وسنتشتو » حيث يقيم الاستاذ واليك بعض ما قال فيه مقررظه « تقدم الى القراء كتاباً من ذلك النوع الكبير الحجم الدقيق الحروف ، الدقيق الآراء ، الذي تقول ولا تخر ولا عجب ليس له مثيل في غير المانيا بل في غير « وسنتشتو » وقد قامت بطبعه شركة « ستلشويجن » فاعتنت باتقان ظاهره كل الاعتناء أما باطنه فقد حوى من الفضل ما يرفعه عن منزلة الاهمال ويجعله قبلة الخواطر والاذهان » ثم يحتم المقرظ مقالته بقوله « كتاب يلذ الباحث في العاديات كما يلذ الباحث في الفلسفيات ، ويفيد طالب الأدب كما يفيد طالب التاريخ وآية من آيات الاقتدار والجرأة ، وثقوب النظر والحكمة ، وأثر من آثار الالمانية المستقلة المحضة ، لن يقابل ولا شك في المقامات العالية مقابلة خالية من الاعتراض ولكنه سوف يرفع اسم صاحبه الى أرفع طبقات الفلسفة في هيكل الشرف الالمانى »

وقد رعى لنا مؤلفه - الاستاذ الفاضل - حق المودة القديمة فأهدى
الينا نسخة منه وشفعها بكلمة من الثناء يمنعنا من نشرها الحياء ولكنه لم
يردفها بطلب أو رجاء

الفصل الثاني

مصاعب في حبيب النشر

إذا كان طالب العلم لا يرى أن فتحاً من الفتوح هو أعجب وأعلى وأشرف
وأسمى من الاطلاع على طريف الآراء وجديد الأفكار فجدير بنشر هذه
الصحف أن يعد يوم تسلمه كتاب الأستاذ يوماً أغر محجلاً ، والحق
انه كتاب كبير الحجم جم المحويات غزير المادة متنوع الأبواب : بحر زاخر
بالخواطر والفكر غير هاديء ولا رائق ولكنه لا يمنع أجسر الغواصين من
الغوص في أعماق أغواره فيعود منها لا بمجرد الحثالة والنفاية بل أيضاً بصادق
الدر ونقيس الجوهر .

والواقع اني ما كدت أطلع على الكتاب لأول مرة بل ما كدت
ألصفحه لأول وهلة حتى تبينت بين يدي فرعاً جديداً من الفلسفة يفضي
الى نتائج بعيدة لم تظهر بعد للعيان ولم تدر قط في خلد ولا حسابان وحتى
علمت اني قد عثرت على شيء لا يقل عن ذلك شأنًا وخطورة وهو شخصية
جديدة عديمة المشيل وأخلاق غريبة منقطعة النظير، أعني بها شخصية الاستاذ
تيوفلسدروخ . فعقدت العزم على بذل ما أوتيت من حول ومن طاقة في
تعرف هاتين الطريقتين ولكن لما كان الانسان بحكم الطبع مولعاً باصطناع

الاتباع واتخاذ الاشياء فاني ما كدت أشرع في امضاء تلك العزيمة حتى واجهتني مسألة جديدة وهى : كيف السبيل الى إشراك الغير فيما حصلت عليه من الخير ، وكيف يمكن تقريب فلسفة الملابس ووضعتها من افهام أبناء وطنى وبنى جلدتى ؟ فائن صح ما يقال عن الذهب الحديث المكتسب انه يكاد يحرق جيب صاحبه ان لم يقذف به في مجال التعامل فأولى وأحرى بالحقائق الجديدة أن لاتدع مستفيدها يذوق طعم الراحة حتى يلقي بها في تيار الآراء .

بيد أنى ما لبثت حتى قامت العقبات فى وجهى اذ رأيت انى لو خاطرت بنشر فلسفة الملابس دون ترجمة الفيلسوف ولو أقدمت على شرح مذهب الأستاذ وآرائه دون ايضاح نفسيته وأخلاقه لعرضت كلا الأمرين لسوء الفهم . وكنت كلما فكرت فى انشاء ترجمة للمؤلف المأجد بين يدي من المعلومات والمستندات مادة أعول عليها وذخيرة أرجع اليها ، وما كانلى فى الحصول على شئ من ذلك أدنى أمل ، وكذلك مكثت برهة لا أجد سبيلاً الى نشر هذه الحقائق الغريبة والمبادئ المدهشة فجعلت أجيلها فى أعماق ضميرى وأقلبها فى ظلام جوانحى وأنا أعانى من القلق ما أعانى .

ومرّت الأيام وانسلت الشهور وقد طالعت الكتاب المرة بعد المرة فشرعت معانيه الغامضة تتوضح وتتبلج فى غير موضع وجعلت شخصية المؤلف تزداد فى نظرى غرابة وشذوذاً والتباساً وتعقيداً حتى اذا كاد القلق الذى يخامرني يستحيل سخطاً مستقراً ويأساً مستمراً لم يرعنى الا ورود خطاب من الهر هفريات هشارك أعز أصدقاء الأستاذ أفاض فيه عما أحدثته فلسفة الملابس من الضجة فى عالم لأدب الألمانى وأسهب فى وصف

ما لكتاب صديقه من الفضل الجزيل والخطر الجليل وما يرمى اليه من بعيد
الاعراض وخفى المآرب ثم أشار تلميحاً الى إمكان التنويه بالكتاب والاشادة
بالمؤلف بين معشر الانجليز وقال ان صدور كتاب عن الاستاذ تيو فلسدروخ
أمر جدير أن يقابل بالهتاف والترحيب وتحقيق أن يحدث ثورة فكرية يرج
لها عالم الازهان ثم ختم خطابه مصرحاً بأنه اذا شاء ناشر هذه الصحف انشاء
ترجمة للاستاذ فهو مستعد لتقديم المستندات اللازمة .

وكما أن بعض المخاليط الكيميائية التي تكون قد مضت عليها برهة
من الزمن وهي تتباخر وتأتي التبلور - لا تلبث متى انغمس فيها السلك
أو ما عداه من المواد الثابتة أن تأخذ في التبلور وتسرع فيه حتى يتم على الوجه
الأكمل فكذلك كان مثلي ومثل المساعدة التي عرضها على الهر هفرات . فما
نشبت خواطري أن تبدلت من التفرق والانتشار ؛ التجمع والاستقرار ،
فاتحد المشيل بمثيله والتأم النظير بنظيره وتهياً من المجموع صورة جليلة وفكرة
منظمة وتمثل أمامي المشروع بحذايره ان لم يكن في حيز الوجود المحقق
فعلى الأقل في حيز الأمل الممكن .

وليس هنا محل البحث في كفايتنا لتولى هذا العمل ومقدرتنا على
الاضطلاع به بل حسب القارىء أن يعمّن النظر فيما نحن مقدمون اليه وأن
يستمتع بما نحن عارضون عليه مستعيناً على ذلك بكل ما أوتى من نفوذ
البصيرة وقوة التأمل وحسن النية وصدق الادراك ولينظر في هذا الكتاب
بذهن مبرأ من سوابق الأوهام وب عقل طليق من قيود التقعر حاصراً فكره
في ذات الكتاب دون ناشره .

وليأمن القارىء أن يرى من جانبنا ميلاً الى المحاباة فليس ما يبتنا وبين

الأستاذ من صلات المودة بقادر على التأثير في حكمنا بحيث يدفعنا الى تلطيف
سيئاته أو تجسيم حسناته . نعم انا لنحفظ له أطيب الذكريات وخير العهود
فما رأينا ولن نرى أمثال تلك الليالى الحسان والمجالس الكريمة اذ كانت
تفيض علينا الحكمة من ينابيعها الصافية وتشجينا الفصاحة بأنعامها الرخيمة
ولكن ما وراء ذلك ؟ اذا كان الأستاذ صديقنا فالحق آلهنا وانا لندرجو أن
نكون فى مهمتنا الحاضرة غرباء عن الناس أجمعين ليس لأحد عندنا حظوة
ولا فى صدرنا عليه ضغينة وقد رأينا من المناسب أن تقدم هذه الملاحظة
بين يدي القارئ فقد بلغ الغش والكذب والخداع فى وقتنا هذا مبلغاً لم
تبلغه فى زمن من الأزمان حتى أصبح من المحتم على ناشر الكتب أن يفعل
كما يفعل أصحاب الحوانيت فى بلاد الصين فيكتب على صدور مطبوعاته
« ليس هنا للغش مجال » .

الفصل الثالث

ذكريات

لم يكن ظهور هذا الكتاب ليحدث فى نفسنا من الدهش أقل مما
أحدثه فى سائر أنحاء المعمور . والواقع اننا ما كنا لشيء من الاشياء أشد
استبعاداً منا لظهور هذا الكتاب . فلقد عرفنا الأستاذ فكان فى عهد
اتصالنا به رجلاً هادئاً وديعاً يؤثر الصمت والسكينة ، ويجنح الى العزلة
والطمانينة . ولئن كان بمباحث الفلسفة العالية كلفاً مولعاً فلقد كان اعتقادنا
فيه أنه لا يميل الى النزول الى حومة التأليف فاذا نزل يوماً فانما يكون ذلك

لتنفيذ آراء بعض الفلاسفة لا للاتيان بمذهب جديد لا يمكن أن يكون
من شأنه ألا تأجيج نار الجدال وتوسيع هوة الخلاف
وما ننس لا ننس آخر كلمة سمعناها منه في تلك الليلة التي لا يزال
عهدنا منطبعاً في ذاكرتنا . كنا مع الأستاذ في نادٍ يختلف إليه كل عشية
أفاضل القوم وصفوة أهل العلم فنهض وقد رفع إلى فيه كأس الجمعة وقال
بصوت خفيض يهز الأفتدة وبأحاط تحسبها أحاط بعض الملائكة - وان
كنت لا تدري بعد هل هو ملاك علوي أم ملاك سفلي - (أقترح عليكم
أيها الاخوان أن تشربوا هذه الكأس في محبة الفقراء) فارتفعت ضجة عالية
مزقت رداء السكون وتلاها صوت قرع الكؤوس ثم أصوات الهتاف
والتهليل وكان ذلك في آخر السهرة فنهض الحاضرون هم في ريعان الطرب
وعنفوان النشوة ، وانفض المجلس بين منعقد سحائب الدخان وقفل كل منهم
راجعاً إلى وسادته الهاجسة ، عندئذ سمعت أحدهم يقول (اني لأخشى على
الأستاذ هذه النزعة الديموقراطية وأخاف أن تسوقه إلى المشقة يوماً من الأيام)
فتلفت بعضهم يفتقده فإذا هو قد تسدل في بعض الأزقة . وكان هذا خاتمة
عهدنا به وآخر مجلس ضمنا وإياه .

في مثل هذه المواقف كانت حياتنا مع الأستاذ وبمثل ذلك المعيار كنا
تقدم مواهبه وأغراضه . ومن كان يدري إذ ذاك ما انطوت عليه جوانحك
أيها الفيلسوف ؟ لقد كان تحت تلك الغدائر الوحفة الضافية المشرفة على أوقر
وجه رأينا في الوجوه ذهني مستديم النشاط . وفي تلك العيون الساجية الغائرة
أولم نلمح وميض أنوار علوية أو نيران سفلية وهل لم يُخَيَّلَ إلينا أن ذلك
الهدوء البادي ليس الاسكينة الحركة الخالدة ونوم الخدروف الدوار ؟ بلى

أن جسمك الضئيل أيها الأستاذ - وأنت جالس هناك بين ركام الدفاتر والكتب في ثيابك المغبرة البالية تفنى بياض أيامك في التفكير والتدخين كان يضم قلباً كبيراً . لقد كنت ترسل نظرك الثاقب في ألغاز الكون وأحاجيه فتبلغ من أعماقها ما لا يبلغه سواك ، وكانت تتبليج لك أسرار الحياة عن معانيها المكنونة ، وينكشف لك حجاب الغيوب عن مخبأته المصونة نعم كانت فلسفة الملابس هذه مودعة في صدرك وكانت هذه الخواطر الغريبة تجول في ذهنك ، فمن ذا الذي كان يتصور يومذاك أن سداة هذا الكتاب العجيب كانت منصوبة على النول وأن الوشائع كانت تضع اللحم في صمت وخفوت ؟ ولكن الناس قلما يفهمون أعظم الرجال بل كثيراً ما يفهمونهم على غير حقيقتهم وهو شر وأدهى .

ولا ندرى بعد كيف سيهتدي الهرهفرات الى جمع معلومات نبني عليها ترجمة حياة الأستاذ والحق أن هذه مسألة معضلة ولكن من حسن الحظ أن الجواب عليها ليس من شأننا . ولقد حاولنا مراراً ونحن بمدينة وسينتشتو أن نقف على سيرة هذا الفيلسوف فما كان البحث في المحفوظات ولا سؤال الواقفين على حقائق الاخبار ليجدوا فتيلاً ، وكل ما اتضح لنا أنه غريب طرحته الى تلك المدينة مطارح النوى ، وشد ما تطلع الناس الى الوقوف على أصله ومنشئه وآماله وما ربه ولكنهم ما كانوا ليعثروا الا على بيانات غامضة وأجوبة مبهمه . وما برح الأستاذ يلتزم السكوت وينفر من التبسط والمخالطة فكان القوم يتهيئون سؤاله فاذا اجتراً امرؤ على ذلك أجابه في الحال جواباً لطيف التخلص جارح الحد يرد السائل عن تطافله ويمنعه من إعادة الكرة . وكذلك صار معظم الناس ينظرون اليه لا كأئنه من أبناء آدم وحواء

بل كأنه شيء من الأشياء اعتادوا رؤيته دون أن يفكروا بعد - في شأن من شؤونه .

وقلما كان أهل المدينة يبصرون الاستاذ أو يشعرون به عند ظهوره مساء في النادي فهناك يجلس مكباً على صفحات الجرائد أو متأملاً في سحائب الدخان المنبعث من لفافته وليس له في الظاهر شاغل سوى ذلك . وكان في كل أحواله موضع الإعجاب لوداعة أخلاقه وحلاوة شمائله لا سيما إذا فغر فيه للكلام ، فهناك تخفت الأصوات وتشخص الأبصار وتشرئب الأعناق ترقباً لما يفوه به من جوامع الكلم . وعندئذ ربما أطرده في حديثه فيفيض على السامعين من روائع القول تياراً متى ذابت ثلوج منابعه قطع الساعات الطوال وهو يتدفق تدفقاً وينهمر انهماراً . وكان مما يزيد حديثه وقعاً وروعة صدوره من رأس لا تخالها أشد به شعوراً أو أعظم به اهتماماً من رأس بعض الفوارات العمومية التي ترسل الماء من فوهتها النحاسية لكل من الرفيع والوضيع والشريف والخسيس لا تبالى بأى غرض يؤخذ له ولا فى أى وجه ينتفع به ، سواء عليها أجهز به الطعام أم أطفئ به الحريق ، بل هى لا تنفك تنظر إليك نظرة واحدة وتبدى لك هيئة متماثلة ، سواء تفجّر منها الماء أم لم يتفجّر . وكان الأستاذ يمنحنا من التبسط والايئاس ما يرضى به على أكثر الناس ، فليتنا أدركنا يومذاك بعض ماله من فضل وليتنا تأملناه بالعين التى كان بها جديراً ! وقد تفضل علينا فأباح لنا من حمى بيته ما لم يبيحه إلا لأعز أصدقائه وأخلص أصفياه ، وكان الذين يتمتعون بهذا الامتياز لا يتجاوزون ثلاثة أشخاص . شاهدنا مسكنه فإذا هو أعلى طبقة فى أعلى بيت بالمدينة تشرف على ما حوله من البيوت أشرف القمة الشامخة على ما يكتنفها من الهضاب

الطباخ هو المبشر الانجيلي ، حيث الواعظ لم يخلق له لسان ، إلا لكي يلعق
الصحن ، حيث مرشدوك وحكامك لا يستطيعون إرشادك بل يصيحون
من جميع الأرجاء ملء أشداقهم (دع الناس وشأنهم) ؟ ناشدتكم الله أيها القوم
أن تريحونا من هدايتكم وتعافونا من إرشادكم ، فمثل هذا النور أشد ظلمة
من حالك الظلام ، في الليل الطامس الاعلام . وأما أنتم فكلوا أجوركم وغطوا
في سباتكم

ثم يستمر قائلاً : « وكذلك تلاحظ العين البصيرة في كل مكان هذا
المنظر المهيج للاشجان : فقراء كالانعام المهملة يهلكون جوعاً وهزالاً وتعبدًا ،
وأغنياء أسوأ حالاً وأشدُّ بؤساً يهلكون كسلًا وكثرة وبشما ، يمضي أرفع
للناس مرتبة لا ينال من أوضاعهم أقل احترام ولا أدنى تكرمة ، اللهم إلا
كلمات من التزلف والملتق تصدر عن اللسان دون الافئدة ، كتلك التي يجود
بها خادم النزل على ثقة بأنه سيضيف قيمتها إلى قائمة الحساب » .

ولقد يحق لنا ان نتساءل هنا : ايجاد بيننا معشر الانجليز أو بين غيرنا
من الاقوام كثير من هذه « العيون البصيرة » التي تتجلى لها تلك الظواهر
الاسيفة ؟ أم تلك مناظر لا يتاح لاحد أن يراها إلا من ذلك المرقب الألماني
الرفيع ؟ إن الاستاذ يزعم انه يرى في كل مكان ، أعراض انحلال المجتمع بادية
للعيان ، ويقول فيما يقول : « انظر مثلاً أليست فضيلة الفضائل الآن ، ومحل
المفاخرة والمباهاة في هذا الزمان ، ذلك الشيء الذي يدعونه الاستقلال ؟
ألا ترى الى احقر حقير كيف يرفع عقيرته بالتبرؤ من كل شبهة للخضوع
للكبراء ، والاجلال للرؤساء ؟ ويحكم أيها الحق المفضلين ! أما والله لو كان
كبراًؤكم أهلاً لأن يحكموا ، ولو أنكم انتم كنتم أهلاً لأن تطيعوا ،

والنجوم ، وفي هذه الطبقة نوافذ تطل على الجهات الأربع فيظل ساكنها كأنه في مرقب علوى يرصد منه وهو وادع في كرسية تيار الحياة متدفقا في انحاء المدينة ويشاهد معظم الشوارع والأزقة بما حوت من نشاط وحركة . ولقد نذكر فيما سمعناه منه قوله : « انى لأطل من هذا المرقب على تلك الخلية الجائشة بالنحل أو ذلك الوكر الممتلىء بالزناير فأشاهدها وهي تفرز الشمع وتمجج الشهد وتخمز السم وتختنق بالكبريت . فمن القصر الرفيع حيث تصدح الانعام الرخيمة والأمرير الجليل يتناول الغداء ، الى الزقاق الوضيع حيث تجلس العجوز الشمطاء على عتبة الدار تصطلى شمس الأصيل وتعتصر من عمل أناملها مسكة الحوباء - كل ذلك أراه بعيني اذ ليس في هذه المدينة شيء هو أرفع منى مكانا غير مروحة الرياح التي تبصرها هنالك . فمن هاهنا يصل عمال البريد حاملين الأفراح والأتراح محزومة في الحقائق والعياب ، ومن هناك تأتى عربة « البارون » تعدو بها أربعة مطهومات ، وهنالك ترى الجندي الأعرج يظلم بساقه الخشبية مستنديا للأكف - هذا الى ما لا يحصى من العربات والكرات ترد من الأرياف موسوقة بالأطعمة والخامات ثم تصدر مشحونة بالسلع والمصنوعات - فهل لك أن تخبرنى من أين يأتى وإلى أين يمضى هذا التيار المتلاطم الذى ما زال يتدفق فى تلك الشوارع على مدى الأزمان وتعاقب الأحوال ؟ من الأبدية الى الأبدية . هذه الأشباح التي تراها ان هى الا خيالات وأطياف . أليست كلها أرواحا أبرزت للعيان بفضل هذه الأبدان التي لا تكاد تتخذ هذا الشكل المنظور حتى يسرع اليها البلى وتتلاشى كالهباء المنشور ؟ بلى ان هذه الأشباح لتسير فى الحياة والعدم فاغرفه من تحت أقدامها ، والوقت الفضاء محيط بهامن خلفها

وأمامها ، حاسبة أنها تطأ مهاداً وطيداً وما تطأ في الواقع الا صورة من صنع
الحواس وخيالاً من تهاويل الشاعر . أم هل تظن ذلك الضابط الذي يسير
هنالك وهو يقرع الأرض بنعليه ويديه على الناس بعطفه ان هو الا ابن اليوم
لا أمس له ولا غد وليس بينه وبين أبويك الأولين سلسلة متصلة الحلقات
من الآباء والأجداد ؟ إيه يا صاح ان هذا الذي تراه هو حلقة حية في نسيج
التاريخ الذي يضم في لحته وسداه كل مظهر من مظاهر الحياة . »

وسمعه مرة أخرى يقول في منتصف الليل وقد عدنا من النادي الى
البيت « حقاً ان في السكنى بهذا المكان لرفعة وجلالا ، انى لا أنظر الى تلك
الأشعة تنبعث من المصاييح وتتعثر خلال سحائب الدخان وضباب الأنفاس
حتى تقطع بعض الفراسخ في ملكوت الليل القديم فأسائل نفسي ليت
شعري ماذا ترى النجوم الثواقب في هذا الشعاع الضئيل ، وماذا يدور في
خواطر الكواكب عن هذا الضياء الكليل ؟ وانى لأنصت الى ذلك
الدوى الخافت الذي يصعد من جوف الليل وقد هدأت حركة الأخذ والعطاء
في سبات عميق وانطلقت عربات الغرور تحمل أصحابه الى المقاصير ذات
الأضواء الرفيقة اللعان والمضاجع الوثيرة الأكنان ولم يبق في خارج المنازل
غير البؤس والرذيلة فأقول في نفسي ان هذا الدوى الخافت - الذي كأنه
غطيط الحياة السقيمة في نومها المتقطع المذعور - ليتجاوز منطقة الجوزاء ،
ويصل الى مسامع السماء . يا لله ! أى خايبة تختمر وتفور تحت هذا الغطاء
البشيع المنعقد من أنواع الأبحرة والأقذار ، والغازات والأوضار ! هنالك
الفرح الجذلان والحزين الأسوان ، هنالك يجود المحتضر بخاتمة زفراته ، وعلى
بضعة أشبار منه يستهل المولود بفاتحة عبراته ، هنالك الورع المتعبد يحيى

الليل بالتسبيح والدعوات ، والى جانبه الشقى الملحد يقطع الهزيع بالسباب
واللعنات : كل ذلك هنالك لا يفصل الضد عن ضده الاحجاب رقيق من
الخشب والمدر ، والطوب والحجر ، والليل الفضاء يحيط بالجميع فى ظلامه
الرهيب ، ويضم الكل فى صدره الرهيب . بلى يا صاحبي ما أعجب
ما يجري تحت جتح الدجى من المتناقضات ، فأهل الترف والخيلاء يلهون
فى الحجرات ذات الارج الوهاج ، أو يضطجعون على وثير الفرش بين ستور
الدمقس والديباج ، وأهل البؤس والشقاء يتوارون فى الاكواخ الحقيمة
الجافية ، وينطرحون على الفرش المقصصة النائية ، مرتعدى الفرائص من لدعة
القرملمتبي الأحشاء من حرقة الجوع ، والعاشق يهمس فى أذن معشوقته ان
العربة متأهبة للرحيل فتنسل معه بين الخوف والرجاء ، الى بلاد الله الواسعة
الفضاء ، والسارق يتحفز فى خفة وخفوت لاقتلاع القفل من موضعه ،
أو يتربص غفلة الحارس فى مرقبه - وفى القصور البهيجة ذات الملاعب
الفيحاء ، والمراقص الروحاء ، ترى أهل النعيم بين الألحان الشجية ،
والأنوار البهية ، يتدفق من جوانبهم ماء الطرب والفرح ، ويطمح فى عروقهم
دم الشباب والمرح ، وفى غيايات السجون ، يقيم الأشقياء والمجرمون ،
تتناوبهم الجزع دواعيه ، وتساورهم من الفرع أفاعيه ، وقد باتوا بقلوب
وانية النبضان ، حسيرة الخفقان : يقلبون خلال الغياهب المكددة بهم من
الظاهر ، والظلمات المنتشرة فى ضمائرهم من الباطن ، عيوناً قريحة الآماق ،
دامية الاحداق ، تترقب مطلع الفجر المكفهر . ان نيفاً ونصف مليون من
الحيوانات المرط ذوات القائمتين يرقدون حولنا فى أوضاع أفقية :
رؤوسهم ملفوفة فى قبعات المنام ، وأدمغتهم محشوة بأسخف الأحلام .

هنالك في مواخير الفجور وبؤر الفساد تصيح العربدة بأعلى صوتها وهي
تترنح ينة وشمالا ، وتمايل وقاحة واختيالاً ، وفي غرفة المرض فوق سرير
الموت تحنو الأم المولهة على طفلها المصفر المحتضر مسترسلة الغدائر تبلل
بدموعها المستعرة وجنتيه الذابلتين وشفتيه اليابستين . كل هذه المخلوقات
مكدسة أكداً مكومة أكواماً لا يفصل بينها الا القليل من الأبنية
والأخشاب ، فما هي في ازدحامها الا كالسمك المملح في البراميل ، وما هي
في تموجها الا كالأفاعي المحبوسة في القناني ، كل منها يحاول أن يرفع رأسه
عن أقرانه ، ويسمو بهامته عن أخدانه ! فيالله كل ذلك يجري تحت هذا
السرادق المنعقد من الدخان والبخار ولكني أقيم هنا في عزاتي وصفائي ورفعتي
وسنائي وحيداً فريداً أراعي نجوم الليل وأناجي كواكب السماء !
فتأملنا في محيا الاستاذ كي نرى ما يرتسم عليه من أمرات الافعال وهو
ينطق بهذه الخواطر الغريبة والهواجس الرائعة ولكننا لم نبصر غير السكون
المألوف والوقار المعهود .

في هذه الاوقات وأمثالها كان يطيب الحديث الفيلسوف أما في غير
ذلك فقاما ينبس الا بالألفاظ فرادى وربما التزم الصمت التزاماً وأخذ في
التدخين تاركاً لزائره الحرية المطلقة فإما أن يقول ما يريد دون أن يتلقى من
الاستاذ جواباً غير همهمة تصدر منه الحين بعد الحين وإما أن يتلفت حواليه
برهة ثم ينسل في صمت وسكون . وكان الاستاذ يقيم في غرفة غريبة الشأن
عجيبة المنظر : مكتظة الفناء بالكتب والدفاتر ، ممتلئة الفضاء بالأقلام والأوراق
والمحابر ، في كل ناحية قصاصات من كل مادة يتصورها العقل ، وفي كل جهة
أدوات من كل نوع يتناولها الهمم ، يضم الجميع عنصر شامل من الغبار ، ويمتد

على الكل ظل عميم من الاهمال ، كتب فوق المكاتب وكتب تحت المكاتب ،
 هاهنا قرطاس يخفق ، وهناك منديل ممزق ، في هذا المكان حذاء مطروح ،
 وفي ذاك الموضع ابريق مبطوح . وكان للاستاذ خادم عجوز تسمى « ليسخن »
 تقوم له بجميع المرافق فكان له منها طاهية وكناسة ، وغسالة وعصارة ،
 ومديرة وقهرمانة ، وكانت مجبولة على حب النظام والنظافة ولكن الاستاذ
 كان لا يبيع لها الدخول في غرفته الخبيصة وهي حرمة المحرم وقدرسه
 المقدس ، بيد أن ليسخن كانت تقتحم عليه هذا الحصن الحصين مرة في كل
 شهر ، فتزيل بالمكنسة والمنفضة جانبا من كتيبان النفايات ، وفي أثناء ذلك
 يكون هو قد أسرع الى انقاذ قرايطه ومؤلفاته ، وهرع الى التقاط أوراقه
 ومصنفاته . وكان الاستاذ يسمى هذه الهجمات « نوبات الزلازل » وكان
 يخشاها أكثر من السيل الجارف والوباء الذريع ، غير أنه كان يستسلم لها
 استسلامه للقدر المحتوم . وبوده لو أتيح له أن يقيم على الدهر سابحا في
 خواطره وأحلامه غرقا في تأملاته وابحاثه ، لا تعكر حوض صفائه مكنسة
 ولا تقطع تيار آرائه منفضة الى أن يخرج من الغرفة ركام الكناسة ولكن
 ليسخن كانت يده اليمنى ومعينته الكبرى وقوام حياته وعماد بيته . فما
 كان يستطيع أن يرفض مطالبها رفضا باتا ونحن لا نزال نذكر تلك العجوز
 الشمطاء ، محسبها لفرط الصمت خرساء ، وربما حسبتها كذلك صماء ،
 فانها ما كانت لتخدم أحداً من الخلق ولا لتحفل بأحد من الناس غير سيدها ،
 وكانت تتفاهم وإياه في أكثر الأحيان بالوحي والايحاء ، ان لم تكن تهتدي
 الى مطالبه بنوع من الالهام الخفي . لك الله أيتها العجوز ما كان أشدك مضياء

في العمل ودؤوباً ! لقد كانت تقضى اليوم في الكدس والتنظيف والترتيب والتنسيق من غير أن تذكر السكون بأخفت جرس ، وكنت ترى كل شيء مع ذلك على أتم نظام ، وفي أحسن ترتيب واحكام : تأتيك القهوة في ميعادها ساخنة سوداء ، وتقف أمامك المرأة في صمتها وسكونها تنظر اليك من تحت قبعتها بوجه تبرق أساريره وضاعة ونظافة ، وبعين تنم عن فطنة وذكاء بل عن كرم ومروءة .

وكان بيت الفيلسوف كما أسلفنا حمى مصوناً لا يغشاه الا القليل من الغرباء ، وما كنا نجد عنده أيام ترددنا عليه غير « الهرفرات » وقد سبق تعريف القراء به . وكنا نرى فيه يومئذ أحد أولئك الأفراد الوديعي الأخلاق الطويلي الأعناق المزروري الأفواه النظيفي الثياب الذين يمتازون بين أفراد المجتمع بأنهم لا يتركون استعمال المظلة لا في الصيف ولا في الشتاء . ولولا عملنا بأي مقدار طفيف من الحكمة تسير في هذه الدنيا الأمور ، وبأي جزء زهيد من الفطنة تحكم الجماهير ، وبأن الأمر في ألمانيا لا يختلف عنه في سائر أنحاء الدنيا وذلك أن تسعة وتسعين في كل مائة من أولى الحل والعقد ليسوا الا اتباعاً للفرد الباقي وغاشية ، وأذناباً له وحاشية - تقول لولا عامنا بذلك لهالنا أن يكون هذا « الهرفرات » مستشاراً في مجلس المدينة . عجباً والله أية نصيحة يستطيع أن يسديها ذلك الانسان الذي ان تأملت قامته المسترخية العوجاء وسحته العجفاء وتذبذب وجهه واضطراب رأسه لم تتبين غير الارتباك والاختلاط ، والجبن والاحجام والاختباط ؟ غير أن الرجل كان لا يخلو من بذور الفضل وقد أحسن الاستاذ ما شاء في وصفه حيث قال « إن له قلباً ومقدرة أو كان له شيء من ذلك في وقت من

الأوقات على الأقل ، ولكنه لم يوفق الى اظهار ملكاته أو لم يساعده الحظ على استثمارها ، فنصفه قد أصبح الآن متصدعاً ونصفه لا يزال متجمداً « ولتصور القارئ ما سوف يجول في خاطر « الهفريات » عند اطلاعه على هذه الأقوال ولكن ذلك لا يعنيننا ما دمنا معتصمين بعروة الصدق في اثبات التاريخ ، متحصنين بمقل الأمانة في تدوين الاخبار .

بيد أن الذي يهمننا في هذا المقام هو تعلق الهفريات بالاستاذ فقد كان شغفه به واحترامه إياه لا يقلان عن شعور « بوزويل ^(١) » نحو الدكتور « جونسون ^(٢) » وربما كان الجزاء في الحالتين على حد سواء . فان الاستاذ كان لا يظهر لصاحبه الا قليلاً من الاعتبار وكان حبه إياه من قبيل الشكر والاعتقاد . أما « الهفريات » وكان أكبر من صاحبه سناً وأعز جاهاً وأكثر نسباً فقد كان يحنو على معبوده الفيلسوف بعاطفة كلها اعظام واجلال ورعاية أبوية وحنان ، فكان الفيلسوف لا يكاد يفغرفه حتى ترى الهفريات قد شحافاه فكأنه قد فتىح باباً على مصراعيه ثم يلبث مرهفاً أذنيه ، محملاً يعينيه ، كأن له في كل عضو وجراحة أذنًا واعية وعينًا ثابتة ، حرصاً على كل كلمة تقال وحفظاً لكل حرف يلفظ .

في هذه البيئة كان يعيش الاستاذ في عهد اتصالنا به ، ولعله لا يزال كذلك حتى الساعة . ففي ذلك البرج المشرف والمرصد المنيف وتحت أعين النجوم الساهرة وفي سكون العزلة السائدة قد غامس هذا الباحث القهار كل

(١) ، (٢) الدكتور جونسون من كبار أدباء الانجليز في القرن الثامن عشر شغف به المستر بوزيل هذا فاقطع لصحبته وقيده عنه كل آبدء وشاردة من أحاديثه وكلماته ثم ضمنها كتاباً وضعه في ترجمة حياة ذلك الأديب الكبير يعد في بابيه من خير ما أخرج للناس

ما غامس من المعارك مع شيطان الغباوة والجهالة ، وأكبر الظن أنه في ذلك
الموضع بعينه قد وضع كتابه المدهش عن فلسفة الملابس .
ولوشئنا لأرسلنا القلم في وصف الكثير من عاداته وأحواله وأشبعنا
القول في ذكر العصر الذي كان يعيش فيه والثوب الذي كان يرتديه ، إلى
غير ذلك من التفاصيل ، ولكننا نمسك عن كل هذا . لا لأنها أمور غير
جدرة بالذكر ولا حقيقة بالنشر ، فقد أصبح من المقرر في الأذهان أن
أصحاب العظمة الصادقة هم أولو الرأي والعرفان لا أولو الصولة والسلطان
وبذلك أخذ اهتمام الناس ينصرف بالتدريج عن الأمراء إلى الحكماء .
ولكن هبنا تقدمنا في بيان تلك التفاصيل أيظن القارئ أن ذلك يذنيه
إلى معرفة الاستاذ ويكشف له عن أسرارها قبل أن تصل إلينا المستندات
الموعودة ؟ إن حياة الفيلسوف لا تزال سرّاً محجوباً ، كل ما نعرف عنها
لا يتجاوز الظن البعيد والتخمين الغامض . ولكن أليست روحه مودعة
في هذا الكتاب القيم ؟ إذن فلنصرف همنا مؤقتاً إلى اجتلاء روحه ونفسيته ،
وتعرف آرائه وعقليته .

الفصل الرابع

مميزات وفهمها

من الغرور والملق أن ندعى لكتاب فلسفة الملابس الخلو من الشوائب
والتنزه عن العيوب ، وأنه ليس كسائر ثمرات العبقرية خليطاً من الوحي
والكشف والالهام مع ما يناقضها من الغباوة والغشاوة والعمى . وكيف

يسوغ هذا الادعاء ونحن نرى الشمس وهي أجل ثمرات العبقريّة وأرفع مظاهر الخليقة لا تخلو من كاف تشوب رونق لآلائها ، وسفع تشين بهجة بهائها ؟

وحسبنا أطناباً في مدح الكتاب القول بأنه قد حركنا الى العمل وأمدنا بروح من النشاط ، وهذا خير ثمرة لأفضل مؤلف ، بل انه لم يكتف بذلك حتى أحدث تغييراً في أسلوب تفكيرنا وحتى فتح لنا من العلم باباً جديداً وافترض من البحث منجماً بكرة جديراً بأن ينقب فيه الباحثون الى أعماق لا ينال قرارها ، وبأن يستشيروا من دوائنه طبقات لا تسبر أغوارها . والواقع أن الكتاب في ذاته بما حوى من عجيب المتناقضات أشبه شيء بمنجم جديد تجد فيه بجانب الكريم من الركانز والفلزات ، كثيراً من الأخبثات والنفايات ، فيدناه يروع القارئ بما أودع من آثار بارع المقدرة ونادر المواهب وطول الصبر على الفحص والاستقراء ونفوذ البصيرة وبعد النظر وحسن السبك وإشراق الديباجة ، اذاه يضجره بما تضمن من مواضع الركاكة والاسهاب ومظاهر التعقيد والجفاء .

والظاهر أن الفيلسوف قليل الاختلاط بالطبقات الراقية أو هو قد نسي جل ما رآه وتعلمه بينها ، فانه ينظر الى العالم بشوع من السذاجة المدهشة ويسمى كثيراً من الأشياء بأسمائها الحقيقية الواردة عنها في القواميس اللغوية ، فالمنجد مثلاً ليس في اعتباره رئيساً ربانياً بل صانعاً عادياً ، وأبهاء الاستقبال ليست في عرفه مهما راع أثاثها ونخم رياشها معابد مقدسة ، بل هي في نظره وان حوت كل مونتق بديع من البسط والتمارق والمرأى والأرائك لا تعدو كونها قطعاً من الفضاء العديم النهاية يجتمع فيها طائفة من الأشباح المخلوقة من

روح الله فتقضى بين جوانبها ساعة من الزمن « وما النجمة التي تتلألأ على صدر الأمير بأجل في نظره ولا أحقر من الزرار الحديدي الذي يراه في شملة الفلاح » وأى فرق بينهما وكلاهما في بابها أداة وكلاهما يؤديان عملاً واحداً هو شبك متفرق الأجزاء ذلك فضلاً عن أن كليهما قد أخرج من باطن الأرض وأحماه الحداد في كوره وطرقه على سندانه « وكذلك ترى الاستاذ ينظر في وجوه الناس قاطبة بنظرة واحدة غريبة وبحرية عامية مدهشة ، كأنه لا يعرف من عادات الخلق وأوضاعهم شيئاً وكأنه قد سقط بين الناس من بعض الاجرام العلوية . وإذا تأملت حق التأمل ألفت هذه الخبيصة الملازمة لتيار أفكاره المتغلغلة في مطاوي سريره وطباعه منشأ كل ما يؤخذ عليه من وجوه الافراط والتفريط وضروب المغالاة والتقصير ومظاهر الاغراب والشذوذ اللهم ان لم يكن لهذه الصفات مصدر آخر - وهو أيضاً قريب الاحتمال - نعى نزعاته الفلسفية العالية وولوعه باعتبار المادة وكل الأشياء المادية : معاني روحانية .

فالى عشاق العلم وأهل التفكير من هذه الأمة تقدم هذا الكتاب ونحن على ثقة بما سوف يحدثه من جميل الوقع وصالح التأثير . ومن ذا الذي يدري فقد يكون له أيضاً بعض النفوذ بين أهل المجون وعشاق الملاحى ، فما يؤثر عن الاستاذ قوله ان فى كل « ياقة » مهما صلبت وغلظت من معالجاتها بالنشاء قصبة هوائية وان تحت كل صدر مهما أثقل بصنوف الوشى قلباً خفاقاً . فليس من المستبعد أن تخلص الى بعض هذه الأفتدة المحجبة بلاغة هاتيك المعانى السامية ، والحق أن هذا الفيلسوف قد أودع قوة خشناء لم تذللها رياضة وقدرة مستكنة لا تشمر بما فيها من بطش وقوة . وهى

صفات قل أن تجد لها - إلا في أرفع مراتب الأدب - مثيلاً . فكم له في أسرار الطبيعة وسريرة الانسان من لمحات تغوص على الحقائق غوصاً ، ونظرات تقنص الشوارد قنصاً ، وكم له من ألفاظ ماضيات ، تحز مفاصل العضلات ، ثم تراه اذا رمى غرضاً لم يكفه أن يمسه مساً ، بل ينحى عليه بقوة ساحقة حتى يغيب السهم في اللباب ، ويهتك عن الصميم كل غشاء وحجاب . بيد أننا لا ننكر مع ذلك أن صاحبنا الفيلسوف أبعد الكتاب عن اعتدال الوتيرة واستواء النفس ، فكثيراً ما نراه بعد الفراغ من إحدى هذه الفعلات المجيدة يذهب متعسفاً متخبطاً في صحائف عدة طوال ، يهذر بكل تافه من السفاسف وسخيف من الأقوال .

كذلك أسلوب الكتاب قد جمع الى صادق البراعة ورائع المقدرة ما يشوّد محاسنه من خشونة وجفاء وتنافر وشذوذ . فبينما يكون طرفك رائداً في أثرى بستان من ألفاظ متخيرة ، وترا كيب محبرة ، وعبارات مشرقة الديباجة نقية السبك ، وإشارات كوحى الملاحظ وخطف البرق ، وتشبيهات يقطر منها ماء الفصاحة ، ويتوقد فيها لهيب الشعر ، وتخلصات تسترق الخاطر وتسحر اللب - نقول بينما تكون رائداً في أحسن ما شئت من روائق وروائع ينجبها خيال وثاب وحشي ، مقترن بذهن وقاد جلي ، اذ يهجم بك على كثير من الفقرات المجذبة المملة ، والاستطرادات المطولة المخلة . والواقع أن الاستاذ ليس من ذوى الأقلام المنقحة واليراعات المهدبة . على أن أسلوبه لا يخلو حتى في أسوأ حالاته من سحر عجيب ، وانك لتسمع منه نغمة غريبة تتخلل جميع مناطقه ، كأنها مفتاح نغمه ومنظم صوته . فتارة ترتفع نبراتها الى ما يشبه تهليل الملائكة أو عويل

الأبالسة ، وأنا تنخفض رناتها الى المقام المعتاد ، وهناك لا يوافي أذنك
 الا طنين ممل لا يزال منه حتى اليوم في حيرة لا ندري هل هو رنة المزاح
 الصحيح الذي يعد بحق من أرفع مزايا العبقرية ، أم هو صدى الجنون المحض .
 كذلك نجد أنفسنا في مثل هذه الحيرة ونكابد مثل هذا العناء أزاء
 عواطف الاستاذ وميوله . فآناً تراه يفيض برفيق أنوار الحنان والمحبة ،
 ويتدفق برفيق أنات المطف والرحمة ، حتى يخيل اليك أنه لو استطاع لضم
 العالم بمحذافيه الى صدره الحنون واحتضنه بين جوانحه المشفقة وأن تحت
 هذا الظاهر الجافى الغليظ ملاكاً طاهراً كريماً . وآناً تراه قد أبدى صفحة
 المكر والدهاء ، ولبس قناع العبوس والجفاء ، وراح ينظر بعين الاستخفاف
 بل الاحتقار الى كل ما يسمى الناس اليه ويتقاتلون عليه ، وقد تراءت على
 محياه تجميدة خفية هي من دلائل المزاح المر والتهم القارص - ان لم تكن
 من دلائل البلادة والغباء - حتى يكاد الناظر اليه يرعش ويرتجف كأنما هو
 مائل بين يدي شيطان مجسد لا يرى في العالم الأرضي والعالم السماوي الا مرقصاً
 هائلاً رحيباً تختلط فيه الملوك بالصعاليك ، والملائكة بالشياطين ، وكواكب
 السماء بكناسي الأزقة ، فيدورون جميعاً في رقصة حمقاء هوجاء لا تلذ غير
 الأطفال وصغار الأحلام . ولقد ذكرنا آنفاً أن للاستاذ نظرة ربما كانت
 أوقر ما عهد الناس من النظرات ، بيد أن وقارها لبس من ذلك النوع
 الحديدي اليابس الذي يشاهد في الحاظ أرباب السياسة وعشاق المناصب ،
 بل هو أشبه بوقار بعض البحيرات الجبلية التي تراها مكنونة بين أسوارها
 الشائخة ومعقلها الباذخة ، والتي لعلها كانت فوهة بركان خامد الأحشاء ،
 فأنت توجس خيفة من النظر في أعماقها السوداء . ومن يدرينا فقد تكون

الأضواء المتلاثلة في تينك العينين شواظ النيران الجهنمية ، كما قد تكون معكوس أشعة الكواكب السماوية !

حقاً ان طبيعة الاستاذ لسر ملفز وطمس معجز تحسر دون تعرفه الافهام ، وتكل دونه استجلائه الأوهام . بيد أنا نذكر بمزيد الارتياح أننا رأيناه يضحك مرة : مرة فذة لعلها الاولى والأخيرة في عمره ، غير أنها كانت ضحكة ولا كسائر الضحكات : ضحكة صاخبة مصلصلة مقعقة جذيرة بايقاظ أهل الكهف من عميق سباتهم ! وكان أول ما شاهدت من أمرها وميض خفي لاح في محيا الاستاذ وعينه فما زال ينتشر ويستفيض حتى صار نوراً ساطعاً وهاجاً ، وبريقاً ساحراً مبهاجاً فكان آلهاً في ريق الشباب ورونق الصبا راح يطل عليك من تلك الملامح المعتمة ، والتقاطيع المتجهمة . ثم تفجر بقهقهة عالية متدافعة متواصلة ، كأنما انطلقت بالصهيل حلبة حافلة ، وانحدرت الدموع على خديه صيباً وتعلقت قدماء في الهواء صعوداً : ضحكة لا من التي تقتصر على أعضاء الوجه وعضلة الحجاب بل من التي تتناول الانسان بجملة ، وتنظم كيانه برمته ، فتسرى في جميع جوارحه من ذؤابة رأسه الى أخمص قدمه . فلما رأيت ذلك — وكنت قد شاركت في الضحك ولكن بقدر واعتدال — شرعت أوجس خيفة على الاستاذ بيد أنه ما لبث أن استجمع نفسه واثاب الى سكونه المهود فكنت لا تتبين شيئاً في صفحة محياه المبهم الا مسحة خفيفة من الخجل . فمن كان من القراء له أدنى دراية بعلم النفس كان خليقاً باستنباط ما تنطوي عليه تلك الضحكة من المبر والحقائق وجديراً بأن يعلم أن المرء الذي يكون قد ضحك ولو مرة واحدة من صميم قلبه وبجميع جوارحه قين بأن لا يبت الرجاء من اصلاحه ويقطع الأمل

من تقويمه . لله در الضحك ما أوضح مغازيه وما أبين معانيه ! ان هو الا
الدليل الذى يكشف عن الانسان أسرارہ ، ويهتك أستاره ! ان بعض الناس
ليقتنن وجوههم بابتسامة جدية غبية سخيصة ، وانك لتجد فى ابتسامة
غيرهم لمعانا بارداً كليمان الثلج ، وقليل هم الذين يضحكون الضحك الصحيح
الصادق - الضحك الذى ينبعث من قرارة النفس ويرن فى طيات الجوانح .
أما أكثر الخلق فانما يبعثون من الحلاقيم الى جوبات الأشدق ضروباً من
المهاتفة أو الكركرة أو على الأكثر نوعاً من القهقهة المبحوحة كأنهم
يضحكون خلال طبقات من الصوف المنفوش ، وكل هؤلاء لا خير فيهم
ولا فائدة منهم ، فان المرء الذى لا يستطيع الضحك ليس صالحاً للدسائس
والخianات والمقاسد فحسب ، بل حياته باجمعتها هى فى ذاتها وأصلها خيانة
ودسيسة .

والاستاذ من حيث كونه مؤلفاً عيب لا يكاد يغتفر ونعني عدم اعتداده
بالنظام والترتيب ، فالكتاب يقع بطبيعة الحال فى قسمين : قسم وصفى تاريخى
وقسم نظرى فلسفى . بيد أنك لا تكاد تجد بينهما حداً فاصلاً بل لا يزال
كلاهما يتعدى على صاحبه ويتخيفه ، ويتطرق اليه ويتخلله ، حتى يظل القارىء
بين هذا الخليط فى حيرة عمياء ، كأنه فى ولية هوجاء ، اختلطت بها
الأطعمة من كل صنف ونوع ، وكل شكل ولون ، فالجوامد والسوائل ،
والبوارد والسواخن ، واللحوم والأسماك ، والتوابل والمريبات ، والحلوى
والمخللات ، والأنبذة والأشربة ، كل هذا قد ألقى جملة واحدة فى دسيسة
ضخمة ثم دعى اليها الجمهور الجائع - فتحويل هذه الفوضى الى شىء من
النظام ذلك بعض ما نحاوله .

الفصل الخامس

الدنيا في الملابس

يقول الاستاذ في فاتحة كتابه « كما وضع مونتسكييه كتاباً عن روح الشرائع أضع أنا كتاباً عن روح الملابس . فان الانسان لا يجري مع الصدفة العمياء لا في سن الشرائع ولا في خياطة الملابس ، بل لا تزال اليد العاملة مهتدية بنور العقل تنقاد بزمامه وتدعن لأحكامه . وانك لتجد فكرة فنية كامنة في كل ما يتكرر من الملابس على اختلافها وفي كل ما يبذل من المصاعى في سبيلها . وما جسم المرء وملابسه الا البقعة التي عليها ، والمواد التي بها ، يشاد ذلك الهيكل الرائع الفخم : شخص الانسان ! فسواء رأيت يرفل في البرود المسيلة الأذيال ويختال في رفاق النعال أم رأيت يسمو بالقلمسوة العالية من خلال الأوشحة والمناطق والأحزمة والقراطق أم أبصرته منتفخاً في الأطواق المنشأة والحشايا المشمعة أم ألفتته قد شد نفسه وقسمها أجزاء متميزة وخرج الى الملا مجموعة من أربعة أعضاء : كل ذلك يتوقف على نوع هذه الفكرة الفنية وهل هي اغريقية أو غوطية قديمة أو غوطية متأخرة أو حديثة مولدة . ثم تأمل أى معان جليلة تنطوى عليها ألوان الملابس ، فمن الاسود القائم الى الاحمر الوهاج أى خصائص روحانية وصفات نفسانية يكشفها لك اختيار الألوان ! فاذا كان التفصيل ينبئك عن طبيعة الذهن والقريحة فان اللون ليخبرك عن طبيعة القلب والمزاج . ولا بدع فهذا كله يجري بين الشعوب كما بين الأفراد يفعل الاسباب والمسببات : ذلك الفعل الذي لا ينقطع عمله ولا ينكر أثره وان كان في غاية التعقيد والالتباس ، فما

من حركة من حركات المقص الا وهى منظمة مدبرة بمؤثرات دائبة عاملة ليست بالخفية ولا بالمبهمة لذوي البصائر الجليلة والافهام النافذة»

ثم يأخذ الاستاذ فى ذكر منشأ الملابس وتاريخها وما ورد عنها فى أساطير الأولين وخرافات الغابرين مما لا داعي الى نشره ، بيد أنه قد تخلل هذه الابحاث نظرات فلسفية ثاقبة ، وصور للحياة مؤثرة ، نثبت منها ما يأتى :
يزعم الفيلسوف أن أول ما بعث الانسان على ارتداء الملابس لم يكن طلب الدفء أو داعي الحياء وإنما حب الزينة ، وذلك حيث يقول « حقاً ما كان أنعس عيش المتوحش الفطرى وأبأسه ! تدير محاجره شهاني لظى يتأججان تحت غدايره الوحفة المتشعبة ، ويتخذ من شعوره المسدلة على متنه ولحيته المسبلة الى بطنه ما يشبه العباءة الملبدة ، أما سائر بدنه فمستور بغطاء كثيف من زغبه الطبيعى . ثم تراه إما متسكماً فى شعاب الغابات ، يصطلى جهرة النهار ويقتات من ثمار الأشجار ، وإما مقعياً فى بعض المستنقعات ، يتربص فريسته البهيمية أو الآدمية ، أعزل من كل سلاح مجرداً من كل عتاد اللهم الا كرة ثقيلة من الصوان قد ربطها بحبل من الجلد المضفور ، مخافة أن يفقدها وهى سلاحه الوحيد فى الدفاع والهجوم ، فهو بذلك الحبل يستردها كما يقذفها بمهارة صائبة وإصابة قاتلة . بيد أنه متى فرغ من اطفاء حرقه الجوع وارواء غلة الانتقام كان همه الأكبر وشاغله لا التماس الراحة بل طلب الزينة ، ولا غرو فانه متى احتاج الى الدفء وجد منه ما شاء إما فى جهاد الطرد والعناء ، أو بين الأوراق الجافة فى شجرتة الجوفاء ، أو فى حظيرته المتخذة من اللحاء ، أو فى مغارته الطبيعية الملساء ، ولكن لأجل الزينة والزخرف لا سبيل الا للملبس . بل لقد وجدنا بين الشعوب العريقة فى الهمجية ان الوشم والطلاء

أسبق ههنا حتى من الملابس . فأول حاجة روحانية يشعر بها الإنسان المتوحش هي الزينة كما هو الواقع الى اليوم بين الطبقات المتوحشة في البلاد المتعدية . « بلى أيها القاريء ان الشاعر المفرد الملهم ، والملك الأصيل المعظم ، بل معشوقتك الحسناء المكنونة في صدف الخدور ، المصورة من بهاء ونور ، التي تكاد من فرط الخفة والرشاقة والصفاء ، تنساب كالملك على أجنحة الهواء ، والتي تعشقها وتعبد لها كأنها حضرة آلهية ، كما هي في الواقع اذا اعتبرت الأمر من الوجهة الرمزية — أقول كل هؤلاء قد انحدروا — كما انحدرت أنت أيها القاريء — من صلب ذيك المتوحش الأغبر المتزمل بشعوره الشعثاء ، المتسلح بالصفات الصماء . وكذلك تخرج الحلاوة والرقعة من البطش والقوة ، أي ضروب عجيبة من التغيير وأي مظاهر مذهشة من الانقلاب والتبديل تحدث — لا بفعل الزمان — ولكن على مره ! فما النوع البشري وحده بل أيضاً كل ما يفعله وكل ما يشاهده هو في نمو مستمر وحياة متجددة لا تزال ترمى الى الكمال الأسمى ، وتسعى نحو المثل الأعلى . الق بعملك أو بقولك في هذا العالم الدائم الحياة والحركة فما هو الا بذرة حية لا تموت ولا تقنى ، ان لبثت اليوم خاملة مدفونة فلسوف تشاهد بعد آلاف السنين خميلة غناء من رائع السنديان ، أو مع الأسف غابة غيباء من خبيث الشكران .

« هل كان يدري أول من اختزل عمل النساخين باختراع فن الطباعة أنه يفض جيوشاً ، ويثل عروشاً ، ويقضى على نظام الحكومات المطلقة ، ويحل مجلس الأعيان الموقرة ، وينشيء عالماً جديداً بخذافيره من الديمقراطية والحرية ؟ لقد كان مفعول أول حفنة من مسحوق النظرون والكبريت

والفهم أنها أطاحت مدق الراهب حتى اخترق سقف الغرفة التي كان بها ، فإذا ترى سيكون مفعول آخر حفنة ؟ لا شك أنها ستفضي الى احراز النصر المبين للقوة الذهنية على القوة المادية ، وللشجاعة الروحانية على الشجاعة الحيوانية . ثم تأمل كيف كان اختراع النقود في أول أمره شيئاً هيناً بسيطاً ، اذ خطر ببال الراعي القديم - وقد مل التطواف في مناكب الأرض بثوره البطيء ابتغاء مبادلته بقمح أو زيت - أن يأخذ قطعة من الجلد فيحفر فيها أو يطبع عليها صورة الثور (بيكس) ثم يضعها في جيبه ويدعوها (بكيونيا) أو تقدأ - ومن ثم صارت المبادلة مبايعة وتحولت النقود الجلدية الى نقود ذهبية فورقية فرأينا من آثارها وفعالها ما فاق المعجزات إعجازاً والخوارق إدهاشاً : فهناك المصارف المالية والديون الأهلية وأصحاب القناطر المقنطرة والملايين المجمعّة ، ومن آثارها أن صار كل امرئ يملك ولو درهماً واحداً أميراً مطاعاً وسلطاناً مسلطاً على جميع الناس بمقدار هذا الدرهم : يأمر الطهارة فيطعمونه والفلاسفة فيعامونه والملوك فيحرسونه - بمقدار الدرهم . وكذلك الملابس التي نشأت باديء ذي بدء عن حماقة الشغف بالزينة أى المبالغ لم تبلغها وأى الغايات لم تدركها ! لسرعان ما استفاد الانسان منها مزيد الوقاية ولذيد الدفء والحرارة ، ولكن ما هذه بجانب غيرها ؟ فالملابس هى المصدر والمنشأ لفضيلة الحياء ، ذلك الهيكل الظليل المحجب الذى يضم بين جوانحه كل مقدس فى الانسان . والملابس هى التى جعلت لنا شخصيات مستقلة ومميزات نتفاضل بها وسياسة نجري عليها وصفوة القول أن الملابس هى التى تجعل الفرد منا انساناً وهى التى تنذر اليوم بجعله مشجباً تعلق به الشياطين وتعرض عليه الأردية .

ثم يستمر الاستاذ البليغ فيقول « على أن جملة القول ان الانسان حيوان يستعمل الآلات ، فهو ضعيف في نفسه ضئيل في جرمه يقف قلقاً مضطرباً على قاعدة لا تتجاوز نصف قدم مربع مهما كان عرض قدميه . ويضطر أن يفتح بين رجليه لئلا تنفخه الريح فيطيح : ما أوهنك أيها الانسان لأنك أضعف ذى قائمتين . يفدحك حمل الثلاثة القناطير ويلاقيك ثور الغاب فيقذفك صعداً في الهواء كأنك خرقة بالية . غير أنك بالرغم من ذلك تستطيع استعمال الآلات واختراع الأدوات وبفضل هذه تذوب من يديك الجبال الشماء والجلامد الصماء ، حتى تصير تراباً كالهباء ، بفضل هذه يلين لك الحديد القاسى فتصور منه ما شئت من صور متماثلة ومتباينة ، كأنه عجيبة لينة ، بفضل هذه صارت لك البحار سبلاً معبدة وأصبحت لك الريح والنار جياداً مذلة لا ينالها السام ولا يعتورها الونى ! وكذلك مهما بحثت فلن تجد الانسان بدون آلات اذ هو بغير الآلات لا شئ وهو بها كل شئ . »

« الانسان حيوان يستعمل الآلات وما الملابس في الواقع الا أحد الشواهد على هذه الحقيقة . ولئن تأملت البون الشاسع بين أول معزقة خشبية صنعها الانسان وبين هذه القاطرات البخارية والمجالس البرلمانية لتبينت مبلغ التقدم الذى أدركه . يقتلع الانسان من جوف الأرض بضعة أحجار سوداء فيقول لها (انقلينى ومتاعى بسرعة خمسة وثلاثين ميلاً فى الساعة) فلا يكون منها الا أن تصدع بأمره . ثم يجمع جزافاً مائة وثمانية وخمسين فرداً مختلفي المذاهب والمشارب فيقول لهم (مروا هذه الأمة أن تبذل فى سبيلنا جهادها وتسفك من أجلنا دماءها وتحمل آلام الجوع والحزن وعواقب الجريمة والاثم) فسرعان ما يلبون طلبه »

الفصل السادس

في المبال

من أغرب فصول الكتاب وأعجبها الفصل الذي عقده الامتاز عن
المبال وأودعه من عبارات الاستخفاف والازدراء ، ما يقارب صريح الهجاء ،
فعمرك الله ماذا يعنى المؤلف بأمثال الأقوال الآتية ؟

« المبال دروع واقية يتخذها الانسان للمحافظة على النظافة أو السلامة
أو الحياء ، وأحياناً للمحافظة على الغدر والسفالة . وقد تفنن الناس في هيئات هذا
النوع من الملابس كل التفنن ، وتصرفوا في وجوه استعماله كل التصرف ، فمن
قطعة الديباج الرقيقة الحواشي المشرشرة الأطراف تضعها الحسنة على صدرها
الرقيق فتحسبها من فرط الحسن واللطافة طيف المبذلة الأنيق - الى ذلك
الأديم الغليظ يشده البناء بسيور من الجلد حول خصره حتى اذا جاء المساء
أثبت فيه أداة ممله - الى تلك المبذلة العالية الصليل المتخذة من صفائح
الحديد التي يرتديها القين وهو يطرق المطائل على السندان أو يذيب
السبائك في البيران - أليس في كل ذلك شاهد صادق على التفنن في هيئات
المبال والابتداع في وجوه استعمالها ؟ لله در المبال كم من أمور تستر عن
العيون ! وكم من أمور تصون من المحذور ! بل تأمل حق التأمل وحدثني
عن حقيقة هذه الجيوش والشرط والأساطيل ينفق عليها ما لا يقدر من
الملايين ؟ أليست هي أيضاً مبذلة ضخمة يرتديها المجتمع الانساني (فلا يزال فيها
مرهقاً مضيقاً) وهو يعمل في ذلك المصنع الهائل الذي نسميه الدنيا فيبقى بها
نفسه مما يرفض هنالك من الشرر ، ويتطأير حوله من القدر ؟ »

أو هل أتيح لأحد القراء أن يطالع أمثال العبارات الآتية :
 « انى أعد تلك المبادل التى يتخذها طهارة باريس من الورق المطبوع
 منفذاً جديداً - وان يكن محدوداً - يندفع منه سيل المطبوعات الزاخر .
 وهى من هذا الوجه مظهر منشط لهضة الآداب ، فجدير بها أن تنال كل
 ثناء مستطاب . وقد سررت أيما سرور عند ما أنبت أن متجراً شهيراً فى
 لندن قد عزم على ادخال تلك العادة فى بلاد الانجليز » . لا ندرى من أين
 وصل هذا الخبر الى الاستاذ مع أننا معشر الانجليز لم نسمع به قط وحقيق
 بنا أن نحمد الله على أن آدابنا لم تفتقر على وفرتها الى منفذ من هذا القبيل -
 ثم يستمر الاستاذ فيقول « ولكن أليس من المعجب الطريف أن نرى
 خمسة ملايين قنطاراً من الخرق تلتقط من المزابل فى كل عام وبعد أن تمزق
 وتكبس وتذاب ، وتهمياً ورقاً وتطبع وتباع ، تعود الى المزبلة مرة أخرى ،
 فتكون فى أثناء هذا الطواف قد أطحمت ألوفاً من البطون الجائعة ، فكان
 المزبلة بما حوت من الخرق البالية إن هى الا بطارية كهربائية عظيمة
 تنبعت منها وتعود اليها تيارات المعاملات والمجهودات بعد أن تجول فى دوائر
 صغيرة وكبيرة خلال ذلك السديم المضطرب العجاج ، المصطفق الرجراج ،
 الذى يظل بفضل هذه التيارات جائش الحركة مفعماً بالحياة ؟ »

بعد هذا الفصل العجيب عن المبادل يورد الاستاذ فصلاً عن الملابس
 التاريخية حافلاً بأوصاف الملابس فى متتابع العصور ، وما طرأ عليها من التغيير
 على مر الدهور ، بيد أننا نكتفى بهذه الملاحظة الجديرة بالتأمل :

« لو تيسر لأبناء هذا العصر من الألمان أن يشاهدوا الملابس التي كان يرتديها أسلافهم في غابر الأزمان لتبسموا استغراباً لها واستخفافاً بها ، كما أنه لو أتيح لأولئك الألمان الغابرين أن يبعثوا من قبورهم ويعاينوا ما يرتديه الآن لصنعوا بأيديهم علامة الصليب وتموذوا بالعدراء . ولكن من حسن الحظ أنه لا يتاح ولن يتاح في هذه الحياة الدنيا لأحد أولئك الألمان الغابرين أولاً أحد الناس على الإطلاق أن يبعث من رقدته وينشر من حفرة . وكذلك ترى الحاضر لا يرتبك بالماضي ارتباكاً لا داعي له ، بل هو يخرج منه وينمو كما تخرج الشجرة من بطن الثرى فلا تتواشج اعراقها بأغصانها ، بل تذهب هذه صاعدة في السماء وتستقر تلك تحت الأرض في سكون وأمان - بيد أنه من بواعث الحزن (وان كان الأمر لا يخلو من الفائدة) ان أحب الناس الى قلوبنا وأعظمهم شأنًا في عيوننا اذا عاد الى الحياة بعد مدة وجيزة من وفاته ألفى محله مشغولاً ولم يجد لنفسه في الدنيا مكاناً . فهذا نابليون ويرون على ما كان لهما في النفوس من المسكنة السامية قد أصبحا في بضع سبع سنين من الطراز القديم وصارا عن أهل أوروبا غريبين أجنيين ، وبهذا قضت شريعة التقدم والارتقاء فلن تجد نطاً يبقى على الأزمان لا في الملابس ولا في سائر الأشياء الظاهرة على الإطلاق ،

الفصل السابع

الدنيا مجردة من الملابس

لئن كان الاستاذ قد أدهش كثيراً من القراء بما أورد في القسم التاريخي الوصفي فأحجج به أن يكون كلامه في القسم النظري الفلسفي أدعى الى الدهشة

وأدخل في باب العجب . والواقع أن الناشر قد أخذ منذ الآن يشعر بثقل
 العبء وضغطه ، فمن هنا تبدأ فلسفة الملابس العالية ، وانها لمفازة سحيقة
 الأرجاء ، محتجزة عن الادلاء ، لا يدرى المخاطر فيها أى المسالك يسلك ،
 وأى الوجهات يأخذ ، بل لا يعلم أين تثبت مواطىء قدميه فتحتمله ، وأين
 تسيخ به فتبتله . لقد أخذ الاستاذ على نفسه أن يشرح ما للملابس من
 الآثار الأدبية والسياسية والدينية ، وأن يوضح غوامض تلك النظرية
 العظيمة : وهى أن مصالح الانسان فى هذه الحياة الدنيا مترابطة الأجزاء
 متماسكة العرى بفضل شىء واحد هو الملابس . وهو يعبر عن هذه الحقيقة
 بقوله طوراً « بنى المجتمع على الملابس » وتارة « ان المجتمع ليسبح فى فضاء
 الانهيار على الملابس كأنه سابح على بساط سليمان ولولا هذا البساط لسقط
 فى أعماق الهاوية وغاله الفناء »

ولن نحاول هنا بيان حلقات التفكير التى اهتدى بها الاستاذ الى
 كشف هذه النظرية العظيمة والى استنباط ما يترتب عليها من النتائج العملية
 الكثيرة ، فان هذه المحاولة تعد منا ضرباً من الجنون ، ولا غرو فالاستاذ
 لا يتبع طريقة المنطق المدرسى حيث تجد الحقائق واقفة جميعها فى صف
 مرصوص آخذ بعضها برقاب بعض ، بل هو يسلك طريقة اللقاة واللوزعية
 والالهام ، فيتخطى بنظرة واحدة من ثاقب نظراته مجاميع كاملة من المقدمات
 والنتائج ، ومن ثم تجد فى فلسفته نوعاً غريباً من رائع الاختلاط كالذى يشاهد
 فى مجالى الطبيعة فتشعر كأنك فى متاهة هائلة ولكن قلبك يحدثك بأن
 هذه المتاهة لا تعدم نظامها المحكم . وقد نشاهد أحياناً بجانب هذا الاختلاط

الشريف اختلاطاً خسيساً يصح أن يدعى ارتباكاً وحينئذ شد ما نتمنى من صميم الفؤاد لو كانت تلك المستندات الموعودة على حبل ذراعنا ، إذ يظهر أن إيضاح كلام المؤلف يتوقف في كثير من الأحوال على إيضاح شخصيته ، كأن الاستاذ قد تلقى تعاليمه لا من طريق البرهان النظري بل من طريق الاختبار الشخصي . على أننا نجتزئ الآن باقتطاف شذرات من هنا وهناك ثم نجمع منها صورة تؤدي إلى القارئ بياناً مجملًا عن مذهب الفيلسوف .

لهذا نحن ندعو أهل الفطنة والذكاء من القراء إلى استجماع خواطرهم وحشد أذهانهم . ونسألهم أن يخبرونا بعد انعام الروية أفلا يلمحون على حاشية الأفق الأقصى أعلام أرض جديدة ، وبشائر جزائر سعيدة ، تدعو إليها كل من يمتطي صهوة اليم ، ويغامس حومة الخضم ؟ وهاك أيها القارئ مثالا : -

« يأتي على أهل التأمل والتفكير أوقات حلوة هاجسة ولكنها جليلة رائعة يوجهون فيها إلى أنفسهم بين الدهشة والوجل هذا السؤال المفهم الرهيب : من أنا ؟ ، ما هو ذلك الشيء الذي يقول أنا ؟ في هذه الأحيان يشعر الإنسان كأن الدنيا بصخبها ولجبتها قد تراجعت إلى الوراء قصياً ، وكأن بصيرته قد نفذت من خلال بطائن الورق وجدران المدر ومن خلال المشاغل التجارية والسياسية ونسائجها الصفيقة الطيات المتراكبة الطبقات ومن خلال تلك الأغشية النامية والجامدة التي يتألف منها الجسم والمجتمع والتي تحرق بوجودنا - أقول في هذه الأحيان تنفذ البصيرة خلال هذه الأشياء كافة حتى تصل إلى أعماق الغيب . وهناك يقف الإنسان وحيداً

فريداً بين يدي حقيقة الكون يناجها مناجاة خفية ، كما يتناجى الروحاني ويتفاوض السران !

« من أنا ؟ صوت أم حركة أم ظاهرة أم خاطر من خواطر العقل الأبدى جسم وأبرز الى حيز المنظور ؟ مهلاً أيها المفكر المسكين فقلما يجدي عليك هذا التفكير . حقيقة انك موجود ، وحقيقة انك لم تكن منذ عهد قريب ، ولكن من أين أتيت ؟ وكيف جئت وأيان تساق ؟ أسئلة تجد الجواب عليها منشوراً حولك في عرض السموات والأرض ، مكتوباً بكل لون وحركة ، ومسموعاً في كل أهزوجة وعولة ، ولكن أين العين الثاقبة التي ينكشف لها ذلك السفر المقدس المكتوب بالقلم الأعلى عن مدلولات مفهومة ومعان مبينة ؟ نحن من هذه الدنيا مقيمون في كهف عجائب وأحلام ، ومعرض خيالات وأطياف ، بعيد الانحاء شاسع الارضاء ، يقصر عن أقرب مداه أغمض الكواكب وأبعد القرون - توفي الى آذاننا أصوات ونغمات ، وتتمثل لعيوننا صور جملة الألوان وخيالات ، ولكن الأصل المبدع الذي لا تأخذ سنة ولا نوم ، والذي أنشأ الحالم والحلم ، مغيب مكنون ، لا تراه العيون ، بل لا يخطر وجوده على الأوهام ، الا في لحظات نادرة بين اليقظة والمنام . قال حكيم من الحكماء (مثل الكون كمثل قوس قزح يتراءى أمامنا في حسنه وبهائه ، وجماله وسنائه ، ولكن الشمس الذي نقشته فأبدعت ، وصورته فأحكمت ، تحتجب وراءنا في مطاوي الغمام بحيث لا تنالها الأبصار) . وكذلك نضل في هذا الحلم الغريب نحاول امساك الخيالات الطائفة نحسبها أجساماً جامدة ، ونغبط في عميق السبات إذ

نحسب أنفسنا منتبهين أشد الانتباه ! بالله خبرني أي مذهب من مذاهبنا
الفلسفية الا وهو أضغاث أحلام في أضغاث الأحلام ، الا وهو خارج قسمة
صاف أخرجته وأنت واثق بصحته جد الوثوق مع ان كلا من القاسم
والمقسوم عليه مجهول ؟ بل ما هذه الحروب والخطوب ، والحوادث الجسام ،
والثورات العظام ، الا هذيان المضطرب في منامه ، وحركات المروع من
مزعجات أحلامه ؟ هذه الأحلام وهذا الهذيان هو ما نسميه الحياة حيث
أحكم الحكماء وأعلم العلماء هم أولئك الذين يعلمون انهم لا يعلمون شيئاً .

« أسفى على أن علوم الأصول والكلام لم تثبت حتى الآن غير عقمها
المفرط وعجزها الفاضح . فهذا سر الحياة لا يزال كسر أبي الهول : لفر مبهم
مغلق لا يستطيع الانسان له حلاً ، وقد قضى عليه لعجزه عن حله بشر
أنواع الموت : الموت الروحاني . ما هذه التي نسميها بدهيات ونظريات
ومذاهب ومبادئ ؟ كلام في كلام ؟ قلاع هوائية شاهقة قد بنيت
أبداع بنيان بقراميد الألفاظ وتماسكت بموتة المنطق ، ولكنها خاوية
الربوع من العلم ، خالية الحجرات من العرفان . الكل أكبر من الجزء ، كلام
ما أصدقه ، الطبيعة تمقت الفراغ ، قول ما أكذبه ! لا يستطيع شيء أن
يحدث تأثيراً الا حيث يكون ، نعم هذا حق ولكن أين يكون ؟ لا تكن
عبد الألفاظ ، ألا ترى أن ما هو بعيد عني ، أو ما هو ميت قد انقطعت الصلة
بينه وبينى ، هو في الحقيقة قائم « هنا » وقريب منى قرب هذا البلاط الذي
أنا واقف عليه ، مادمت أحبه وأحن اليه وأحزن عليه ؟ بيد أن ذينك
العنصرين عنصر الزمان وأخيه المكان ما برحا منذ أقدم القدم وهما اللونان
الرئيسيان المصبوغة بهما جدران كهف الأحلام ، بل ان شئت فقل هما السدى

واللحمة لذلك النسيج المنقوشة عليه أحلام الحياة ورؤاها . ولكن ألم يخبرنا أولو النظر الثاقب في كل عصر ومصر أن عنصرى الزمان والمكان المتصلين بخواطرنا أمتن الاتصال ، المترجين بنفوسنا أشد الامتزاج ان هما الا زوائد أجنبية عالقة بالفكر ، وعوارض سطحية لاصقة بالنفس ، وأن المتأمل البصير يستطيع أن يلمح موضع الاتصال بينهما وبين الأبدية واللا نهاية . ألم تر الى كل الشعوب والأمم ، كيف تصورت الله جل شأنه موجوداً في كل زمان وقائماً في كل مكان ؟ أنعم النظر ملياً يتضح لك أيضاً أن الزمان والمكان ان هما الا من وتساوير الحواس ، وأنهما في الحقيقة لا وجود لهما ولا أثر ، واننا نحن - ماذا أقول - ذرات من النور ، سابحة في سبحات أنوار العلي القدير !

« وكذلك ما هذا الكون بكواكبه ودراريه ، ودعائه الجامدة ورواسيه ، الا صورة وخيال لا حقيقة فيه الا هذا الصوت الناطق بلفظة « أنا » . وما الطبيعة بما يموت فيها وما يحيى ، وما يستجد فيها وما يبلى ، الا صورة معكوسة عن قوانا الباطنة ، وخيال يترأى لأحلامنا الهاجسة ، أو هي كما يقول روح الأرض في رواية فوست « رداء الله وثوبه الظاهر الحى »

« في حالة من تلكم الحالات ، وقد غادرتني هذه الخواطر العالية والافكار العميقة نضواً حسيراً ، متعباً مبهوراً ، خطرت ببالى مسألة الملابس لأول مرة . فأدهشتني تلك الحقيقة القائمة وهي وجود الملابس والخياطين . عجباً والله ! هذا الجواد الذى أمتطيه قد كفته الطبيعة مؤونة اللباس ، وأعدت له كسوة من الجلد والشعر ، فلو انى جردته من سرجه ولجامه ، ولبدنه وحزامه ، لبقى الحيوان النبيل مكثفياً بذاته ، قد هيأت له الطبيعة من نفسه

غزالا ونساجا وخياطاً، بل أعدت له كذلك حذاء وصائغاً ووشاء. فهو
يجمع ويمرح في بطون الوديان وعليه من إهابه الطبيعي كسوة خالدة،
لا تلوحها أشعة الشمس، ولا يؤثر فيها وابل المزن، بل لا ينقصها ما يزينها من
محاسن الوشي، فهي تروق العين بالغرر والأوصاح والشيات والدارات والحل
والهداب والألوان المشرقة والأصباغ المونقة. فيالله كل ذلك وأنا قد تلففت
في جزر الأغنام وأحليمة النباتات وامعاء الديدان وجلود الثيران وفراء ذوات
الفرو من الحيوان، وعلى هذه الهيئة أخرج إلى الملا فإنا أنا مشجب متحرك
قد كوم عليه ركام من الأسمال انتشلت من مقبرة الطبيعة حيث البلى قائم لها
بالمرصاد وروكت على جسدي كي تبلى علي بسرعة أقل وفي زمن أطول.
وكذلك يمر اليوم أثر اليوم وأنا لا أجد مندوحة عن تغطية بدني بالخرق
والإهدام، كذلك يمر اليوم أثر اليوم، ولا بد لهذا الغطاء الحقير أن يفقد من
ثخاته طبقة تكتسح إلى المزبلة، حتى يلحق بأوله آخره، وينضم إلى بعضه
سائر، فأعمد أنا ذلك المخلوق المبلى إلى اتخاذ مادة جديدة ألبسها وأفنيها -
باللقبح وبالشناعة أو لم يرزقني الله إهاباً شاملاً، أبيض الصبغة أو أسمرها،
ناصر البشرة أو أكدرها؟ عجباً لي ولشاني! هل كنت اذن كتلة مرقعة من
مزق الخياط ورقع الاسكاف، أم أنا شخص دقيق الاجزاء، متجانس الاعضاء،
محكم النظام أنيق الهندام ذو حركة ذاتية بل روح حية؟

«لشد ما أعجب والله من أمر هذه المخلوقات الآدمية تطبق عن أبن
الحقائق عيونها، ثم تستطيع لا بشيء سوى جمود البلادة وذهول النسيان أن
تعيش آمنة مطمئنة في وسط الروائع والروائق. على أن الانسان كان ولا يزال

ذلك الحيوان الغبي الأبله الذي هو على أن يشهر ويهضم أقدر منه على أن
يعتبر ويفكر . فالوهم الذي يتظاهر بكرامته ويتشدد باحتقاره هو أمره المطاع ،
والعادة هي التي تقتاده من أنفه حيثما كان ، فلو أنه شهد مطلع الشمس أو بدء
الخليقة مرتين لعادت تلك المناظر في عينه غير خليقة باثارة العجب ، بل غير
جديرة باسترعاء النظر . ولعلك لا تجد واحداً من أبناء آدم من أي قطر أو
في أي عصر سواء أ كان أميراً يرفل في حلل الارجوان ، أم صعلوكاً بتضائل
في خرق الكتان ، قد خطر بباله ولو مرة في العمر أن نفسه ولباسه ليسا
شيئاً واحداً وجزءاً لا يقبل التجزئة ، وأنه لا يزال بفطرته عريان مجرداً حتى
يتحصل على الملابس اما شراء واما سرقة ، وحتى يوفق بعد أعمال الروية الى
خياطتها وزررها .

«أما أنا فلا أكاد أفكر في أمر هذه الخرق والاهدام التي تغفل
تفوذها الى سويداء قلوبنا وراح يفسد من أخلاقنا حتى يتولاني الرعب
ويأخذني الوهل . واعتقادي انه ما أجل الساعة التي ينزع المرء فيها عن نفسه
لأول مرة هذه الفضلات الغريبة فيرى انه خلق عرياناً وأنه وان كان ،
كما قال سويفت ، حيواناً مفروج القامتين معوج الساقين ، لا يزال سرّاً
ملغزاً من أسرار الكون ونفحة مباركة من روح الله »

الفصل الثامن

في النجود

لا يهولن القاريء ما أبداه الاستاذ في خاتمة الفصل الأخير من غريب

الآراء التي ماكدنا نطلع عليها لأول مرة حتى قلنا في نفسنا : عجيباً لا أمر
هذا الفيلسوف أترأه يريد أن يظهر في هذا القرن قرن المدنية والحضارة
بمظهر عدو الملابس ونصير التجرد !

مهلاً أيها الاستاذ الأحق تذكر ما للملابس على الانسان من عميم
الافضال وجزيل الأيادي ! انظر الى نفسك وأنت طفل رضيع حديث
العهد بالقدوم الى هذا الكوكب السيار ، تتقلب في حضن مرضعتك ظاهر
العجز عديم الحيلة ، تمتص أناملك ، وتقابل الدنيا بنظرات شاخصة وأحاط
ذاهلة ، ماذا كان يكون شأنك لو لاتلك اللقائف والأقطة ، والملاحف
والأربطة ؟ أم هل نسيت اليوم الذي استبدلت فيه بثياب البيت ثياب
المدرسة ، فطار النبا في أنحاء القرية ، وأقبل الجيران واحداً بعد واحد يقبلون
وجنتيك المتوردتين ، ويمنحونك العيدية من دراهم فضية أو نحاسية
في أول عيد لك في هذا الوجود ! أم هل غاب عن ذكرك عهد الشباب
والغرور اذ كنت تعنى كل العناية بتزيين شخصك وتأنيق هندامك ؟ بل
تذكر حالك اليوم وقد تقضى ذلك العهد أو تبدل شأنك فاصبحت لا تتخذ
الملابس للزينة بل للوقاية ، أنراك تلبسها كارها بحكم الضرورة ، وتعتبر
اتخاذها عاقبة مشؤومة من عواقب سقوط أبويك الأولين من الجنة ، أم
أنت تغتبط بها منشرح الصدر مبتهج النفس شاعراً بأنها بيت دافئ متحرك ،
بل جسم ثان حول جسمك ، تقيم فيه نفسك العجيبة آمنة السرب لا تبالي
بتقلب الاجواء ، ولا تعباً بتصرف الأنواء ؟ بفضل الملابس قد استطعت
أن تمتطي ذلك « الجواد الذي امتطيته » فتخرج به ولو في صبرة الشتاء ينهب
بك الأرض نهباً ، ويختال بك فوق ظهرها نزقاً ومرحاً ، كأنك أميرها

وسيدها ، عبثاً ما تلطم صدغيك عواصف الجليد ، فانها لن تلتقي إلا بطبقات
الصوف الصفيق ، وعبثاً ما ترمجح حولك الرياح وتقصف ، وتتجاوب اصدااء
الغابات وتعزف ، وتتكور الزوابع وتعصف ، ثم تنقلب أعصاراً يلفح
فينسف ، فانك لامحالة مارق في وسطها مروق السهم ، تقتدح الشرر من
قارعة الطريق ، وترن في أذنيك موسيقى العناصر المتصارعة ، وتضيء
سبيلك البروق الساطعة . فناشدتك الله ماذا كنت تفعل بغير الملابس ،
وماذا كان يفعل بغير السرج واللاجام جوادك السابح ؟ الطبيعة كريمة ولكنها
ليست أكرم الأكرمين ، فهنا ينتصر عليها الفن ويتفوق .

وكأني بالقارىء يقول : أفهل نسي صاحبك الاستاذ ماذا كره أنفاً عن
ذلك المتوحش المتسكع في الغابات وعن حاله التعمسة الأسيفة ؟ أترأه يريد أن
ينقض كل ما قال ، ويرجع بنا الى عهود التوحش والهمجية ؟

رويدك أيها القارىء ان الاستاذ عليم بكل ما يقول ، وكلانا قد تعجل
في لومه . لكن لم يكن للملابس اليوم وقد شرعت تستبد بنا وتفسد من
أخلاقنا فضيلة تشفع لها ، أفليس في الامكان استخدامها فيما هو أصلح
وأففع ؟ أفلا بد من نبذها نبذاً ؟ ان الاستاذ لا تخفى عليه مزايا الملابس
ومنافعها . بل لعله يرى بنافذ بصيرته من خفي فضائلها وما أثرها ما لا يظهر
قط لغيره وهاك مثالاً من ذلك :

« ترى شخصين أحدهما في ثوب أحمر فاخر ضاف ، والآخر في ثوب
أزرق سيخيف جاف . فيقول الأحمر للأزرق « حكمت عليك بالشنق
والتشريح » فترتعد فرائص الأزرق ، ثم (يا للعجب العاجب) يدلف الى
المشنقة كئيباً حزيناً ، فيشنق هنالك ويتدلى ساعة من الزمن ، ثم يشرحه

الأطباء ويهيئون من عظامه هيكلًا يستعمل في المقاصد الطبية . كيف كان ذلك ؟ أم ماذا تصنع بقولهم « لا يستطيع شيء أن يعمل إلا حيث يكون » ؟ ان هذا الأحمر لم يكن قابضاً على الأزرق ، بل لم يكن ملاصقه بحال من الأحوال ، ثم أولئك الشرطة والمأمورون وسائر الذين يصدعون بأمر الأحمر ليسوا متصلين به اتصالاً يمكنه من تحريكهم من هنا الى ههنا والتصرف فيهم بحسب هواه ، بل كل منهم مستقل في موقفه ، منحصر في اهابه . ولكن مع كل هذا لا تكاد تخرج الحكامة حتى يحققها الفعل ، لا تكاد الحكامة الملفوظة تفصل من فم قائمها حتى تنطلق الايدي بالعمل ، فيفعل الحبل فعله ، وتؤدي أدوات التشريح مهمتها .

« أيها القارئ المفكر اني أرى السبب في ذلك يرجع الى أمرين : أولهما ان الانسان كون روحاني تربطه بجميع الناس روابط خفية ، وثانيهما انه يرتدى الملابس وهي العلامات الظاهرة الدالة على تلك الحقيقة الباطنة . ألا ترى أن صاحب الثوب الأحمر قد اتخذ شعاراً مخصوصاً وارتنى رداءً مخصوصاً بحيث يفهم جميع الناس أنه قاض ؟ بلى يا صاحبي هذا المجتمع الانساني ، الذي كلما زده تأملاً زادني حيرة ، انما هو مؤسس على الملابس .

« كثيراً ما أطلع وقد تولاني الملل والاكتئاب أخبار الحفلات الرسمية والمقابلات الملكية والتشريفات السلطانية ، وكيف تتقدم الوفود بين صفوف الحجاب والنبلاء ، والقواد والأمرأ ، حتى تنتهي الى السدة العلية بين مجالي التعظيم والاجلال ، ومظاهر الأبهة والاحتفال ، فيينا أجهد خاطري في تخيل ذلك الموقف ، وأكده ذهني في تصور ذيك المنظر لا يروعي إلا ملابس الملابس عن أفراد الجمع برمته . فاروح أتخيل الحجاب والأمرأ ، والأماقفة

والنبلاء، والأعيان والقواد، بل الحضرة العلية بجلالة قدرها، وكل ابن أم منهم واقفاً هناك عارى الجسد لا تستره خرقة، فأظل لا أدري أضحك من ذلك المنظر أم أبكى.

« ترى ماذا يصنع صاحب الجلالة لو أن هذا الأمر وقع فعلاً : ماذا يفعل القوم لو أن الازرة كلها طاحت من مواضعها وتبخرت أنسجة الملابس بالفعل كما خيل لي في الوهم ؟ لله أبوهم ! كيف كان كل منهم يتسلل لو آذاً الى أقرب شخصاً ، وكيف كانت تنقلب حفلتهم المهيبة رواية مضحكة ، وكيف كانت نظام الحكومة برمته ، بل كيان المجتمع بجماعته ، يتداعى معهم ويتلاشى بين عوالت الدمار وصيحات الفناء ! »

هل يستطيع القارىء أن يتصور خطيباً عرياناً يخاطب برلماناً عارياً ؟ ان الخيلة لتمجز عن تمثيل هذه الصورة ، وتقف دونها حسيرة مبهورة ، بيد أن الأمر ليس من الاستحالة بحيث نطن . أو لم يكن كل فرد من أولئك الحارسين لحقوقنا ، الساهرين على حرياتنا ، عارى الجسد أو يكاد ليلة البارحة وماذا يمنع — لو جرى بذلك محتوم القدر — من أن يتمشي عارياً الى ندوة البرلمان ، كما يتمشي عارياً الى غرفة النوم ؟

الفصل التاسع

المادية والسرورانية

الآن حصص الحق وبرح الخفاء ، وظهر ان صاحبنا الاستاذ من أغلى غلاة المتطرفين ، لا يكاد يرى في روائع الحياة وزخارفها الا أسماً بالية وأناساً حفاة عراة ، فخرى بنا أن لا نتلوم بين هذه المباحث طويلاً ، وحسبنا

أن نعلم هذه الحقيقة البسيطة وهي أن تحت هذه الدنيا الكاسية دنيا عارية.. لهذا نضرب صفحاً عن كثير مما يذكره الاستاذ عن « مصارعات الملوك العراة مع الحوزية فوق الكلا حيث يسقط الفريقان مجدّلين » وذلك حيث يقول « شرحهم بالمشارط تجد في الفريقين مظهراً متماثلاً من الأوعية والأحشاء ، والأنسجة والامعاء ، ثم اخص تركيبهم الروحاني تجد في الفريقين مظهراً متماثلاً من الشراة الكبيرة ، والهمة الصغيرة . بل لعلك تجد الحوزي بما يعلم عن غرائز البهائم وتأطير العجلات ، وقانون التوازن والاختلال وما شا كل ذلك من فن جر العربات ، وبفضل ما مارس من العمل في مناحي الطبيعة والكد في مذهب الحياة ، أخصب الفريقين ذهنًا وأوسعهما حيلة . إذن فما السر فيما بينهما من هذا البون الشاسع ؟ السر يا صاحبي في الملابس » كذلك نغفل كثيراً مما ذكره الاستاذ عن اختلاط الطبقات واختفاء المميزات واستحكام الفوضي واضطراب الأمن الى ما شابه ذلك من الأمور التي هي جديرة أن تخطر بالبال متى تمثل الفكر صورة « المجتمع العريان » على أنها نكتفي من كل ذلك بالكلمة الوجيزة الآتية :

« هل نحن من ذوات الأكياس ، قد جهزتنا الطبيعة بأكياس طبيعية كالتي لليربوع ؟ أم كيف كنا نستطيع بغير الملابس تجهيز أنفسنا بذلك العضو الرئيسي : مقر الروح ومركز النفس ، بل الغدة الصنوبرية لجسم المجتمع : أعني كيس النقود ؟ »

يبد أن الانسان لا يستطيع مع كل ذلك أن يبعث الاستاذ ، بل غاية ما في الأمر أن يبقى لا يدري أيحبه أم يبعثه . ولا غرو فانه اذا كان الاستاذ عند التأمل في بديع كسوة الحياة وما حوت من شريف التصاوير ورائع

التهاويل لا يقتصر على إجمالة النظر في وجهها بل لا يزال يقلبها على ظهرها ويفتش مواضع الخياطة الجافية والخرق المتدلية وسائر ما حوى ذلك الجانب القبيح من المشوهات - فان فيه مع هذه النزعة السفلية نزعة علوية لا تقل عنها قوة وشدة . ولئن رأيت يخط من مكانة الانسان وينزله في بعض الاحيان عن سائر الحيوان ، فانك لتراه في احيان أخرى يرفعه الى أعلى عليين ، ويجعله في صف الكرام المطهرين : ومن هذا القبيل العبارة الآتية : « ما الانسان في عرف المنطق المادى ؟ حيوان ذو قائمتين يأكل اللحوم والأعشاب . وما هو في عرف المنطق الروحاني ؟ روح لدنية وصورة آلهية ، يحيط بنفسه . تحت هذه الأطنار الصوفية والقطنية ، ثوب من اللحم (أو من الحواس) منسوج على نول السماء ، وبفضل هذا الثوب اللحمي يظهر الانسان لأخيه الانسان ، ويمش معه في اجتماع وافتراق ، ويرى بعينه ويهيء لنفسه عالماً ذا مسافات مترامية من لازوردى الفضاء ، وآلاف مؤلفة من متطاول السنين . وكذلك يقضى المرء حياته في هذا الثوب المعجيب مغموراً ملففاً ، مدفوناً مكفناً ، بيد أنه ثوب طاهر شريف جدير أن يرتديه الملائكة بل الآلهة . ألا يقف الانسان بفضل في منتصف اللانهايات ، وملتقى الأبديات ؟ لقد منح الانسان ملائكة الشعور ، وأوتى القدرة على العلم والايمان ، بل ألا ترى أن طيف الحب قد يطل في قلبه بساحر بهائه ، وباهر لآلئه ، وان كان هذا لا يقع الا في مستترق اللحظات ؟ لله در القديس إذ يقول بشفتيه الذهبيتين « ليس في الأرض محراب مقدس غير ابن آدم » والا فأين تتجلى الحضرة اللدنية لبصائرنا فضلاً عن أبصارنا كما تتجلى في أخينا الانسان ؟ »

في أمثال هذه الشذرات - النادرة لسوء الحظ - تتجلى باطنية
الفيلسوف ساحطة باهرة ، وتنفجر نزعتة الصوفية كالينبوع الدافق والسيل
الجارف ، وعندئذ يخيّل إلينا أننا نلمس من خلال ما يحيط بظاهره من مستقذر
الأبخرة وكريه الأوضار بحراً صافياً من النور والمحبة . لكن - وأسفاه -
سرعان ما تلتئم فروج العجاجة المعتكرة ، فتحجبه مرة أخرى عن الأنظار .
إن هذه النزعة الباطنية لا تزال واضحة الأثر في جميع حركات الفيلسوف
وسكناته ، فهو لا يكاد يرى شيئاً من الأشياء حتى يتبين فيه غير معناه الظاهر
المكشوف معنى خفياً مستوراً ، ولئن كان يرى في صولجان الملك وبردة
الخلافة كما يرى في عكاز الصعلوك ومدرعة الشحاذ معنى من الضعة والبلى
والضلالة ، فانه ليرى في كل منهما أيضاً معنى من الرفعة والروعة والجلالة .
ولا غرو فان المادة مهما حقرت واتضمت لا تزال مظهراً من مظاهر الروح ،
ومهما شرفت وارتفعت فهل يمكن أن تكون أفضل من ذلك ؟ إن الشيء
المرئي ، بل الشيء الموهوم ، إن هو الا ثوب ورداء للروح الباطنة الخفية ،
القدسية السماوية التي لا يحيط بها فكر ، ولا يحدها شكل ، والتي قد اظلمت
من شدة اللاألاء ! والآن فلنسمع كلام الأستاذ :

« أساس الحكمة وأصلها أن تحقق النظر إلى الملابس إما بعينك المجردة
أو بعينك المساحة حتى تعود سراية شفافه . قال أحكم الحكماء في هذا العصر
(ينبغي على الفيلسوف أن يتعرف أوساط الأمور ويتخذ هنالك مكانه)
كلمة ما أصوبها وحكمة ما أصدقها ! الفيلسوف هو الذي إليه يتضع الرفيع
ويرتفع الوضيع ، هو الذي يكون لجميع الناس على السواء أخاً باراً وصديقاً وفياً
» أيليق بنا أن نقف مر تعدي الفرائص مضطرباً الجوانح بين يدي أنسجة

الملابس وأنسجة العناكب سواء أ كانت من نسج معامل الأنوال الصاخبة ،
أو من نسج عناكب الأوهام الصامتة ؟ أم هل تظن أن في العالم شيئاً
لا يستحق المحبة والاحلال ، مع أن كل ما في الوجود من صنع البارئ
المتعال ؟

« طوبى لمن يستطيع أن يستشف بثاقب نظره صنوف الملابس
(ملابس القطب وملابس اللحم وملابس الأوراق المالية والمناصب
الحكومية) حتى ينفذ بصيرته الى نفس الانسان ، وهناك يتبين في الأمير
الكبير والصعلوك الحقير آلة هاضمة واحدة غير ذات كفاية ولا مقدرة ،
كما يتبين في كليهما سرّاً الهياً ملفزاً ، وطلسماً عجيباً معجزاً »

ثم يأخذ الاستاذ في الكلام على عاطفة العجب ، ويفيض في وصف
عظيم فضلها وحميد أثرها ، قائلاً انها أحق ما يستشعره المقيم في مثل هذا
الكوكب المملوء بالعجائب والمدهشات ، وذلك حيث يقول « العجب أساس
العبادة . وأن دولة العجب في الانسان لباقية دائمة ، لا يزول حكمها ، ولا
يأفل نجمها ، وان كانت تأتي عليها فترات قصيرة من الانحطاط والتضعف ،
شأنها في عصرنا الراهن . ان الانسان الذي لا يستطيع استشعار عاطفة
العجب ، الانسان الذي ليس العجب (وبالنسبة للعبادة) من شأنه ودأبه ، ليس
في نظري - وان كان رئيس ما لا يحصى من المجامع والمحافل وصاحب
ما لا يحصر من المصنفات والمؤلفات - الامجد نظارة ليس وراءها عين
بصيرة . فلينظر من خلاله أصحاب البصائر ، هنالك يصبح ذا فائدة ومنفعة .
جل ان الفكر وحده غير مقترن بعاطفة الخشوع والعجب جدير أن يكون
عقياً قاحلاً ، بل ساماً قاتلاً . وكل علم تتمثله الرأس دون أن يتشربه القلب

علم لاخير فيه . أفتحسب أن من العلم الصحيح تلك المعلومات التي يستطيع أن يستوعبها دماغ كدماغ الطبيب في ألف ليلة مفصول عن مجتمه موضوع في إناء يحفظ فيه روق الحياة دون أن يكون له بالقلب أدنى اتصال ؟ كلا ليست هذه من العلم في شيء وإنما هي بعض الحرف المتهنة التي يجدر بالرأس الشريفة أن ترأ عنها بنفسها وتترفع ! »

الفصل العاشر

نظرة الى الامام

لقد تبين الآن للقراء ما تنبأنا به وأخذت فلسفة الملابس تتكشف عن مفاوز شاسعة الانحاء ، محجبة السماء ، لا يدرى سالكها اتفدى به الى جنات زاهرة ومروج ناضرة ، أم لا يزال منها في مهالك يلمع آلهام ومهامه يخذع سرايها .

وكذلك لا يزال الاستاذ يخرج بنا من فدفد الى فدفد ، ويصعد بنا من حلق الى حلق ، ولا تزال نظراته وطمحاته تزداد نفوذاً وثقوباً ، واتساعاً وشمولاً ، فمن ذلك رأيه في الطبيعة وانها ليست ركماً متراكماً ، بل نظاماً متلائماً .

« لله در صاحب المزامير اذ يتغنى ويقول (لو انى استعرت أجنحة الصياح وسكنت في أقصى أنحاء المعمور لوجدت الله هناك) ، بل خبرني أيها القارىء المستنير المذهب الذى لا يعرف الله الا بالوراثة والتقليد : أتستطيع أن تدلني على ناحية في هذا الكون ليس للقوة فيها أثر ؟ ان قطرة الماء التي تنفضها عن يدك المبلولة لا تستقر حيث تقع ، بل انك لتجدها في غدك قد ترحلت

عن مكانها وامتطت صهوة الشمال واقتربت من مدار السرطان . كيف تأتي لها أن تتبخر ، ولماذا لم تجمد في موضعها ؟ أتحسب أن في هذا العالم شيئاً عديم الحركة ، عديم القوة ، جامداً ميتاً ؟ »

« بينما كنت راكباً جوادى أسير في بعض السهول قلت لنفسى (تلك النار التي تتلأل كالنجم الثاقب وتلوح لعينك خلال الغسق على مدى البصر - حيث يكب الحداد الأغبر على سندانه ، وحيث ترجو أن تركب حذاء لجوادك - أهى شرارة منفصلة منعزلة لا صلة لها بسائر العالم ، أم هى قطعة من الكون متصلة به اتصالاً موثقاً ، وملتحمة به التماساً محكماً) أيها الجاهل الأحق تلك النار التي تراها الآن مشتعلة وهاجة قد اقتبست أول ما اقتبست من جهرة الشمس ، ثم هى لا تنفك تتغذى بالهواء الذي يجرى تياره حول الأرض من قبل طوفان نوح ومن وراء الشعرى العبور . هنالك في ذباك المكان قد اجتمعت قوة الحديد وقوة الفحم مع ما هو أعجب وأغرب أعني قوة الانسان ، فنشأ بين ذلك المجموع ارتباطات فئازعات فانتصارات . ذلك المكان هو غدة أو مركز عصبى في هيكل الكون ، أو سمه ان شئت منسكاً رفوعاً على صدر الوجود السكلى ، قربانه الحديدى ودخانه الحديدى وتأثيره الحديدى : جميع ذلك ينفذ ويسرى في كيان الوجود السكلى ، وما ذلك الحداد الا غبر الا كاهن يشرح سر القوة لا بالكلمة واللسان ، ولكن بالعصب والجنان ، بل هو يشرح فقررة صغيرة من انجيل الحرية - انجيل القوة الانسانية - الذى ان يكن له الآن بعض الأمر ، فسيكون له يوماً من الأيام كل الأمر .

« منفصل منقطع ! ليس في الوجود شيء ينطبق عليه هذا الوصف .

وما كان شيء من عناصر هذا الكون لينعزل عن سائرهِ وينتبد جانبا ، بل الأشياء كافة ، حتى الورقة المصفرة الجافة ، تتعاون وتتضافر ، وتتفاعل وتتآزر ، يحملها من الحياة تيار زاهر ، عديم القرار عديم الساحل ، ولا تزال في أحوال متقلبة وأطوار متعاقبة . فالورقة الذابلة ليست بضائعة ولا ميتة ، لان قوى عديدة تؤثر فيها وفما حولها ، وانما على أسلوب معكوس ونظام مقلوب ، والا كيف كان يتأتى أن تتعفن وتذوى ؟ ألا لا تحقرن الخرقه البالية التي يصنع الانسان منها الورق ، ولا الدمنة القذرة التي تصنع الارض منها القمح ، فانك ان أمعنت النظر لم تجد في العالم شيئا حقيراً ، بل ما من شيء الا وهو كنافذة تطلع من خلالها العين البصيرة الى أسرار الغيب وأعماق الأبدية»

نترك الآن هذا السهل بحداده وسندانه ، ومنسكه ومحرابه ، وننظر الى هذه السفن الهوائية المحلقة في عنان الفضاء متسائلين الى أية غاية تجرى بنا ؟ « كل شيء منظور انما هو رمز ، وما تراه بعينك وتامسه بيدك لم يوجد لذاته ومن أجل نفسه ، بل هو اذا دقت البحث غير موجود أصلا . ذلك بان المادة لا تكون الا بفضل الروح ولا توجد الا لتصوير فكرة . ومن هنا صارت الملابس على احتقارنا اياها واستخفافنا بها ذات شأن رفيع . فانها من حلل الملوك الى اطمار الصعاليك رموز ودلائل ، تشير لا الى الحاجة خاصة بل ايضا الى فوز مبین على تلك الحاجة . ثم ترى من جهة اخرى أن جميع الأشياء الرمزية ان هي في الحقيقة الا ملابس نسجتها الملكة المخيلة أو اليد العاملة . فاما المخيلة فعليها أن تنسج ثيابا منظورة - أو قل اذا شئت أجساما مرئية - ترتديها مبتكرات الفكر الخفية ، فتسجلى للذهان ، كما تسجلى الارواح

في هياكل الابدان . وأما اليد العاملة فتتقدم الى مساعدة الخيلة ، ثم بفضل المنسوجات وما شاكلها من المموسسات يظهر ان هذه المبتكرات الخفية للعيان ، فضلا عن الازدهان .

« لقد صدقوا حين يقولون : فلان عليه ثوب الهيبة والوقار ، وفلان يغشاه رداء الحسن والجمال ، وفلان عليه ثوب من مقت الله وغضبه ، الى ما شاكلها من الاقوال . بل تفكر في الامر مليا ثم حدثني : ما الانسان ذاته ، بل ما حياته الدنيا باجمعها ، ان لم يكن رمزا واسارة ، وان شئت فقل رداء منظورا تسربلته النفس الآدمية الألهية الهابطة من أعالي السماء الى وهاد الارض كأنها ذرة من النور ، أولحمة من الأثير ؟ ومن هنا جاز القول بأن الجسم رداء الروح .

« يسمون اللغة رداء الفكر . والحق أن المعنى روح واللفظ جسم ، أو ثوب من اللحم يرتديه الفكر . لقد قلت أن الملكة الخيلة هي التي تنسج هذا الرداء ، أوليس الامر كذلك في الواقع ؛ أجل انها تفعل ذلك وتتخذ مادتها من المجازات والاستعارات ، فانك اذا استثنت من اللغة بعض عناصرها الأولية (وهي التي تحكي الاصوات الطبيعية) لوجدت سائرها استعارات ومجازات ، بعضها لا يزال غضا زاهيا ، وبعضها قد أصبح جافا ذوايا واذا كانت تلك العناصر الأولية بمثابة الهيكل العظمي في جسم اللغة فلا استعارات والمجازات هي لحم وعصبه ، وجلده وعضله . ولن تستطيع معها أطلت البحث ان تجد اسلوبا خاليا من الاستعارات سليبا من المجازات . وانما تتفاوت الأساليب في أن بعضها هزيل نحيل قد جف عصبه حتى صار أشبه بقطعه ، وبعضها مصفر مكفر قتله الجوع وترآى على وجهه الموت ، وبعضها يشرق في بشاشة العافية والصحة ويختال في عنفوان

النماء والقوة . ثم هنالك من الاستعارات ما هو كاذب مزيف وحشو مبهرج
يتراكم على جسم الفكر (وحقه أن يكون عاريا) كما تتراكم على البدن
الأكسية الموشاة الكثاف، والزخارف المبهرجة الثقال «

عمر ك الله أيها القارئ هل عثرت في جميع مطالعاتك على عبارة هي
أحفلى بالتشبيهات وأحشد بالاستعارات من هذه النبذة التي يتكلم فيها الاستاذ
عن التشبيه والاستعارة ؟ ولكن ما هذه بظلامتنا الوحيدة ولا بشكايتنا
الكبرى فهناك ما هو أمر وأدهى : فلنرجع الى حديث الفيلسوف .

« أى حاجة نرى الى الاكثار من الشواهد ؟ لقد جاء في التنزيل (سوف
تبلى الارض والسماء ، كما يبلى الرداء) وكذلك هما بلا ريب : رداء من الزمن
تتجلى فيه الأبدية . فكل شيء يوجد في عالم الحس وكل شيء يظهر الروح
للروح انما هو في الحقيقة ثوب وملبس يرتدى لأجل معلوم ثم ينزع . وكذلك
تري أن مبحث الملابس ، اذا فهم على حقه ، مبحث خصيب يتضمن كل
ما فكر فيه الانسان وما حلم به ، وكل ما فعله وما كانه ، فما العالم الظاهر وجميع
ما يحويه الأرداء ، وما لباب العلوم وجوهرها الا في فلسفة الملابس «

الى هذه الآفاق المترامية الانحاء ، المغيمة الأرجاء ، وجد الناشر نفسه
متجها في حذر وعناء . وقد كان يهزأ عليه الامر أنه ما برح يرى في الوثائق
المتروكة ورودها من المهر هفراث كوكبا من كواكب الامل ، ولكن هذا
الكوكب قد أخذ يتوارى - لا في ضوء الصباح المسفر ، بل في غبش قائم
أغبر ، ليس يدري أهو فجر النهار الضاحك ، أم مقدمة الظلام الحالك . والواقع
أن تلك الوثائق التي طالما تشوقنا اليها قد وصلت اليها منذ اسبوع فسرعان

ما فضضنا غلافها ، وتصفحنا بنافذ الصبر محتوياتها ، ولكننا وآسفاه لم نلبث ان القيناها بين أيدينا وقد خاب الظن واخفق الرجاء .

ولقد بعث المهر هفريات مع هذه الوثائق بخطاب مطول جعل يذكرنا فيه بما نعلمه علم اليقين فيقول أنه كيفما كان الامر بالنسبة للعلوم النظرية المجردة التي لا منشأ لها الا من الدماغ ، فالواقع بالنسبة لفلسفات الحياة التي تدعى فلسفة الملابس هذه انها منها والتي تصدر عن الخلق كما تصدر عن الرأس - الواقع بالنسبة اليها انها لن تنكشف عن جميع معانيها ولن تؤدي الى أقصى مراميها الا اذا تكشف الخلق الذي هو مصدرها ، « الا اذا تبين للقارىء رأى المؤلف في هذه الحياة واتضح له بآية كيفية ، من سلبية وإيجابية ، توصل الى تكوين هذا رأى - أو بالاختصار الا اذا كتبت ترجمة المؤلف بطريقة فلسفية شعرية ، وقرئت كذلك بطريقة فلسفية شعرية » ثم يقول صاحبنا على سبيل الاستطراد « كلا بل لو أن الحقيقة العلمية المجردة ذاتها قد تجلت لناظريك لما اكتفيت بمطالعتها ، بل لانشأت تسأل نفسك من أين جاءت ولماذا وكيف ؟ بحيث لا يستريح لك بال حتى يصوغ لك الوهم - ان لم يضع لك الواقع - جوابا يرضيك ، وحتى تجد بين يديك صورة كاملة لمنشأ الانسان ومساعيه ، ومجهوداته ومراميه ، سواء أكانت هذه الصورة قد نقشت بألوان الحقيقة الصادقة ، أم بألوان الخيال الملفقة ، ولكن مالى أسهب فى بيان ما لترجمة فيلسوف الملابس من فوائد وفضائل ؟ أو لم يقل حكيمنا الكبير جوتا « ماعنى الانسان حقا الا بالانسان » وهلم لاحظ بنفسى أن كل مايجرى بيننا من الاحاديث ان هو الا ضرب من التراجم ؟ حقا أن التراجم لهى من دون سائر الاشياء اجز لها فائدة وأعظمها متاعا لاسيما تراجم الممتازين من الافراد »

ثم يستمر الهر هفراث في عبارة بليغة لعله قد سرقها من كلام الاستاذ
أو لعل الامر كله خدعة من تمويه نيو فلسدروخ وذلك حيث يقول « ولا
اخالك يا صاحبي الا قد توغلت الان في غابة فلسفة الملابس وجعلت تتلفت
حواليك متعجبا مندهشا ، فكم هنالك من نبذ نادرات ، وفقرات رائعات ،
جديرة بان تستثير في نفس كل قارئ تطلعا غريبا الى معرفة تلك الرأس
التي أنجبته ، الى اكتناه تلك الآلة العجيبة المنقطعة النظير التي في مقدورها
انتاج أمثال هذه الطرف البديعة والتحف الممتعة ، أكان لتيو فلسدروخ كما
لسائر الناس أب وام ، وهل مر كسائر الناس بدور الطفولة فكان يلف في
الاقطة ، ويجرع الطعام بالمعلقة ، هل ضم الى صدره بين خفقات الطرب
وعبراته صدر صديق ، وهل ينظر نظرة المتعظم المتأمل في دهايزمقابر الماضي
حيث لا يجيب النداء الا انين الريح ورجع الصدى ، بل ليت شعري كيف
حاله في مواقف الغرام ، وجملة القول من أي سراديب ومعارج ، ومن أي
انفاق وثنيات ، قد اطاع الى هذه القمة القدسية العجيبة حيث هو الآن مقيم ؟
« تلقاء هذه الاسئلة كلها لا يزال التاريخ صامتا لا يجير جوابا ، فكل
ما يعلم عن صاحبنا علم اليقين أنه رحلة آت من سفر بعيد قيد نال منه الأين ،
وبات يشكو الوجى ، وأنه قد سطا عليه كثير من اللصوص وفارقه في الطريق
الكثير من الرفاق ، ولكنه تمكن في كل مرحلة من دفع ضريبة الجواز (والأ
لما تركوه يجتازها) ولكن اين كل ما يتعلق بخط سيره من التفاصيل ، وماذا
عساه أخذ في رحلته من الارصاد الجوية والمناظر الطبيعية ؟ أكل ذلك لا سبيل
الي معرفته ؟ أكل ذلك قد فقد بحيث لا أمل في العثور عليه ؟ أهينا صحيفة
اخرى من ذلك السفر الضخم (سفر الذاكرة الانسانية) تركت لكي تطير

في مهب الرياح من غير أن تطبع وتنتشر وتجلد وتحفظ ؟
 « كلا يا صاحبي ابي الله أن يكون ذلك ، فها أنا أبعث اليك - بفضل
 مالك عند الفيلسوف من مكانة - ترجمة حياته مكتوبة بقامه ، أو على الأقل
 المادة اللازمة لانشاء هذه الترجمة ، وكذلك ستتكشف فلسفة الملابس وفيلسوفها
 لأعين الجمهور المتعجب في بلاد الانجليز ومن ثم تنتقل الى امريكا فالهند
 فاليابان ، حتى تنتشر على الجانب الاعظم من هذا الكوكب السيار ! »

وليتصور القارئ بعد ذلك شعورنا وقد وجدنا ، مكان هذه الترجمة
 التي ستميط اللثام عن فلسفة الملابس وفيلسوفها ، ستة أصاير ضخمة
 غني بلفها وحزمها وختمها ، وفي داخل كل منها كمية هائلة من الصحائف
 والقصاصات مكتوبة بخط الاستاذ ، وهو لا يكاد يقرأ ، وقد تعرض فيها
 لكل موضوع في الارض والسماء الا ترجمته الشخصية ، فانه لم يتناولها الا
 لما في عبارة هي منتهى الغموض وغاية الالغاز .

ففي حزم بحذافيرها من هذه الأوراق لا يكاد الاستاذ يشير الى نفسه
 أدنى إشارة . ثم تراه في مواضع أخرى يبناه يحدثك عما وراء الطبيعة أو عن
 آرائه في الآلات البخارية أو عن إمكان اتصال جبل النبوة يلقي اليك عرضاً
 نبأ حادثة من حوادث حياته الخصوصية لا تعدم حظها من الأهمية . وفي
 بعض الصحائف يقص علينا أحلاماً يعلم الله حقيقة هي أو مخترعة ، بينما
 وقائع يقظته وتصرفات انتباهه قد أغفلت اغفالا . وفي بعض القصصات
 السائبة نقرأ حكايات صغيرة ولكنها في أكثر الأحيان خلو من كل إشارة
 الى زمانها أو مكانها . أما تنقلاته ورحلاته فلا دليل عليها الا ما يصادفك في
 كل حين من اعلانات الشوارع التي زار الاستاذ مدنها في مختلف أسفاره ،

ولعل هذه الأضابير قد حوت من هذه الاعلانات المكتوبة بكل لسان مجموعة ليس لها في الدنيا نظير . هذا وقد تمرر الفينة بعد الفينة على بيانات مطولة عن شيء من تفاصيل حياته ، ولكن في غير ترتيب ولا تنسيق ، وفي تدقيق لا موجب له واسهاب لا فائدة منه . وهكذا تجد جذب المعلومات يتناوب مع الأسراف فيها ، وأحمال الأخبار يتداول مع الإفراط منها ، كأنما هذا الفيلسوف لم يسمع في حياته عن شيء اسمه النظام أو حسن الاختيار ، اذ كل ما في الوثائق فوضى فوق فوضى .

واذ كان في نيتنا أن نودع هذه الأضابير الستة المتحف البريطاني فأننا نوفر على نفسنا كل أطناب في وصفها . وحسبنا الآن القول بأنه لا أمل البتة في أن نستخرج منها ترجمة لحياة الاستاذ بالمعنى المفهوم من الترجمة ، بل كل ما نطمع فيه أن تنشأ بين الناشر والقارىء بمجهوداتهما المشتركة من كد الذهن وإجهاد الخيال صورة قريبة الشبه لهذا الفيلسوف الغريب .

وكذلك شرع الناشر يواصل ليله بنهاره في استجلاء غوامض هذه الوثائق المدهشة ومقابلتها بمحتويات الكتاب الذى لا يقل عنها إدهاشاً ، محاولاً بكل جهده أن يبني للقراء فوق هذا السديم المضطرب الموار ، المتلاطم الفوار ، جسراً متيناً . وأكبر ظني أنه منذ قام أول اثنين من بناء الجسور - الموت والخطيئة - يبناء ذلك العقد الهائل الممتد من باب الجحيم الى حافة الأرض لم يأخذ أحد قط على عاتقه مثل العمل الذى يحاوله الناشر . والحق أن العاملين من حيث الصعوبة يتشابهان ، وإن كانا - فيما نرجو - من حيث الغاية يتباينان . فأننا نحن أيضاً مضطرون الى التقاط مواد البناء ، من أعماق الهاوية ومن أجواز الفضاء ، آخذين من هنا كتلة ومن ههنا كتلة ،

محاولين بكل ما لدينا من مهارة أن نلصق القطعة بالقطعة ، بينما العناصر تغلي تحتنا وتفور ، وتصطفق وتمور . ذلك الى أننا لم نؤت قوة خارقة للطبيعة تؤدي بها هذا العمل ، بل كل عدتنا تنحصر فيما رزقه ناشر انجليزى ضعيف من قوة اجتهاد ومملكة تفكير ، يحاول بهما أن يخلق « دنيا » مطبوعة من « سديم » مطبوع ومخطوط . وانها لمحاولة - علم الله - توشك أن تفتك بملكاته ، بل تكاد تؤدي بحياته .

ولقد أخذ الناشر - تحت تأثير هذه الجهود المتواصلة العنيفة - ينظر صابراً متجمللاً الى بنيته القوية تهزل وتنحف ، والى حظه من النوم ينتقص ويتحيف ، والى جهازه المصبي يضطرب ويضعف . وأي بأس فى ذلك ؟ ما فائدة الصحة ، بل ما فائدة الحياة ، ان لم تستهلك فى تأدية عمل من الأعمال ؟ وأي عمل هو أفضل وأنبل من غرس الافكار الأجنبية ، فى التربة القاحلة الأهلية ، اذا استثنينا طبعاً غرس بنات أفكارك وتلك موهبة لم يؤتها الا الأقلون ؟ ان فلسفة الملابس هذه تبشر ، اذا استطعنا أن نصل الى صميم معناها ، بأن تفتتح فى تاريخ الانسانية عهداً جديدة - بأن تسفر عن تبشير عهد أجد وأعلى ، وأشرف وأسمى . فهلا تستحق هذه الغاية أن تتسابق اليها ونهافت عليها ؟ فالى الأمام معنا أيها القارئ الشجاع ، لتكن العاقبة ما كانت : فشلاً و اخفاقاً أم فوزاً ونجاحاً ! فان تكن الأخرى فان لك لنصيبك منها ، وان تكن الأولى فما الذنب كله علينا .

الكتاب الثاني

الفصل الاول

المنشأ

غير محقق أن كان كشف الستار عن غوامض مولد الانسان ومنسبه
يفيد كثيرا في تعرف حقيقته . بيد انه لما كان مبدأ كل شيء في الـكون
لا يزال يعد أخطر لحظة في حياته كان الناس عند النظر في ترجمة البطل من
الابطال لا يستريحون أو يزاح لهم النقاب عن جميع الظروف المحيطة والتفاصيل
المتعلقة بمقدمه الى هذا الكوكب السيار . سواء أ كان لهم في ذلك فائدة علمية
أم لم يكن . لذلك قد أفردنا هذا الفصل الاول للبحث في منشأ فياسوف
الملابس ، ولكن يظهر لسوء الحظ أن صاحبنا غامض الأصل ، ان لم يكن
مجهول النسب ، فهو لا يعرف له مولد ولا منسب ، وكل ما يعرف عنه انتقال
من عالم الغيب الى عالم الشهادة ، وذلك حيث يقول : -

« في قرية انتبهل كان يقيم اندريا فترال وزوجته في عزلة وسكون
واغتباط وان كانا قد أشرفا على الشيخوخة ولم يرزقهما الله بمولود . وكان اندريا
ضابطا ومعلما عسكريا في عهد فردريك الأكبر . بيد أنه قد استعاض المحراث
والمجرفة من الرمح والعصا ، واعتكف في تلك القرية يزرع حديقة صغيرة

يعيش على ريعها شأن « سنسيناتس ^(١) » في عزة وقناعة . وكان يقضى العشيات بالتدخين أو المطالعة ، ويقع على جيرانه أنباء الماضي من وقائعه الحربية وحوادث حياته العسكرية .

أما زوجته جرتشن ، وكان قد ملك فؤادها كما ملك عطيل فؤاد ديدمونا بمجد أفعاله لا بسحر أخطاه ، فكانت تحبه حباً جما وترى فيه المثل الأعلى للشجاعة والحكمة ، كأنه في نظرها « سيسرو » خطيب الرومان و « سيد » فارس الأسبان ، ولا غرو فإن الذي تراه ولا يستطيع نضرك أن يتعداه هو بالنسبة اليك بمنزلة أقصى غايات الكمال ، وأبعد مطامح الآمال . وبعد أو لم يكن أندريا في الواقع رجل نظام وشجاعة وجد واستقامة جديراً بالمحبة والاحترام ؟ وهكذا كانت جرتشن تتعاهده وترعاه ، وتحنو عليه وتتحنن به ، شأن الزوجة الصديقة الصالحة ، لا تفتر لحظة عن القيام بشئون بيته من طهي وتنظيف وخياطة ، فلم تكن عنايتها مقصورة على الاحتفاظ بسيفه القديم وخودته العتيقة ، بل كان البيت كله وجميع ما يكتنفه يروق العين بحسن روائه وبشاشته ، ويشرح الصدر بجمال ترتيبه ونظافته . وكان كوخاً فسيحاً الفرف مزدان الجدران ، تظله أشجار الغاب والفاكهة ، وتحتضنه الأغصان المتسلقات ذوات الخضرة الدائمة ، وكلها صاعدة ، في اختلاف ألوانها والتفاف أفنانها ، من حياض الكلال المقصوص والعشب المسوي ، قد تسكار زهرها حتى راح يطل في جوف الكوخ من خلال نوافذه . ثم ترى تحت رفارف السقف أدوات الفلاحة مكومة على أجمال نظام لوقايتها من المطر ،

(١) قائد من عظماء قواد الرومان وزعيم من كبار زعمائهم اعتزل الحياة العسكرية والسياسية في أخريات أيامه واعتكف في مزرعة صغيرة له

وعدة مقاعد نظيفة لو رآها ملك متوج لمتنى أن تكون له ولاشتى أن
يفطجع عليها ذات ليلة من ليالى الصيف ، مبرأ من أكلدار الهموم ،
منغمساً فى صفاء النعيم .

« فى ذات عشية ساجية الأصيل ناعمة النسيم ، وقد توارت الشمس
عن أهل القرية ، وإن كانت لا تزال تسبح مشرقة باهرة فى أبراجها العلوية ،
دخل ذلك العش الآدمى الظليل انسان غريب الهيئة ذو وقار وهيبة . فسلم
على ساكنيه ووقف حيالهما وقد عرتهما دهشة ، وكان ملتقماً بعباءة سابغة
فنشر طياتها وهو لا ينبس ببنت شفة ، وأخرج منها سلة تفشاها رقعة
خضراء من الديباج الفارسى ، ثم قل (يا أهل الخير والتقوى انى أصنع بين
أيديكم وديعة لا تقوم بثمر فابذلا فى صيانتها والا تتفاح بها كل عناية ورعاية
واعلموا أنه سيكون يوم تطالبان فيه بردها فتشابان على ما أسلفتما أحسن الثواب ،
أو تعاقبان أشد العقاب) ، قال ذلك بصوت جلى جهورى لا ينسأه السامع
آخر الدهر ، ثم انسل فى خفة وخفوت . وما كاد أندريا وزوجته يفقان
من الحيرة ، ويمسحان عن عيونهما نظرة الدهشة ، ويجدان من الوقت متسعاً
للسؤال أو الجواب حتى كان الغريب قد اختفى عن النظر ، فى أسرع من لمح
البصر ، فنظرا فى خارج الدار عليهما يقفان منه على خبر ، فوجدوا السكون
سائداً وباب الحديقة مغلقاً . ولم يكن فى كل ما يحيط بالبقعة شىء ينم عنه
أو أثر يدل عليه وقضى الأمر فى ثوان معدودات وفى غيبس الشفق
وسكون المساء فى غير عنف ولجة ، بل بكل رفق وتؤدة ، حتى خيل
لصاحب الدار وزوجته أن الأمر كله خدعة من خدع الوهم ، أو زورة من
طيف ، لولا أن السلة ذات الرقعة الخضراء كانت لا تزال قائمة على المائدة

تنظر بالعين وتلمس باليد ، وما عهد قط أن وهما أو طيفاً حمل مثل ذلك الحمل .
 فبادر الزوجان الى فحص السلة ومعهما شمعة موقدة ، فرفعا الغطاء الأخضر
 لينظرا ما حوت من كنز نفيس ، فلم ترعهما درة يتيمة ولا ماسة نفحة ، بل
 طفل غض الأهاب أحمر اللون نائم بين لقائف ناصعة من الزغب الناعم
 وانخر الوثير ، والى جانبه صرقة من الدنانير لم يشهر للملاحدة ما فيها . ووجدوا
 أيضاً شهادة التعميد ولكنها مطموسة كلها غير الاسم ، ولم يكن مع
 المولود شيء غير ذلك من الوثائق أو الدلائل .

« وما كان التعجب والتخمين ليجديان ، في ذلك الأوان أو بعد ذلك
 الأوان . فقد انقضى الغد وتاليه ولم يسمع عن الغريب أدنى خبر ، لا في
 القرية ولا فيما جاورها . وفي أثناء ذلك كانت المسئلة الكبرى التي تواجه
 أندريا وزوجته (ماذا يصنعان بهذا الطفل النائم المحمر اللون ؟) فقر رأيهما
 بين الدهشة والتعجب على التكفل به وإرضاعه حتى يبيض لونه ، بل حتى
 يكبر ويشتد أزره اذا استطاعا الى ذلك سبيلاً . وقد أمدهما الله فيما حاولا
 بعمونه وتأييده . وهكذا أتيح لذلك المجهول الأصل أن يأخذ من هذا العالم
 مكانه ، وهاهو الآن بعد أن امتد جسمه طويلاً وعرضاً ، واتسع علمه بالأشياء
 خيراً وشرّاً ، قد أصبح معروفاً بين الناس باسم المهر دياجونيديس تيوفلسدروخ
 أستاذ « علم الأشياء كافة » في الجامعة الجديدة بمدينة وسنتشتو »

وهنا يصرح الفيلسوف بأن أول علمه بهذا السر كان عن لسان الصالحة
 جرتشن فترال في الثانية عشرة من عمره ، ذلك حيث يقول : -

« وقد غادر هذا النبأ في قلبي الصغير أثراً لا يمحوه كرايايام ومرالليالى ،
 وجعلت أسألك نفسي : تري من كان ذلك السيد المهيّب ، الذي أنسل الى

الكوخ والشمس جانحة للغروب ، ثم انجلس منه املاس الخيال في الفضاء؟
وقد تملكني منذ ذلك الحين شوق لا يوصف وحنين ممزوج بالحزن والوله
الى معرفة الحقيقة. وما زلت كلما تأو بتنى الهموم والاشجان ، وأوحشتني العزلة
والقطيعة ، اتجه بمخيلتي لتلقاء ذلك الوالد المجهول الذي ربما كان قريباً مني ،
وربما كان بعيداً عني ، وهو في الحالتين غير منظور ، فأتلهف على لقائه كما
يضمنني الى صدره الحنون ويحميني هنالك من لواعج الآلام ... أيها الوالد
المحبوب أفلا تزال تروح وتغدو بين زحام الاحياء لا يفصلك عني الا ستار
شفاف رقيق من الغشاء المكنى ، أم تراك قد أسدلت بيني وبينك تلك
الاستار الصفيقة - أستار الليل السرمدي ، أو لعلها أستار النهار الابدي ،
التي عبثاً ما أحاول ان استشفها بنظري أو أنفذ فيها ذراعى ؟ ويلاه ! ويلاه !
لست أدري وعبثاً ما أحاول أن أدري ! لطالما حدثني فؤادى المخدوع انك
هذا الغريب النبيل أو ذاك ، حتى اذا دنوت منه أمعن فيه النظر واتفرس
منه عاطفة الحنو نأى عني بجانبه ، فاعلم انك لست به »

وهنا تأخذ الفيلسوف بعض نوباته الفجائية فيصيح قائلاً « ومع كل
هذا خبرنى أيها الانسان المعروف الأيون : بماذا انفردت حالتى عن حالات
سائر الناس ؟ أتحسب انك تعرف أباك أكثر مما أعرف أبائى ؟ ان آدمك
وحواءك اللذين جاء بك الى هذه الحياة حيث لبثا حيناً من الدهر يرضعانك
ويربيانك واللذين تدعوهما أبويك انهما بالنسبة لك الا كاندريابو جرتشن
بالنسبة لى : مجرد مرضعين ومربين ، اما أصلك الحقيقى وأولك فى السماء
لا يرى بعين الجسم بل بعين الروح »

ثم يستأنف الاستاذ قصته : « ولا أزال محتفظاً بالقناع الاخضر وأشد

من ذلك احتفاظي بالاسم: دياجونيس تبو فلسدروخ . فاما القناع فلا سبيل الى استنتاج شيء منه ، وما هو الا قطعة بالية من الحرير كالألوف من أمثالها . وأما الاسم فكثيرا ما أجلت فيه الروية ، ولكنني لم أقف منه على دلالة اهتدى بها الى الحقيقة المنشودة .

« وكأني بك تعجب من قولي هذا أيها القارئ ولكن مهلا ! اني مازلت أنظر الى الاسماء نظرة اكبار واجلال ، فان فيها من عميق المعاني مالا يخطر لك ببال ، وما الاسم الا أول رداء ترتديه النفس ساعة قدومها الى هذه الحياة ، ثم لا تزال متشبثة به حتى يكون لها أبقى من أهلبها وأدوم ، فانا لنعرف من الأسماء ما عمر نيفا وثلاثين قرنا . الأسماء وما أدراك ما الأسماء ! أما لو استطعت أن أريك خفي تأثيرها وبعيد نفوذها لأريتك العجب العجيب ! ليس مجرد الكلام المعتاد بل العلم كله ، والشعر ذاته ، كلاهما لا يعدو كونه تسمية صائبة . لقد كان أول ما فعل آدم في هذه الحياة أن تعلم الأسماء : أسماء الظواهر الطبيعية ، فعمر ك الله ماذا نحن فاعلون حتى اليوم الا مواصلة ما بدأه ، سواء أ كانت تلك الظواهر زراعية أو عضوية أو آلية أو فلكية (وذلك هو العلم) أم كانت وجدانات وشهوات أو فضائل ومكرمات أو كوارث وآفات (وذلك هو الشعر) ؟

« في اثناء ذلك كان الرضيع ، وهو في باكورة عهده بالحياة وفي جهله بكل ما أحاط به منها ، قد أخذ يفتح عينيه لكريم النور وشرع يمد جوارحه ، ويتلمس بأطرافه ، ويتسمع ويتذوق ، ويحس ويشعر ، وجملة القول أنه جعل يستعين بحواسه الخمس أو إذا شئت فزد عليها حاسة الجوع وقل بحواسه الست ، مع مالا يحصى من الحواس الروحانية الباطنة ، تلك التي قد اخذت تنبه في

نفسه ، محاولاً بكل ذلك أن يعلم شيئاً عن هذا العالم الغريب الذي نزل به ،
كأننا ما كان واجبه فيه . ولشد ما كانت سرعة تقدمه ، فقد استطاع في
بضعة عشر شهراً أن يؤدي تلك المعجزة العجيبة : معجزة الكلام . عجبوا الله
أليست تربية الروح الغضة أشبه شيء بتربية بيضة (سماوية) غضة ،
كل ما فيها لا يزال عديم الصورة عديم القوة ، ولكنها لا تلبث حتى تنبت
بالتدريج في زلالها المائي عناصر عضوية وألياف حيوية ، ثم ترى غامض
الاحساس يتمخض عن الفكر فالخيال فالقوة ، ومن ثم تنشأ المبادئ الفلسفية
والأسرار الملوكية بل القصائد الشعرية والمذاهب الدينية !

« الى هذه الغايات القصوي جعل دياجونيوز الصغير يتقدم بخطوات لينة
حديثة . وقد أراد آل فترال ، ان يتقيا القيل والقال ، فاشاعا في القرية ان الرضيع
يمت اليهما ببعض صلات القرابة ماتت عنه أمه فارسله اليهما أهله ، إذ كانا هما
أحق الناس بكفالته . وجعل الرضيع يتغذى ويتزعرع ، غير مكترث
لشيء من ذلك . ولقد سمعت بعض أهل القرية يقول أن الطفل كان هادئاً
وديعاً قليل الكلام قليل الحركة ، وأنه لم ير البتة يصيح ويبكي . لا غرو فانه قد
بدأ يشعر بأن الوقت ثمين ، وبأن لديه من المهام مالا يسمح له بالعويل أو الأنين ! »

الفصل الثاني

عمر الطفولة

« ألا سقاك الغيث يا عهد الطفولة ورعاك الله يا زمن الصبا ! وأنت أيتها
الطبيعة الرحيمة هل كنت الأمّ رؤووماً لجميع هذا الخلق ، تزورين كوخ الفقير
يساطع ضيائك ، وبارع لألائك ، وتلفين رضيعك الضعيف بلقافة لينة من وثير
الحب وسابغ الأمل ، فلا يزال في انشائها ينمو وينام ، ترقص حوله مفرحات

الاحلام ؟ ولئن حجبنا إذ ذاك دار الأبوين بين جدرانها ، فإن لنا فيها لمعقلا
وماوى ، ولنا من الوالد بنى وامام ، ومؤدب وسلطان ، نأق اليه من الطاعة
ما يهدى اليها نعمة الحرية ، ونؤدى اليه من الخشوع ما يقينا ذل العبودية .
يومئذ تكون الروح الصغيرة حديثة العهد بالتيقظ من الابدية ، فهي
لا تعرف معنى الوقت ، ولا تدري أنه ذلك النهر الجروح ، ذو التيار الطموح ،
بل تراه بحراً فسيح الأرجاء ، يلعب الموج على متنه ، ويتكسر الشعاع على
ثبجه . فتتمر السنين على الطفل كأنها احقاب ، ذلك بان تصرف الدهر لا يزال
سراً مكتوماً ، وعوامل البلى ومعاول الفناء - تلك التى لا تنفك تقدح على
عجل أو مهل فى هيكल الكون من صخره وصوانه الى حيوانه وانسانه
الى هوامه وديدانه - لا يزال أمرها مخفياً ، وأثرها مطويا . هنالك نذوق من
حلاوة الراحة فى ذلك السكون القدير ، والعيش الغرير ، ما يحرم علينا بعدها
مذاقه متى انكشف لنا العالم عن جليلة أمره ، فعلمنا أنه تلك الرحي العنيفة
الحركة المستمرة الدوران . ألافم هنيئاً أيها الطفل الجميل ، فمما قليل يؤذن
مؤذن الرحيل ، ويسار بك فى رحلة شاقة وسفر طويل ! أجل ان هى
إلا لحظة حتى تحرم لذة هاديء النوم ، وحتى تنقلب احلامك المفرحة
خيالات مزعجة لما تعانيه فى يقظتك من مر الكفاح وعنيف الجهاد . نعم
سوف تقول كما قال الاول فى صبر وجلد : (أي حاجة بي اليوم الى الراحة ،
والأبدية كلها أمامى وفيها من الراحة ما يكفيني ؟) أسها السوان المريح ! هذا
بيروس قد فتح الممالك ودوخ الاقطار ، وهذا الاسكندر قد ملك الارض
ودانت له الامصار ، ومع ذلك فقد اعجزتهما منالا ، ولم يستطيعا لك مراما ،
ثم نراك تأتى من تلقاء نفسك وبحض هواك فتقع على اجفان الطفل نوماً

نديا ، وتنزل في فؤاده رَوْحًا هنيا ، ذلك بأن النوم واليقظة عنده سيان ،
وجنة الحياة الضاحكة تمتد حوله الى غير نهاية في حفيف أوراقها الناعمة ،
وتمايل اغصانها المائسات ، تعبق بذكي الأرج أنفاسها الطلة ، وتتفطر
عن براعم الأمل أفنانها الخضلة ، تلك البراعم التي إن تفتحت في عهد
الشبية عن نوارها الغض فلن تؤتي في عهد الكهولة قطوفا جنية يانعة ، بل
ثمرة صلبة شائكة ذات قشرة صفيقة الغلاف مره المذاق لا يهتدي إلا الأقلون
الى لبابها وشحمتها ! »

من خلال هذه الانوار البهية والاضواء المتلاثلة ينظر الاستاذ الى
عهد طفولته شأن الشعراء . ثم تراه يفيض في تفاصيل ذلك العهد بتدقيق
واسهاب يكاد يبلغ حد الاملال ، يتخلل كل هذا قطع خطائية ونبذ شعرية ،
ثم وصف مغاني صباه ومعاهد لهوه . فمن ذلك وصفه للدوحة التي كان يختلف
اليها أهل القرية كل عشية فيجلس الشيوخ في ظلها يتحدثون ، ويضطجع
الى جانبها العمال المتعبون ، ويظل الاطفال النشيطون يمرحون حولها ويلعبون ،
ويروح الفتيان والفتيات على ايقاع الموسيقى يرقصون ويتغازلون ، وذلك
حيث يقول « فيالها من أصائل ناعمة ، إذ يعم السكون وتخفت الاصوات ،
والشمس قد ولتنا ظهرها وجنحت للمغيب ، كأنها ملك أصيد مهيب ، على
اعطافه أرجوان الملك مزخرفا بفاخر العقيان ، وحوله موكب حرسه
مؤلفا من بديع الالوان . وقد أمكنت الفرصة عمال هذه الارض من
اختلاس لحظة يستريحون فيها قليلا ، بعد كد النهار وتعبه ، ويلهون يسيرا ،
غيب عناء اليوم وانصبه ، على ثقة بان تلك النجوم الوديعه الرفيعة لن تشي
بهم ولن تنم عليهم »

ثم يقول الاستاذ على ذكر ملاعب صباه « وأنت إذا تأملت في ألعاب الاطفال ، حتى ما كان منها كله اتلاف ، لرأيتهما جميعا ثم عن غريزة انشائية ، مما يدل على أن الطفل يشعر بأن وظيفته في الحياة هي العمل والانشاء . وأحب الهدايا اليه آلة أو أداة من أى نوع كانت ، للهدم أو البناء ، للتعمير أو التخريب ، فانها على كلا الحالين صالحة للعمل والتغيير . ثم تراه باشتراكه مع اترابه في اللهو يمرن نفسه على التعاون والتضامن ، للسلم والحرب ، للطاعة والامر .

« ولقد كان من أوقع المناظر في نفسي أن أشاهد الراعى في الصباح الباكر ينفخ في بوقه ، فتتوارد اليه من كل حدب وصوب تلك الاغنام الجماعة السعيدة ، تتعادي وتتراكض يحثها أمل الفطور ، بالمرعى النضير . ثم تراها وقد آبت في الرواح كأنها تسير على نظام عسكري ، ينفصل كل منها عن رفاقه ، متجها يميناً أو شمالاً الى زقاقه ، لا يخطئ ، صرماً ، ولا يشتهيه في مأواه ، حتى اذا وصل الراعى الى نهاية القرية ولم يبق معه من القطيع بهيمة نفخ في البوق آخر نفخة وعاد الى بيته . لقد اعتدنا معشر البشر أن نحب الغنم في صورة الشواء والقتير ، والمحمر والقديد ، ولكن أليس فيما تظهره هذه العجاوات المرححة من الفطنة والذكاء والميل الى الدعاية والمزاح وحسن الطاعة والثقة بالإنسان ما هو جدير باستشارة العطف والمحبة ؟ »

يذهب فريق من الفلاسفة الى أن الناس جميعاً يولدون متكافئاً المواهب لا فرق البتة بين ذكيهم وغبيهم ، ورشيدهم وغويهم ، وإنما هي ظروف عجيبة ومؤثرات مدهشة تصادف ذلك فتفتح مافيه من قوي ومواهب وتخطيء هذا فيظل مغلقاً مطورياً ، ويعيش دهره مغفلاً غيباً . ذلك - على زعمهم - هو

السرف فيما تراه من البيون الشاسع بين العبقري النابغ والأبله المائق ، احدهما قد لقيت نفسه من كريم الظروف ما نماها ورقاها حتى زكت وترعرعت ، والاخر قد انسحقت نفسه بتأثير قواه الحيوانية وضغط آله الهضمية ، فهي إما قد تبخرت وانملت ، وإما قد غاضت إلى قرار معدته فاستقرت هنالك في غمرة لا تفيق منها . هذا مذهب القوم . أما صاحبنا الاستاذ فيري غير ذلك حيث يقول « لا سهل على من الاخذ بهذا الرأي أن اوافق القائلين بأن بذرة الكرنبة اذا لقيت تربة كريمة ومناخاً صالحاً قد تصير سنديانة رائعة ، وان بذرة السنديانة اذا منيت بظروف سيئة من مناخ فاسد وتربة سبخة قد لاتنبت الا كرنبة مشوهة .

« بيداني لست انكر ما للتربية والتهذيب في باكورة الحياة من بليغ الاثر ، فإنه على صلاح التربية او فسادها يتوقف مصير بذرة الكرنبة كرنبة ممتلئة وريقة ناضرة أو كرنبة جوفاء صفراء ذابلة ، ومصير بذرة السنديانة سنديانة باسقة ظليلة لفاء ، أو سنديانة قصيرة نحيفة عجفاء . لهذا كان خليفاً بكل انسان ولا سيما معشر الفلاسفة والحكماء ان يدونوا بالدقة كل ما احاط بتربيتهم من الظروف الخاصة ، ملائمة أو معاكسة ، منشطة أو مشبطة . وقياماً بهذا الواجب اذكر الامور الآتية من جملة ما كان له في نفسي وقع واثار : « كما أن الملاهى الصببانية تبعث في الطفل الذكاء والنشاط كذلك كانت القصص والاحاديث التي طالما سمعتها من الاب اندريا تستثير في نفسي ملكة الخيال وحب التاريخ . ولشد ما كان شغفي بتلك الروايات والاحاديث إذ كان جيراننا يلتفون حول الموقد كل عشية . وينصتون الى الراوى بأذان صاغية وقلوب واعية وأنا بينهم مقبل عليه ، متوجه بكل جوارحي اليه ، يخيّل اليّ انه

بطل من أبطال الاساطير وأن ملاقاته في اسفاره من حوادث ومخاطر كان في عالم وهمي بعيد. وكلما أمعن في قصصه تفتح في نفسى ملكوت الخيال وانفسحت بين جنبى أقطار الوهم. كذلك ما كان أكثر مانعاً واستغدت يوقوفى الى جانب شيوخ القرية تحت ظل الدوحة. لقد كان عالم اللانهاية لا يزال كاه جديداً فى نظرى، وهؤلاء الشيوخ المبجلون الثرثارون أولم يقضوا اثمانين حولاً يذرعون جانباً من فضائه، ويمسحون طرفاً من فناءه؟ ولشد ما كانت دهشتى إذ جملت اتبين أن قرية انتبهل قائمة وسط قطر بعيد الأرجاء وفى وسط دنيا شاسعة الأنحاء، وأن هناك شيئاً يسمى التاريخ، وأنى أنا أيضاً لا بد أن اؤدى يوماً من الايام نصيبى منه باللسان وباليد.

« على هذا النحو أيضاً كان تأثير عربة البريد فى نفسى. اذ كنت أشاهدها تتخلل القرية ذهاباً وأياباً تنوء بما عليها من جبال الامتعة والرجال. وما خطر ببالى حتى بلغت سن الثامنة أن هذه العربة كانت شيئاً يختلف فى جوهره عن قمر ارضى يشرق ثم يغرب بمجرد فعل النواميس الطبيعية شأن القمر السماوى. فما كان يمر بوهمى انها تسير على طرق مصنوعة، متنقلة من مدن بعيدة الى مدن بعيدة، كأنها وشيعة الحائك تحكم ما بينهما من صلات المعاملة وروابط المبادلة. عند ذلك خطر بفسكرى ذلك الخاطر العميق وهو أن أى طريق - وليكن طريق هذه القرية المتواضعة - يفضى بك الى آخر الدنيا!

« ثم اذ كبر اسراب الخطاطيف، تلك التى كانت تتوافد كل ربيع من اقاصى أفريقيا كما اخبرت، جائية فى طريقها الاغوار والانجاد، والسهول والاطواد، والقفار والبحار، والمدائن والامصار، حتى تنتهى الى كوخنا فتبنى

هنالك أوكارها حيث تقيم آمنة مطمئنة، تطير وترفرف وتنقر وتغرد وتتناسل وتفرخ . من ذا الذي علمك فن البناء آيتها الطيور المرحاة الرشيقة ؟ بل من ذا الذي علمك سر التضامن في ماهو أشبه بجمعية ماسونية بل هيئة اجتماعية ؟ ألم اشاهدك مراراً كلما تهدم وكر لاحد افرادك وأعجله الوقت عن الانفراد ببنائه تسارعين في صبيحة الغد الى معاونتته، فلا تزالين في جيئة وذهاب، وحركة واضطراب ، وغدو ورواح ، وقرقرة وصياح ، حتى لا يمسي المساء إلا وقد تم بناء وكره

« وهكذا لبث الطفل يتعجب ويتعلم وسط هذا الكون الحافل بالأسرار ، تقله الأرض الطائحة في وسيع الفضاء ، وتظله القبة العميقة الزرقاء ، وتقوم في خدمته الفصول الأربعة الذهبية ، تتقدم اليه على التوالي بمختلف هداياها ومطاييبها ، ومتنوع ملاحيرها وملاعبها . وما كانت هذه المظاهر والظواهر الا حروف الهجاء التي كان يجب على الطفل أن يتعلمها حتى يستطيع قراءة ما يتيسر له من ذلك السفر الجليل - سفر الحياة . فسواء عليه أكانت هذه الحروف مكتوبة بالخط الكبير المذهب ، أم بالخط الصغير غير المذهب ، مادام قد أوتي عيناً بصيرة تستطيع قراءتها . على أن دياجونيذ الصغير كان لفرط شغفه بالتعلم يجد في مجرد النظر اليها من النعيم واللذة ما يقوم مقام التذهيب والترصيع . لقد كانت حياته كلها عنصراً مشرقاً ليناً من الفرح والغبطة ، وكانت عجائب الكون تبرزله الواحدة تلو الأخرى وتعلمه الحكمة في معرض الفتنة .

« على أنى أكون هاذياً مبطلا اذا ادعيت أن سعادتي حتى في ذلك الأوان ، كانت سليمة من النقصان . فالواقع أنى قد غادرت السماء ، وهبطت



الى الأرض دار المحنة ومنزل البلاء . فكنت أرى بين طيات أقواس قزح ، تلك التى ما برحت تزخرف أطار أفق وتزين مدى بصري ، حلقة سوداء من الهم لم تفارقنى حتى فى عصر الطفولة ، وإن لم تكن بادىء بدء ألحن من الخيط الدقيق ، بل كانت أحياناً تغمرها بهجة الألوان ويستترها رونق الأنوار فتختفى اختفاء تاماً . بيد أنها ما فتئت تعود فتظهر بل تزداد على مر الأيام انفساحاً وانتشاراً ، واتضحاً واشتهاراً ، حتى أوشكت فى سنى اللاحقة أن تطبق بسوادها سماء حياتى ، وحتى آذنت أن يلتهمنى منها ليل مقيم الظلام ، مطموس الأعلام . تلك الحلقة هى حلقة الضرورة التى تحيط بنا جميعاً إحاطة السوار بالمعصم ، بل إحاطة الأدم بالقدم . فطوبى لمن أشرقت له شمس سماوية كريمة فجعلتها حلقة للواجب تنعكس عنها الأشعة الباهرة ، وترقص حولها الأضواء الزاهرة . غير أنها على كل حال باقية مقيمة لا يزال منها لحياتنا أساس مكين ، وسياج متين .

« فى السنين القلائل الأولى من مقامنا فى مصنع الحياة لا تكلف تأدية عمل كثير ، بل يقام بأطعامنا وإيوائنا بغير مقابل ، وجل ما يطلب منا أن نلاحظ ما يجرى حولنا فى المصنع ، وأن نتأمل الصناعات وهم يعملون ، حتى ندرك شيئاً عن ماهية الآلات ، ونستطيع تعاطي هذه أو تلك من الأدوات . وإذا كان المراد من التربية هو إنماء الجانب اللازم دون الجانب المتعدى من النفس فلقد كان حظى منها فوق ما يرام . إذ كنت قد نلت من أسباب الانماء والتهديب ما لا مزيد عليه لمستزيد فى كل ما يتعلق بلبين الطبع ورقة المزاج وحسن التطالع وصدق الاحساس . بيد أن الأمر لم يكن كذلك

من الوجه الآخر ، فإن الجانب المتعدي من نفسى قد ظل مقيداً معطلاً ، ولا أزال حتى اليوم أعانى من هذا النقص وخيم عواقبه . وذلك أنى نشأت فى بيت جبل أهله على حب النظام وكرهه كل ما يشوشه ، لا سيما عيب الأطفال . فلا جرم أن تكون تربيتى مقرونة بالشدة ، والواقع أنى كنت مقيداً بكثير من ضروب التحريم ، لا أكاد أبيع لنفسى الاسترسال فى رغبة من الرغبات ، أو الاستمتاع بشهوة من الشهوات ، إذ كنت كلما هممت شعرت بأن حلقة ضيقة من الطاعة قد ضرب على نطاقها ، وشدد حولي وثاقها . وكذلك كنت أبشر ، وأنا فى نعومة أظفارى ، آلام اصطدام الإرادة بالضرورة ، فتهمر دموع العين وتنشب فى حلقى مرارة ذلك الجذر المشتبك بثمار الحياة اشتباكاً لا انفصال له .

« على أنى أعود فأقول أن الإفراط فى تعود الطاعة هو بلا نزاع أدنى إلى الصواب من التفريط ، والغلو فيه أقرب إلى الرشاد من التقصير . فالطاعة واجب عميم ، وفرض محتوم ، والمرء فى ذلك بين امرين : إما أن يطاوع فينعطف ، وإما أن يمانع فينقصف . فلا رآنى الله بعد اليوم اندب حظى من التربية ، بل أخلق بى أن أروح بما أصابنى جذلاً مغتبطاً . لقد كانت تربيتى مقرونة بالتقشير والشدة والمرارة والعزلة ، مخالفة من كل وجه لأصول العلم ، ولكن ألا يجوز أن نفس هذه الشدة والعزلة والمرارة كانت هى التربة الصالحة لأنماء جذور الجسد والاخلاص ، وانبات تلك الشجرة الكريمة التى تجنى منها كل ثمرات الحياة وأطايها ؟ وكيفما كان الأمر ومهما كانت تربيتى مخالفة لأصول العلم ، فلقد كانت صادرة عن محض المحبة وحسن النية وشرف القصد ، وفى هذا ما يكفى لسد كل خلة وأصلاح كل عيب . وما أنس لا أنس ما كان لأمى

الشفوقة الطيبة - السيدة جرتشن - من جزيل الفضل على ، فقد عامتني بصالح
الاعمال ، دون الأقوال ، وبغضيض الاحاظ ، دون الالفاظ ، ماتفهمه من
العقيدة الدينية . وكانت رقيقة الاحساس تقية خاشعة . فيالله كيف كان تأثير
ذلك في نفسي ! لقد كنت أري أعلى من أجله في الارض ساجداً في خشوع
وخنوع بين يدي من هو أعلى منه في السماء ! إن امثال هذه الامور - لاسما
في غضاضة الطفولة - تتغلغل الى صميم القلب ، وهناك تنشأ من عاطفة
الخوف عاطفة الاجلال وهي أقدم ما يختلج في صدر الانسان . أتفضل أيها
القارئ أن تكون ابن فلاح تعرف بأي شكل مهما كان غير مهذب ان في
الكون وفي الانسان آلهة ، أم تؤثر ان تكون ابن أمير لا يعرف إلا اسماء
كلاب الصيد وشارات خيل السباق ؟ »

الفصل الثالث

عمر الدراسة

ينظر الفيلسوف الى العهد المدرسي من حياته نظرة المستخف غير
المحتفل ، ويرى في زهيد مآلعه بالمدارس مالا يستحق ذكرا ، وذلك حيث
يقول « لقد تعاملت في المكتب مآلعه سائر الاطفال ، ثم ابقيته مدخراً في
ناحية من رأسي ، لا أدري بعد سبيل الانتفاع به . وكان معلمي رجلاً بائساً
مستضعفاً مستذلاً ، كسائر ابناء طائفته . وجل ما استفدته منه استكشافه
أنى من اصحاب العبقرية ، وأنى جدير بالنبوغ في فنون العلم والادب ، وانه
ينبغي ارسالي الى المدرسة فالجامعة ، »

لقد عرفنا الآن أن معلم المكتب كان صادقاً في نبؤته . والواقع أن

دياجو نيز الصغير كان، على ظاهر سكونه وانقباضه، وصمته واحتجازه، لا يزال
ييدي من بؤادر الفطنة المستسرة ما ينم عن نفس مفكرة تتوقد شاعرية،
وتتلهب لودعية. والأخبرني، ناشدتك الله، متى صادف الناس فيما صادفوه
غلاماً في الثانية عشرة من عمره يخطر بباله مثل هذه التأملات الرائعة: « في
ذات يوم وقد جلست على ضفة الغدير انصت الى هدير تياره، واتأمل في
تدفقه وانحداره، والكون مستغرق في سكون الهجيرة، مرّ بذهني فأدهشني
ان هذا الغدير بعينه ما برح يهدر ويتدفق على قلب الزمان، وتصرف
الحدثان، من قبل انبثاق فجر التاريخ والدهر لا ينفك غض الالهاب، والدنيا
ناضرة الشباب - نعم في نفس الهجيرة التي عبر فيها قيصر نهر النيل ساجحاً
كان هذا الغدير يسيل في البرية، لم يطلق عليه اسم، ولم تقع عليه عين، بل
لعله كان يجري جريته هذه يوم عبر موسى البحر بقومه ناجياً من غضب فرعون.
بلى ايها الانسان! انك لتجد في هذا الجدول الصغير ما أنت واجد في الفرات
أو النيل: شرياناً أو عرقاً من تلك الدورة المائية العظمى التي تتخلل كيان
هذا العالم الارضي وما برحت ولن تبرح تلازمه منذ نشأته من العدم الى يوم
رجعته الى العدم. ايها الاحق! تأمل في الطبيعة واعجب من عراقتها في القدم.
أن هذه الصخرة التي أنا جالس عليها تعد من السنين نيفاً وستة آلاف عام »
الا يلمح القارىء في هذا الخاطر البسيط - الذي كان ينبوع صغير - مبادي تلك
التأملات السامية التي تتخلل فلسفة الملابس عن روعة الزمان وعلاقته بالابدية؟
ثم يأخذ الاستاذ في وصف أيامه بالمدرسة وبالجامعة، ولكنه لا يذكر
لها من طيب العهود وجميل الذكريات ما يذكر لا يام طفولته. وهي، وان
كانت لا تخلو من بقع شامسة خضراء، فانها مملوءة بغدران الدموع المرة،

ومناقع التبرم المقررة . وذلك حيث يقول « بدأت أيام نحسى ، واستهل عهد شقائي ، منذ وقعت عيني على المدرسة لأول مرة . ولشد ما أذكر ذلك الصباح المشرق اذ جعلت أعدو بجانب الأب أندريا ثملا بنشوة الأمل والجدل ، حتى دخلنا الشارع المفضي الى المدرسة ، فاذا كلب صغير قد ربط بذيله أحد الأشقياء من الصبية وعاء من صفيح ، فاندفع ينهب الأرض نهبا وقد طار الفرع بلبه . وكذلك جعل هذا المسكين المتألم يحوس خلال القرية طولا وعرضا ، محدثا من الصخب واللجب ما لفت اليه جميع الانظار ، وجعله أشهر من علم في رأسه نار : ذلك لعمر الحق مثال دقيق ورمز صادق لكثير من أبطال الحروب ، أولئك الذين قد علّق بهم القدر الخبيث صفيحة صاخبة من الأطماع لا تزال تسوقهم سوقا ، وتطردهم طردا ، فكلما لجوا في الركض والشد ، لجت هي في الصخب والطرْد !

« وتلفت فاذا الحى الذى نحن فيه ساكنون قد اختفى على مدى البصر ، واذا نى بين قوم غرباء ، لا يرقون لى ولا يعطفون على ، فأحس القلب الصغير لأول مرة أنه في هذا العالم يتيم وحيد »

وكان رفقائه في المدرسة كما هو المعتاد يسيئون اليه ويضطهدونه وذلك حيث يقول « كانوا كلهم صبيانا ، وكان أكثرهم جفاة الطباع غلاظ الاكباد ، يسرعون الى إجابة داعي الطبيعة الفظة التى تأمر قطع الغزلان أن ينقض على الضبية المستضعفة ، وتحرض سرب البط على قتل رفيقها المبيض الجناح ، وتغري كل قوى في هذا العالم باهتضام الضعيف المستكين » وهو يعترف بأنه وان كان من الوجهة الأدبية صادق الشجاعة صحيح الاقدام فهو في المصارعة والنزال سيء البلاء ، وبوده أن يتحاشى تلك المواقف جهدا

المستطاع . والظاهر أن السبب في ذلك لم يكن صغر جرمه فانه ما زال يبدى عند الغضب من خفة الحركة وشدة الوثبة ما يبعث على الدهش والاعجاب . وإنما كان الأمر عنده مبدأً وعقيدة حيث يقول « اذا كان من العار المخجل أن يخرج الانسان من الحرب مهزوماً فمجرد اشتراكه فيها عار آخر لا ينقص عن عار الهزيمة الا قليلاً » وكان في ذلك العهد كثير البكاء غزير الدمعة حتي لقبه أقرانه « بصاحب العبرات » . وما كان غضبه ليثور الا في الأحياء النادرة ، وعندئذ تعصف في رأسه عواصف الموجدة ، ويضطرم في عينيه لهيب الحق ، حتي يظل أشجع الشجعان من أقرانه يرتجف بين يديه ارتجافاً . أما عن التعليم وأساليبه والقائمين بأمره فالاستاذ يتكلم بتحمس يكاد يبلغ حد الغضب ، وذلك حيث يقول « وكان أساتذتي من المغفلين المتقمرين ، ليس لديهم ذرة من العلم بطبائع الانسان أو الحيوان ، كلا ولا بشيء في الوجود سوى قواميس المفردات ودفاتر التحضير . لا دأب لهم الا أن يحشروا في أذهاننا كداساً مكدسة من ميت الألفاظ ومجذب العبارات ، ويسمون ذلك تشقيفاً للعقول وتربية للملكات . لله أبوهم ! كيف تستطيع تلك الآلات الجامدة التي لا تجول فيها نسمة من الحياة (يعني المعلمين) والتي لا يبعد على مصانع القرن الآتي أن تخرج أمثالها من الجلد والخشب أن تعد وسائل النمو لشئ على الإطلاق ، لاسيما للعقل الانساني ذلك الذي ينمو ، لا كما ينمو النبات (بتسميد جذوره بالدبال اللفظي) بل كما تنمو الروح ، بالتلامس الخفي مع الروح وهنالك تشتعل النفس من النفس ويقتبس الفكر جذوة الحياة من نار الفكر ؟ كيف يستطيع إشعال غيره من هو في ذاته بارد الجوف قد خلا من كل جهرة حية ، ولم يبق فيه الا رماد هامد من المحفوظات اللغوية

والقواعد النحوية ؟ لقد كان أساتذتي يعرفون الجرم الكثير من النحو والصرف ، ولكنهم لا يعرفون من شئون النفس الانسانية سوى أن فيها ملكة تسمى الذاكرة ، يمكن التأثير فيها من طريق الغشاء العضلي بواسطة العصا !

« ويلاه ! تلك هي الحال في كل مكان ، ولسوف تبقى كذلك على مدى الأزمان ، حتى يُطرد الفاعل الآخرق الحقير ، أو يقصر عمله على حمل النقيير ، ويستأجر مكانه مهندس صناع يتلقى ما يجب من التشجيع والتشيط ، نعم وحتى تتعلم الجماعات والأفراد أن تغذية الأرواح بالعلم والعرفان، لا تقل منزلة عن تمزيق الأبدان ، بشظايا القنابل وأسنة المران، وأنه ينبغي أن يكون بجانب قواد الجيوش وبطارق الجحافل ، ممن تنحصر مهمتهم في التقييل والتذيع ، أئمة مكرمون ورؤساء مجدون تكون مهمتهم التريية والتعليم . وإنه لمن علام الفساد في هذا المجتمع أنك بينما تجد الجندي في كل مكان يمشي الخيلاء متباهياً بآلة التخريب ، لا تجد المعلم قط يتباهى بآلة التهذيب ، وأكبر ظني أنه لو تجاسر وخرج الى الملا متقلداً عصاه منتظراً من القوم أن يقابلوه بتحيةة الاجلال، لما وجد منهم غير السخرية والاستهزاء »

ويظهر ان اندريا توفي الى رحمة ربه في السنة الثالثة من ذلك العهد فابصر الطالب الصغير لأول مرة ان ظاهره مكتس بالحداد ، وأن باطنه مكتس بنوع من الكآبة لا يستطيع وصفه اللسان . وذلك حيث يقول « لقد انفجرت له تلك الهاوية المظلمة السحيقة ، التي نطأ جميعاً على قشرتها الرقيقة ، وتراءت لعينه اقاليم الموت شاحبة مكفهرّة ، تروع الناظر يسكنها الصامتين من امم لا تحصر وأجيال لا تحصى . وأخذت امي في البكاء

والنجيب فأوجدت لحزنها منفذاً ولسكرها متنفساً . أما أنا فقد بقيت في
 قلبي بحيرة مملوءة بالعبرات ، تكتنفها قفار صامتة وصحارى موحشات . غير أن
 الروح كانت لا تزال في عنفوان النشاط والفتوة ، والحياة كلها عافية وصحة فهي
 واجدة حتى في الموت مادة الغذاء والقوة . فانغrust تلك التجارب المظلمة بيد
 الذاكرة في ثرى الخيلة ، وما زالت تنمو هنالك وتركو حتى صارت غابة ملتفة
 من الأثل والسرور ، كثيبة ولكنها جميلة ، محزنة ولكنها أنيقة ، تهتز وتميد
 فتتردد في جنباتها الزفرات العذاب ، والأنين المستطاب ، ولا تبرح الظلال
 السود مخيمة عليها وان متعت فوقها شمس الظهيرة — ذلك شأنها طول
 الشباب ، واحسبها باقية كذلك مدى الكهولة ، فأنى قد ضربت خيمتى في
 ظل أثلة ، وجعلت القبر حصنى المنيع ، اقف على بابه وانظر الى الجيوش
 المتعادية ، وإلى الحياة العاتية ، متأملاً ما حوت من ألوان العذاب والعقاب
 بجأش رابط ، مستمعا الى وعيدها القاصف بابتسامة هادئة . فيا أجباني الذين
 اضطجعتم على وثير مهاد الراحة في دار الامن والسكون ، والذين كان منتهى
 طاقتي واتم في قيد الحياة ان ابكى عليكم ، غير قادر على اىصال المعونة اليكم !
 ويا اجباني الآخرين الذين لا تزالون مشتتين في مجاهل المأساة الموحشة
 ومفاوز المحواة المقفرة ، تجوبون انحاءها ، وتصبغون بدمائكم حصباءها —
 ان هي الا لحظة قصيرة حتى نجتمع كلنا في صعيد واحد ، وحتى نأوي الى
 صدر أمنا الحنون ، فنصير في مأمن وعصمة ، لا يصيبنا اذى من نير الاضطهاد
 وسوط العذاب ومرزبة الأحران وزبانية الجحيم : اولئك الذين يطوفون
 فى انحاء الزمان المضطرب »

فى هذه اللحظة اطلمت السيدة جرتشن ريديها على جلابة امره وافهمته

ان أندريا لم يكن بوالده وذلك حيث يقول « وهكذا كان يتمي مضاعفاً ،
فلقد حرمت عزاء الذكرى كما سلبت نعمة الملك . هنالك تلاقحت في نفسى
عوامل الأذى والعجب ، فياروعة ما أنتجت ، ويا كثرة ما أثرت ! بلى
لقد ضرب ذلك النبأ بعروقه في ثرى القلب ، ثم لبث قائماً هنالك يمتزج
بخطرات الفؤاد ويتواشج بهجسات الضمير كأنه الجذع الذى تنمو عليه أحلام
يقظتى ورؤى منامى . لقد كنت منقطع النظر ، وكان هذا الخاطر لا ينفك
يشعرنى بنوع من السمو والارتفاع ، كما كان يشعرنى بنوع من الانحطاط
والاتضاع . ولا بدع فلعلى - كما كنت نسيج وحدي فى مولدى - كنت
أيضاً نسيج وحدي فى أقوالى وأفعالى ومذاهبي وآرائى »

وبعد إيراد الكثير من أمثال هذه الملاحظات المهمة يصل الفيلسوف
أخيراً الى ذكر أيامه بالجامعة فيفتتحها قائلاً :

« لقد أصيب فى المثل السائر : إذا الأعمى قاد أعمى سقط كلاهما فى
المهوى . فهلا كان يحسن بهما تفادياً من الزلل واجتناباً للعثار أن يجمدا فى
مكانهما ؟ اليس الأضراب عن الطعام والمبيت على الطوى خيراً من تناول
الطعام المسموم ؟ أفرأيت لو أنك عمدت الى مربع من الارض فى بلاد الهمج
ومفاوز التوحشين ، فسورته بسياج واعدت فيه مكتبة لا بالمتقاة ولا
بالحافلة ونصبت على ابوابه جماعة اطلقت عليهم لقب الاساتذة وكلفتهم
أن يتقاضوا من راغبي الدخول أجوراً طائلة وأن يصيحوا ملء افواههم (هاموا)
ايها الملا فمذه جامعة) - اقول إذن لكنت مثلت بالجوهر وبالنتيجة ، وان لم
يكن بالهيئة والمنظر ، ما يشابه الجامعة التى كنت فيها او يكاد . اقول
يكاد لأنه اذا كان بناء جامعتنا يخالف بناء هذه جد المخالفة ، فقد كانت النتيجة

أيضاً في الحالتين غير متماثلة ، اذ كنا نقيم لسوء الحظ لا في مفاوز الهمج
ومجاهل المتوحشين ، بل في غمار مدينة اوروية فاسدة ، مكروبة بالدخان ،
مشحونة بالآثام ، وفي وسط جمهور لا ينخدع بمجرد النداء ورخيص المعدات ،
بل لابد من التذرع الى خدعه بوسائل اكثر تعقيداً وأبهظ نفقة .
« على انه ليس بين هذه الجماهير كلها الا ما هو سهل الانخداع متى أخذ
للأمر صادق أهبطه ، واعد له لائق عدته ، وان خادعيها ليفيدون من الأرباح
مالا يخطر في بال . وأنه لمن دواعي العجب أن لا يوجد لدينا حتى اليوم شيء
من قبيل احصاءات الدجل والتمويه ، وأن يظل علماء الاقتصاد مكبين على
احصاء كل ما هو صغير الشأن من فروع الصناعة ، صارفين النظر عن فرع
النفاق وهو أجلبها خطراً ، كأن كل ما يدخل في باب النصب والاحتيال
والنفج والادعاء والغش والرياء وما شاكلها من غريب المهن والأسرار
ليس من الصناعات المنتجة في شيء ! فمثلاً هل يستطيع امرؤ ان يخبرني عن
كمية ما يجمع من المال في مهنتي التعليم ومسح النعال بواسطة صحيح التعليم
وصادق المسح ، ثم عن كمية ما يجمع فيهما بواسطة كاذب الاعلان
وخادع التمويه ؟ على انك اذا عمدت الى كل منحى من مناحي الحياة الاجتماعية
من سياسة وتعليم وتأليف وتفكير وتجارة وصناعة ، فسألت عن مبلغ سد
حاجة الانسان في كل منها بالبضاعة الصحيحة ، ومبلغ سدها بمجرد صورة
البضاعة الصحيحة - أعني أنك اذا تساءلت عن مبلغ حلول العمل الصوري
مقام العمل الحقيقي في كل زمان ومكان ، وبأي الأساليب والنتائج يتم ذلك
لرأيت بين يديك مبحثاً واسعاً خصيباً حافلاً بالعظات البالغة والنتائج المثمرة ،
ولكنك قد لبثت حتى الآن مختوم الغلاف لا تكاد تمسه مخاويض الباحثين . فإذا

كنا نقدر اليوم نسبة البضاعة الحقيقية الى البضاعة الصورية كنسبة واحد الى مائة فأى المبالغ من الاقتصاد لا يرتجى بلوغها فى المستقبل متى تقدم فن احصاء النصب والدجل فتناقضت صناعة الأكاذيب على التدرىج (كلما ارتفع شأن صناعة الحقائق) حتى نصبح أخيراً ولا حاجة بنا اليها البتة ؟

« هذا ما نؤمل أن يتم فى العصر الذهبى القادم ، أما فى عصرنا البرترى الراهن فالذى أراه فى مختلف مناحي الحياة كالنعليم والسياسة والديانة ، حيث تمس الحاجة الى الجمل الكثير وحيث لا يستطيع الحصول الا على النزر اليسير - أن الدجل قد يكون مفيداً نافعاً كدواء صحيّ مسكن ، وأن قابلية الانسان للانخداع ليست شر مواهبه ، واسوأ منائحه . فهب مثلاً أن الامة قد تضعضع عصبها الحربى ، أعنى انها أصبحت مفلسة قد صفرت من المال خزائنها ، وصارت جيوشها على شفا التمرّد فالانحلال فالتناحر ، أفلا يحسن وقتئذ أن تعتمد الى ما يشبه السحر والمعجزة فتدفع لهم أعطياتهم بأوراق صورية ، وتطعمهم ماء جامداً أو أطعمة خيالية ، وبذلك تسكن سورتهم ، وتبقى على وحدتهم ، حتى يتم لها تحصيل المؤن الحقيقية ؟ هذا هو ، فيما أظن وأرجح ، غرض الطبيعة - والطبيعة لا تفعل شيئاً عبثاً - من تركيبها فى فطرة صنيعتها الانسان تلك الملكة المعجبية : قابلية الانخداع .

« لله در هذه الملكة ما أبدعها فى عملها ، وما أسلسها فى سيرها ، لا تكاد تحتاج الى شيء من الآلات والمعدات ، بل هى تصنع لنفسها ما تريد من هذا القبيل ! لقد كان أساتذتى فى الجامعة يعيشون فى أمن وخفض ، بفضل لاشيء سوى شهرة أنشئت لهم بفعل غيرهم فى الزمن الغابر بغير كبير مشقة ، فهم كطلاحون متينة التركيب دائبة الدوران تطحن لهم من تلقاء نفسها ما شاؤوا ،

ولا تتطلب منهم سوى أن يجددوا دهانها مرة في كل عام . هنيئاً لهم أولئك
الطحانين ! وما أسعدهم خطأ بأن الأمر كان كذلك ! لقد أحسنوا صنعا إذ
لم يكافوا أنفسهم مؤونة العمل ، فاني كلما تذكرت الآن محاولاتهم في سبيل
العمل - في سبيل ما كانوا يسمونه التعليم - امتلاً قلبي بنوع من التعجب
الصامت والاعجاب الواجم .

« ولقد كنا نتباهى بأن جامعتنا من أنصار المذهب العقلي ، وأعداء
المذهب النقلى ، وأنا خصوم الداء لكل ما ينطوى تحت لواء الباطنية
والصوفية . وكذلك كانت الأدمغة الخالية الصغيرة تحشى حشواً بأكداس
من الكلام العريض الطويل عن رقى الأنواع وعصور الظلام وكواذب
الأوهام وما شا كل هذا ، فسرعان ما تنتفخ بما يملؤها من رياح الجدل العقيمة .
فما كان من تلك الأدمغة متيناً حصيفاً كان مصيره الضلال في بيداء الشك
العاجز الويل ، وما كان ضعيفاً سخيلاً انفجر ، فاستحال هواء من الزهو
والغرور لا تنتظر منه في المقاصد الروحانية فائدة - ولكن هون عليك
ولا تبتئس فهذا أيضاً بعض ما قسم للانسان وقدر . أتشكو وتتذمر لأن
عصرنا هذا عصر كفر والحاد ، وانك لتعلم أن ما هو خير منه سيطلع علينا
مع الغد ، بل هذه تباشيره قد لاحت منذ اليوم ؟ لقد جرى حكم القضاء بأن
تتعاقب فترات الايمان والكفران ، كتعاقب ضربات القلب انبساطاً
وانقباضاً ، وتعاقب شطرى اليوم ليلاً ونهاراً ، وأن يكون ربيع ازدهار
الآراء وصيف إيناع المعتقدات سابقين ولاحقين لخريف اصفرارها
واضمحلالها وشتاء انتشارها وانحلالها . على أنه ربما كان من البلية لدوى
الحجى أن يولدوا في أمثال هذه الفترات القاحلة - فترات الاحاد - فيظلون

فيها يقظين عاملين، دُئبين مشيحين . أما أهل الغفلة والغباوة فأولئك ينعمون فيها
بسبات عميق، شأن الحيوانات المشتية التي تجتاز صبارة القر في غمرة الكرى،
فلا يفيقون من رقدتهم إلا بعد أن تهدأ الزعازع العاصفة، وتسكن الزلازل
الراجفة، ويقبل الربيع الجديد إجابة لدعواتنا اللهي ومكافأة لضحايانا الموجهة»
يتضح مما تقدم أن تيوفلسدوخ كان ولا شك يعاني من برحاء الألم شيئاً
كثيراً، يؤيد هذا قوله بعد ذلك « لقد كان الصغار الجائعون ينظرون نظرة
الملهوف الى مراضعهم الروحانية، فيؤمنون أن يرثعوا الصخر الاصم
ويستطعموا الريح العقيم . وما كنت لاقصر عن سبق الاقران في حفظ
مانلقن هنالك من مجذب المجادلات الفقهية والمباحث اللفظية، والمعالجات
الآلية التي كانوا يطلقون عليها اسم العلم زورا وبهتانا . كذلك ما كان ذلك
الجمع الغفير من طلبة الجامعة ليخلو من بضعة أفراد يتعطشون الى مناهل العلم
الصحيح، فكنت استفيد من احتكاكي بهؤلاء روحاً من التحمس والنشاط.
وكنت بحكم طبيعتي ولحسن حظي أميل الى التفكير والمطالعة منى الى الصخب
والمشاغبة، فطالما كنت أنغمس في فوضى تلك المكتبة فاستخلص من
كتبتها مالا يخطر ببال حفظتها . وكذلك وضعت لنفسى دعائم حياة أدبية،
وتعلمت بجدي واجتهادى معظم اللغات الراقية، وكنت لا أنى طرفة عين
عن المطالعة فى كل الموضوعات وفى كل العلوم . ولما كان الانسان على الدوام
قبلة الانسان كان لى غرام شديد باستقراء الأخلاق عن ظهر الغيب، وتعرف
صفات الكاتب من أسلوب كتابته، ومن ثم تكونت فى نفسى اصول
فكرة عامة عن الطبيعة البشرية والحياة الدنيوية : فكرة مازالت تجاربنى
تقيم من أودها على مر الايام وتوسع من نطاقها على كرى الليالى »

PR/4429/.S312/1927

المؤلف: كارليل ، توماس

عنوان الكتاب: نظرات في الفلسفة والحياة

تاريخ الارجاع

اسم المستعير

تاريخ الارجاع DATE DUE

1994-09-04

1995-09-01

كذلك يستفيد القوى من العوز والفاقة غني وثروة ، وكذلك يعثر
اسماعيلنا الفتى أثناء هيامه في الصحراء على أنفـس المقتنيات : اعنى فضيلة
الاعتماد على النفس . بيد أنه ما برح يضرب في فلاة موحشة ومفازة قفراء
تصبح بها يوم وتعزف جنة

فيعوى لها سيد ويصبح سمس
فلشد ما كانت تساوره أفاعى الشك ، وتغاوره وحوش الارتياب ،
واطالما بات كما يقول « مؤرق الوساد ، نابي المهاد ، في ليل طامس الاعلام يحيط
به من الظاهر ، وغيب دامس الظلام يحدق به من الباطن ، جائراً بالدعاء
يتطلب نور الهدى ، ويلتمس الخلاص من الردى ، حتى بلغ منه الجهد وغشيه
اليأس ، فاستسلم لحكم القبضاء وخر صريعاً بين يدي كابوس الاحاد ، وبات
في أحلامه المرتاعة يحسب هذا الكون الحى البديع مجمع الالباسة وعالم
الموتى . ولكن لا بأس فبهذا جرى محتوم المقادير ، إذ لا بد للروح أن تنغمس
في مثل هذا المطهر^(١) حتى تخرج منه نقيه الردن طاهرة الذيل ، لا بد لميت
رسوم الدين أن تعترف بموتها وتذهب هباء في مهب الرياح ، قبل أن ينطلق
روح الدين من سجن رفاته البالى ويطلع عاليناً في بهائه الجديد ، حاملاً طي
اجنحته شفاء الارواح وعزاء النفوس »

فاذا أضفنا الى هذه الآلام المطهرية ، على ما بها من شدة وتبريح ، نصيباً
وافراً من الارزاء الارضية ، كفقـد المرشد وفقد المعين وضيق ذات اليد وضيق
فسحة الامل ، واذا اجتمع كل هذا على امرئ رث الوسائل ولكنه في شرخ
الشاب ذى الخيال الجموح الوثاب والمطالب الطوال العراض : ألا نجد حينئذ

(١) منزلة وسط بين الجحيم والفردوس تنطهر فيها الارواح من ذنوبها قبل دخولها الجنة

بين أيدينا نفساً فتية قوية تعاني من الظاهر والباطن كرباً كارباً، وتقاسى من الخارج والداخل ضغطاً حازباً؟ وهلا نرى يوماً نار العبقريّة تعالج الصعود خلال أكّداس مركبة من الحطب النضير وقد طغى فيها الدخان المعتكر، على اللهب المستعر؟

وما كان تيوفلسدروخ، على فرط حيائه وانزوائه، وانقباضه واعتكافه، ليفوت أنظار القوم؛ فقد كان معروفاً لدى طائفة من ذوى المكانة والجاه، وإن لم يكن يحظى منهم بشيء من المساعدة. والظاهر أنه شرع يتعلم، على كره منه، علم الحقوق وأنه نال الشهادة في هذا العلم، ولكننا ندع هذه التفاصيل جانباً ونكتفى بالكلمة الآتية نجعلها خاتمة كلامنا عن عهد الجامعة :-

« وهنا أيضاً كان تعرفى بالهر توجود، وهو شاب من أسرة عريقة في صميم بلاد الأنجليز، يمت بصلة القرابة إلى بعض ذوى المقامات في هذه الناحية من ألمانيا. وهذا الأمر كان بلا شك من البواعث التي أغرته بمغادرة وطنه والقدوم إلينا رجاء إتمام دراسته. ضلّ له لقد طاش سهمه وخاب فله! كيف ينبغي الكمال في مكان لم يبق فيه أثر لفكرة الكمال فضلاً عن المجهود اللازم لتحقيقه؟ ولطالما كان أحداً يجلس إلى أخيه فلا تزال تندب حظ الشبان في هذا العصر المنكود، فنذكر ضيعة مساعي ولاية الأمور في التعليم، وإننا بعد كل ما كابدها من وصب وأنصب سنخرج إلى الدنيا ولم نكتسب من صفات الرجولة إلا هذه اللحي النابتة في عوارضنا، فلا نحن ندرى في أي طريق نسعى وبأي نور نهتدي، كلا ولا نحن ندرى بأي العقائد تؤمن وبأي المذاهب تقتدى. إنني لأذكره يقول «لله ما أعجب هذه الرؤوس التي نحملها فوق المناكب! لقد جهزت من الظاهر بقبعات تركتها ناهيك بها حسن ريق

وبهاء ، ولكنها من الباطن خالية هواء ، لا تحوي الارغوة من المنطق
الجدلى والألفاظ الجوفاء . أرى الناس يتعاملون بأيسر نفقة عمل الأحذية
فماذا ترانى قد تعلمت عمله بعد تكبد النفقات الطائلة ؟ تالله يا أخى لقد أنفقت
فى المأكل والملبس منذ قدومى ههنا مالو تجمع لكفى للانفاق على مستشفى
عظيم » عندئذ يكون جوابى « هوّن عليك يا صاح ! لقد أودع الانسان
قوة هاضمة لا بد له من تشغيلها ولو بالسرقة . أما ما تقول عن سوء التعليم
فحذار أن تريد الشر وبالا ، وإياك أن تضع ما لا يزال بين يديك من نفيس
العمر فى وطء الشوك لانه قصر عن اجنائك التين . إن لدينا لكتباً قيمة ،
وقد أوتينا عقولاً بها نقرأ ونفهم . وإن لدينا لسماء الله وأرضه ، وقد منحنا
عيوناً بها نبصر وندرك ! »

« وكثيراً ما كنا نخوض فى أحاديث الفكاهات ممتعة مشرقة . وكنا
نتأمل الحياة ومسرحها العجيب يجمع بين المأسى المبكيات والمهازل المضحكات ،
فى مناظر متنوعة المظاهر لا تخلو من مسحة الهول وروعته . بيد أننا كنا
ننظر اليها بقلوب ملؤها الحمية والشجاعة . ولعل هذه كانت أسعد أوقاتي
وأكملها هناء وصفواً . وكنت أوشك أن أشعر تلقاء ذلك الشاب الحمي
القلب العنيد الرأس بعاطفة الصداقة التى أصبحت اليوم من الطراز العتيق .
ضلة لى من غبى أحق ! لقد حسبت من المستطاع أن أحب هذا الانسان
وأن أضمه الى صدرى وأن أكون له مدى العمر أخاً وشقيقاً . بيد انى لم
ألبث حتى أفقت على التدرج من هذا الحلم ، وحتى فهمت روح العصر
الجديد ومقتضياته ، نعم لقد أدركت أن النفس إن هى إلا ضرب من المعدة ،

وان تألف الأرواح لا معنى له إلا اجتماع الخلق على الخواص ، وان
رابطة الأخاء ليست الا رابطة المؤاكلة . أما ما عدا ذلك فترهات وأوهام ،
وسخافات وأحلام »

الفصل الرابع

في سبيل البحث عن عمل

يقول صاحب الترجمة ، والظاهر أن قوله هذا كان بُعيد تخرجه من
الجامعة ، « وهكذا تحقق في الوجود شيء ما : أعني أنا ، دياجونيوز
تيوفلسدروخ ، تلك الصورة المرئية الموقوتة ، تشغل من الفضاء بضعة اقدام
مكعبة ، وتحتوي من مادي القوى وروحانيها قدرًا معلوما ، من آمال وخواطر
وشهوات ونزعات ، إلى آخر ما يتألف منه ذلك الجهاز العجيب الذي يجهز به
أعقد الغاز الحياق وأغربها - الانسان . لقد أودعت من المقدرة ما أكفح به ،
ولو كفاحاً ضئيلاً ، دولة الظلام الرهيبة : الا ترى حتى الحفار الحقير يعمل
بنأسه على اقتلاع الكثير من الاشواك وردم الوبيء من المستنقعات ، وبذلك
يفادر يسيراً من النظام حيث وجد الفوضى سائدة ؟ بلى وأنتك لتلني حتى
أحط السكائنات قد أوتى حظه من هذا النوع من المقدرة ، فالذبابة التي يقتحمها
ضرف العين لا تزال تنظم ما كان من قبل غير منظم ، ولو بادغامه في عناصر
جسمها وتحويله من مادة غير عضوية إلى مادة عضوية ، ثم هي لا تنفك
تحدث بطنينها من الهواء الصامت الميت انعاماً حية وأن تكن من أخفت
ما سمع السامعون .

« وإذا كان هذا شأن الذي أوتى نصيباً من القدرة المادية فكيف بمن رزق حظاً من القدرة الروحانية ، بمن تعلم أو شرع يتعلم أسرار ذلك الفن السحري الأعظم ، فن التفكير ؟ انى أدعوه فناً سحرياً ولا غرو فأليه يرجع الفضل في جميع ما تم حتى اليوم من مدهشات المعجزات ، وفيما سوف يتم في مستقبل الأيام من خوارق يخطئها الحصر ونشاهد منها حتى في عصرنا هذا ما يحير الالباب . لست بذاكر ما لوحى الانبياء والشعراء من عجيب المآثرات ورائع الآيات ، ولا أنا بمتعرض لوصف ما كانت تحدثه رسالات هؤلاء الملهمين من خلق عوالم يجمتها وافناء أكوان برمتها . ولكني أسألك أبلد البلداء : ألم يسمع زفير الآلات البخارية يتصاعد حوله من كل مكان ؟ ألم يشاهد فكرة النحاس الايقوسى (وهى بعد ليست إلا فكرة آلية) تسبح على أجنحة النار ، وتشق لجج البحار ، وتصارع النوء والاعصار ، وتبدى من دلائل الجلد والقوة ، وغرائب المضاء والهمة ، ما تعجز عنه اعوان السحرة ، من جبابرة الجان وشياطين المردة ، فهى لا تكفى بنسج الشياب والأبراد ، ومحو المسافات والابعاد ، بل تعمل بعزيمة حذاء على قلب نظام المجتمع بأسره رأساً على عقب ، وتتهىء لنا بدلاً من عهد الاقطاعات وسيادة الشرفاء ، عهد الصناعات وحكومة الحكماء ؟ ألا إن الحقيقة التى ليس فيها وراء ان الانسان المفكر هو ألد خصم وأعدى عدو لأمر الظلام ، وأنه كلما أعلن أحد المفكرين مقدمه سرت في كيان الدولة السفلى رعشة الرعب والفرع ، فتنبه للقاءه من جنود الباطل فرقة جديدة ، تتعلم وتعالج من أساليب الكفاح ضرورياً جديدة ، علماً تستطيع اقتناصه فتعصب عينيه وتغل يديه . إلى أداء مثل هذه المهمة العالية قد دعيت أنا أيضاً بصفتي واحداً من

أبناء هذا الكون . بيد أنه من دواعي الأسى أن المرء ، مع ما يخول بأمر الطبيعة من حق إعلان الحرب على أمير الظلام وحق الفتح والاستيلاء على ما استطاع من دولة الباطل ، لا يستطيع أن يحرز صولجان إرثه ويعتلي كرسي ملكه ، الا بتجشم النصب الناصب وتكبد العناء المعنى »

تُرى هل يقصد الاستاذ بهذه العبارة المقعرة والاستعارة المفخمة شيئاً سوى أن الشاب خليق أن يلاقى مصاعب وعقبات في سبيل البحث عما يلائمه من العمل ؟ انا نستميحك العذر أيها القارئ ، فهذا شأن الاستاذ في أساليبه وتعاييره . وبعد فلنسمع ما يقوله بعد ذلك :

« ملكوتي وسلطاني هو فيما أثنج وأصنع ، لا فيما أملك وأجمع . لقد أوتى كل امرئ مواهب باطنية معينة وظروفا خارجية معينة ، يخرج منهما بحسن الملائمة مقدرة قصوى معينة ، ولكن عقدة العقد ومعضلة المعضلات هي فخص ملكاتك الباطنة وظروفك الظاهرة رجاء الاهتداء الى نوع هذه المقدرة الناتجة من اتحاد القوى الداخلية والأحوال الخارجية . اذ الواقع مع مزيد الأسف أن الروح الفتية لا تزال تنفطر عن مقدرات متباينة فيظل المرء في حيرة لا يعرف صحيحها من فاسدها ولا يميز صادقها من كاذبها . هذا الى أن المرء ساعة يولد يخرج الى العالم في وقت جديد وظروف جديدة ، فسيرته في الحياة لا يمكن ان تحتذى على مثال سابق ، بل لابد أن تكون نسيج وحدها .. أضف الى ذلك أنه كلما تأتى الظروف الخارجية وفق المواهب الباطنية ، فترانا اذا منحنا من الذكاء قسطا وافراً ابتلينا بالفقر أو بفقد الاخوان أو بعسر الهضم أو بفرط الحياء ، أو بما هو شر من كل ذلك : الحق . وكذلك يظل المرء يتعيث بين خليط المقدرات متمسكاً منها ما هو له ، وملتقطاً في

أكثر الأحيان ما ليس له . ويقضى الشاب الأعشى في هذا العمل الأخرق سنين عدة من عمره القصير ، حتى يعود بفضل متكرر التجارب خبيراً بصيراً ، بل ربما قضى كل عمره في هذا العمل العقيم ، بين رجاء متجدد ، وانخفاق متردد ، متقلبا من مسعى الى مسعى ، ومضطربا من ناحية الى أخرى ، حتى اذا بلغ سن الشيخوخة وهو بعد في غرة الحداثة عمد الى آخر مساعيه : نزول القير .

« ذلك بلا نزاع كان يكون مصير أكثر الناس ، إذ كان معظمنا من ذوى البصائر العشواء والاعين الرمداء ، لولا شيء واحد هو الذى ينقذنا : الا وهو الجوع ، ذلك الذى لا يعرف التريث ، ولا يفهم التلبث ، فهو متى دام المرء أعجله عن التردد والاضطراب ، واضطره الى سرعة الاختيار . ومن ثم رأى الناس من الحكمة وحسن التبصر أن يعدوا للاحداث الأغرار مناهج للتعرن على مختلف الحرف ، حتى اذا سلك الشاب منها لم يأت على آخره الا وقد أفرغ ما اوتي من الكفاءة المبهمة العامة في قالب حرفة معينة خاصة ، فيصبح فى استطاعته أن يعمل عمله فى الحياة مع القليل أو الكثير من التبذير فى المقدرة . ولكن مع اتقاء شر أنواع التبذير - تبذير الوقت - وانه لمن حسن التدبير أن مثل هذه الخطة قد اتبعت حتى فى الشؤون المعنوية والمسائل الروحانية ، وان هُيئت للمتطلعين الى الاشتغال بهذه الامور مناهج للتدرب على مختلف المهن ، لأن الصانع المعنوى لا يولد بصيراً ، كلا ولا يمنح نعمة البصر بعد تسعة أيام من مولده شأن بعض الاصناف من الحيوان ، بل يظل مكفوف الرؤية زمنا طويلا ، ولقد يبق كذلك مدى العمر . بيد انه متى انخرط فى سلك مهنة من المهن انطلق فيها يلف ويدور

كفرس الطاحون ، لا يضيره ما بعينه من عشوة أو عمى ، بل تراه منشرح الصدر مشاوج الفؤاد ، يحسب أنه لا يزال يتقدم الى الامام وان كان في الواقع لا يتقدم خطوة . ثم لا يخلو عمله من فائدة أو فائدتين : واحدة لنفسه وهي إطلاعها ، واخرى للمجتمع وهي إضافة قوة حصان آخر الى القوة المحركة لطاحون الاقتصاد الكبرى . لقد أعد لي أيضا زماما ربط به الى هذه الطاحون ، ولكنني لم البث حتى تبينت أنه شناق آزم كاد يخنقني ، فبادرت الى قطعه . عندئذ وضح لي أن العالم بخدافيره أصبح بين يدي مثله كمثل محارة ، كلفت فتحها اقتدارا أو احتيالا بما اوتيت من حول ومن حيلة . بيد أنني وجدتها من شدة الاغلاق وفرط الاستعصاء بحيث كدت أقضي دون الظفر بينيتي » في هذه الكلمة تتجلى خلاصة ما كتب على الاستاذ أن يلاقيه . لقد كان هذا الشاب ذو المواهب العالية والمزاج الناري مثله كمثل مهر فتى جموح نشط من عقاله وخرج هائما من مذوده يريد المرح في نواحي الارض والضرب في مناكبها العراض ، ولكنه ما لبث ان وجد في كل صوب ينتحيه سدودا منيعة تستبي عينيه من ورائها مراعي فيحاء وكلاء خضراء ، ولكنها محرمة عليه ، فلما أن يحمد في مكانه ريثما يرعى الجوع لجه ويبرى القحط عظامه ، وأما أن يُجنَّ من الغيظ فلا يزال يتخبط ويتوثب ، ويناطح من السدود كل صخرة صماء ، ويصادم من الأسوار كل صفاة صلباء ، فلا يبوء الا بهشيم أعضائه وتمزيق أشلائه ، حتى وفق اخيرا الى اقتحامها باعجوبة بعد بذل الالوف من المحاولات ومعاناة الاهوال من الآلام ، فخرج يمحس لا فيما كان يتخيل من مراتع رغيدة ومروج سعيدة ولكن على كل حال في فضاء معشب تستمرأ فيه حلاوة الحرية وإن مازجتها مرارة الفاقة . وجملة

القول أن تيوفلسدروخ بعد أن نبذ مهنة القانون التي نفسه في فلاة بهما ليس فيها من العمل الصالح مرشد ظاهرى ، ولا فيها من الايمان الراسخ مرشد باطنى . لقد كانت الضرورة تسوقه اعنف السوق ، ولا غرو فما كان للزمن ولا لابن الزمن أن يترث ويقف ، وكيف بالوقوف لمن لا تزال تحموه وتوفزه ، وتنخسه وتحفزه ، وجدانات مستعرة لاشقاء لغليلها ، وملكات متقدة لا عمل لعاطلها ؟ وهكذا كتب عليه كما كتب على غيره ، أن يمثل تلك الرواية الرهيبة « لا غاية ولا راحة » ، وأن يمر في أدوارها المتتابعة ، ويخرج من خاتمها الفاجعة ، مستنبطاً منها ما استطاع من عبرة وموعظة .

بيد أنا نقول انصافاً لصاحبنا أنه كان معذوراً بعض العذر فيما أتاه ، وأن الشناق لم يكن على عنقه بالخفيف الوطأة ولا بالهين الحمل ، فلا بدع أن يضطر الى قطعه . لقد وجد نفسه أثر تخرجه من الجامعة وبعد نجاحه الباهر في الامتحان في موقف لا يحسد عليه انسان ، يبحث عن العمل فلا يجده ، ويلتمس المرتزق فلا يؤاتيه ، وما كان لمثله ، وهو المقطوع الصلة بكل صاحب منزلة وجاه ، أن يأمل من الانتظار كثيراً . والظاهر أنه كان يعيش يومئذ في عزلة عن اقرانه ، وذلك حيث يقول « لقد كان أترابي من خريجي الجامعة لا هم لهم في غير المطعم والملبس . أما غير ذلك من دلائل الحياه فقد خلت منه جمعيتهم ، وأجذبت منه طينتهم . لله در تلك العيون المحملقة ! لقد كانت مع شدة تحديقها لا تبدى من التفكير بصيصاً . وكيف بالتفكير لمن هو كليل الحواس عن إدراك معالى الأمور وبواطنها ، وجلال الشئون ودقائقها . كل ما يستطيعه أن يستنشق خفي ريح الترقية مقبلة من أبعد البعد ؟ » ألا يجد القارىء في هذه الحكمة ما ينم عن مرارة الحفيظة المحتاجة ،

وتألم الكرامة المجروحة ؟ لا جرم أن هؤلاء الزملاء كانوا يسخرون من صاحبنا ومن غريب أطواره ، بل لعلمهم حاولوا أن يعضوه ، وأن يفعلوا ما هو أشد من ذلك استحالة : أن يحتقروه . والمؤكد على كل حال أن الثرى فيما بينهم وبينه كان لا يصلح لا نبات صداقة أو مودة . لقد انفصل الفتى عن سرب الجراء ، ولم يكن يُدرى بعد هل هو من أشبال الاسود أو من جراء الذئاب ؟ والظاهر أنه كان مفرط الحياء والكبرياء ، حتى الأنف أشم المعطس ، شديد الاعتداد باستقلاله وكرامته . ولم يلبث أولئك الوجهاء الذين كانوا يلحظون تقدمه في الجامعة أن تحولوا عنه ، وقطعوا كل أمل من استصلاحه لتلوّثه في نظرهم « بداء العبقرية » . وعلى هذا التصرف يحتج الاستاذ في الكلمة الآتية : « كأن الأعلى لا يتضمن الأدنى ، كأن الجهم الكثير لا يحتوى النزر اليسير ، كأن من يستطيع السبح في عنان السماء ، لا يستطيع السير على أديم الغبراء ! ولكن الدنيا عجوز خرقاء كانت تحسب كل درهم مذهب ديناراً خالصاً ، فلما طال عليها الغش نرعت ثقها من الدنانير جملة وأقسمت لا تتعامل بغير نقود النحاس »

ولعل القاريء يتساءل كيف استطاع هذا النابغة السماوى الطيار ، وقد رفض القوم قبوله بينهم كعامل ارضى سيار ، أن يظل سابحاً في الجو دون أن يختفى عن العيان ، ويذهب حيث ذهب القارطان ؟ وجوابنا على ذلك أن هذا لغز ليس له في هذا الخليط من الوثائق حل جلى . وسواء كان صاحبنا يستعين على العيش بأعطاء دروس خاصة ، أم بترجمة بعض المؤلفات القيمة ، فالمؤكد - كما يقول - أنه لم يقع فريسة الجوع ، بدليل بقاءه حتى اليوم في قيد الحياة . والظاهر أنه لم يكن صفر اليدين من النقود كما يستتبع من اشتغال

الوثائق على طائفة من قوائم الحساب لبعض الفنادق ، عثرنا بينها على
رقعتين وصلتا اليه يومئذ من بعض ذوى المقامات ، إحداهما إعتذار عن عدم
استطاعة كاتبها الوفاء بما وعده من المساعدة على الاشتغال بعمل يليق بنبوغه
ومستقبله ، والاخرى دعوة إلى حفلة شاي من الأسرة التي تحت اليها بالقرابة
هرت وجود زميله بالجامعة .

على هذا الوجه التهمى كان جواب استصراخه ، وتلبية استنجاهه :
كأس من سخيـف الشراب بدلا من غـذى الطعام الذى تلتوى من شدة الحاجة
اليه امعاؤه ، ودعوة الى حفلة سمر ومفاكهة بدلا من العمل الذى كادت
تصدأ من فرط الافتقار اليه اعضاؤه . وقد أجاب تيوفلسدروخ هذه الدعوة
ولكننا لا نستطيع الا من باب التخمين أن نتصور كيف كان موقفه ، وقد
بات مع الضرورة القاسية فى صراع ناشب ، وسط الحاضرين هنالك من هواة
الادب وعشاق الموسيقى من كلا الجنسين ، كأه أسد جائع دعى الى وليمة
عشبية بين ربرب من الأطباء والغزلان . لعله التزم الصمت ولم يخرج مخالفه
من اغمادها ، والآفا كبر الظن أن لم يعملها فى العشب بل فى الربرب .

ندع هذا جانبا ونستمع قول الاستاذ « . لقد كان العالم كله فى نظرى
لفزا هائلا كالغزبان الهول ، إما أن أفوز بفك طلاسمه وأما أن اقع فريسة
بين براثنه . وكانت الحياة لا تزال تنكشف لخاطرى عن روائعها وروائعها
عن أنوارها المتضرجة تتخلل غياهبها المدهمة . وكان فى نفسى تناقض غريب
لا أجد بعد الى حله سبيلا ، ولم أكن أدري أن الموسيقى الروحانية انما تنشأ
عن ائتلاف متنافر الانغام واتساق متباين الألحان ، وانه لولا الشر ما كان
الخير ، ولولا بشاعة المعركة ما كان جمال النصر »

ويقول الأستاذ في موضع آخر «سمعت بعض الناس يؤكدون (على سبيل المزاح طبعاً) انه لو كان من المستطاع اعتقال جميع الشبان من سن التاسعة عشرة في براميل تكفاً عليهم ، أو اخفائهم بأي طريقة أخرى ريحنا منهم ، حتى اذا بلغوا الخامسة والعشرين أخرجوا الى الدنيا أرجح أحلاماً وأرضن وقاراً ، لكان للناس في ذلك مزيد وافر من الصفاء والهناء . وغنى عن البيان أني لأوافق البتة على هذا الاقتراح كخطة عملية ، بيد أني أقول اذا كانت الفتاة تبلغ في شرح الشباب عنفوان الحسن والظرف والملاحة ، ففي ذلك الأوان يستوفي الفتى أقصى غايات الرذالة والسماجة والوقاحة . فبينما تراه أبله من الحباري واحمق من الطاووس ، اذا به أشره من العقاب حبا في الملاحى وشغفا بالذات ، قد نفخه التيه والكبر ، وملاه العجب والفخر ، وجمع به العناد والباء ، وتمادى به التبجح والادعاء ، فهو في جميع أموره متهوس أحمق ، متهور أخرق . ومن العجب العجيب ان ذلك الحدث المغرور الذي لم يبذل بعد جهدا ولم يحاول سعياً لا يعجبه من مساعى الغير شئ ، بل لا يزال يدعي لنفسه التفوق عليهم ، زاعماً انه لو كانت مساعيهم جديرة بهيمته لبلغ بها أوج الاعجاز وذروة الأتقان . ثم لا يفتأ يرى الحياة من الهنات الهيئات ، وانها من فرط البساطة أسهل من القاعدة الثلاثية ، ما عليك الا أن تضرب الحد الثانى فى الثالث ثم أن تقسم الحاصل على الحد الاول يكن خارج القسمة هو الجواب فان لم تحصل عليه فانت فى زعمه اجهل من دابة واحمق من بهيمة . بعداً له من غر مغفل ، لم تعلمه التجارب انه مهما يفعل فلن يبرح لديه كسر مشؤم ، يكون فى الغالب عشرياً دائراً ، وانه من العبث محاولة الحصول على ناتج صحيح ، بل من العبث التفكير فى ذلك !»

لا ريب أن تيو فاسد روخ كان في ذلك العهد يقاسى من الهموم والعراقل
 عناء شديدا ، والا فكيف يعلى قوله : « سنة الطبيعة لا مغير لها ولا مبدل ،
 وهى أن ماندعوه الوقت أو الدهر لا يزال يلتهم أبناءه ، لا منجاة لك منه الا
 بمواصلة العدو ، بمواصلة العمل ، سبعين عاما أو نحو ذلك . وحتى اذا فعلت
 لم تستطع فى النهاية الأفلات من قبضته . هل فى مقدور اى ملك ، أو اى
 تحالف مقدس من الملوك ، ان يأمرؤا الوقت بالوقوف ، وان يتحرروا من قيده
 ولو فى الوهم ؟ ألا ان الحياة الدنيا قائمة بحذاويرها على الوقت ، ومشيدة من عنصر
 الوقت ، وانما هى فى مجموعها حركة ودفعة من دفعات الوقت ، الوقت مصدرها
 والوقت مادتها . ومن ثم كان واجبا جميعا ان نتحرك ، أن نعمل - فى الاتجاه
 القويم . اليس ابداننا ، بل أرواحنا ، فى حركة مستمرة ، شتئا ذلك اولم
 نشأ ؟ اليس حياتنا كلها موجة قلقة بين جزر ومد ، بين فقد مستمر وتعويض
 مستمر ؟ اليس أوفى ما نستطيع بلوغه من إشباع مطالبنا الظاهرية والباطنية
 انما هو إشباع لأجل مسمى ، لوقت معلوم ، فهما تفعل لا يلبث أن يطيح
 به الوقت ، ويصبح بالنسبة اليها فى حكم المعلوم ، فلا تزال فى حاجة الى
 استئناف المضى والعمل من جديد ؟ أيها الوقت ! أيها الوقت ! كيف احطت بنا ،
 وسجنت أرواحنا ، وأغرقتنا فى أعماق أعماق لجتك المضطربة الحالكة ، حتى
 أمسينا لا نستطيع أن نختلس ولو لحظة من أوطاننا السماوية الا فى أحايين
 الأفارقة وما أندرها ؟ لقد كنت ، وأنا احد أبناء الوقت أشقى خطا من كثيرين
 سواى ، وكان الوقت يؤذن بالتهامى قبل الاوان ، فأنى مهما بذلت من
 المجهود ما كنت لأستطيع الى العدو بيلا ، من فرط ما بث فى طريقى من
 العقبات ومن ثقل ما علق بقدمى من الاصفاد . » لعل الاستاذ يقصد ، على

ما ترجح ، أن يقول باللغة المتعارفة بين أهل الدنيا ان الواجب كان يقضى عليه ، كما كان يقضى على سائر الناس ، بان يعمل ويسعى - في الاتجاه القويم ، ولكنه بعد طول البحث لم يجد عملاً ، فانقلب تعسا شقياً . ولا بدع ان يكون هذا مصير من لم يزل شبح الجوع المخوف ماثلاً على البعديهدده ، ومن كانت روحه الجياشة تعاني من القلق والبطالة نزعات الذبول والاحتضار

كالنار تأكل بعضها ان لم تجد ما تأكله

« وكنت حتى هذه الساعة معروفاً بين عشرائى وخطائى بالميل الى الدعة والسكون ، وكانوا يأخذون على ذلك الميل ، ويقولون انه بئس المعبر عن وجدانائى الملتزمة وعواطفى الحادة . والواقع انى كنت أنظر الى الناس بحب مفرط وخوف مفرط . ولا غرو فكل من يدرك من روعة الجلال السرمدى طرفاً جدير أن ينظر الى شخص الانسان بعين التقديس . وكان القوم كثيراً ما يوجهون الى اللوم ، وأحياناً يستشعرون لى البغض ، لما كانوا يحسبونهم فى جموداً وجفاءً ، ولما كنت قد اعتدته فى حديثى من لهجة تنم فى الظاهر عن تهكم وتهجم وان لم تكن فى الباطن الا درعا أعدتها لنفسى حتى يتسنى لشخصى الضعيف أن يعيش فى حماها . طمئنا آمناً ، موادعاً مسالماً ، لا تستفزه قوارص الغير ولا يستفز الغير بقوارصه . بيد انى قد عرفت الآن أن التهكم هو فى الجملة لغة الشيطان ، فاقلمت عنه وآليت أن لا أقربه . وكم من امرىء قد أثرت فى تلك الأيام حفيظته ، واجتمعت بلك اللهجة عداوته ! ان الكهل المتهكم ذا السكينة الماكرة والأساليب الخادعة لخلق بان يعد آفة المجتمع ، فكيف بالشاب الذى يستبدل خشونة التهكم بنعومة الغرارة ، وحرافة المكر بحلاوة السذاجة . أو لم نشاهد رجالاً من ذوى

الاقدار يتقدمون في رفق ووقار ، وصرادهم أن يطئوا بأرجلهم أحد هؤلاء
المتكلمين من الشبان ، وأن يطهروا المجلس من تلك الهناة الحقيرة والحشرة
المرذولة ، فلا يروعهم إلا انفجاره ، كأنه قنبلة أو طوربيد ، فاذا هم قد طاحوا في الجو
صعداً ثم خروا على الأرض صبيحاً ، مهشمي الجوارح ممزقي الأعصاب ،
ضائعي الرشده مفقودي الصواب ! »

ويلاه ! كيف يستطيع من له مثل هذا المزاج الشيطاني والطبع الناري
أن يمهّد لنفسه في الحياة سبيلاً ؟

الفصل الخامس

(عهد الغرام)

« وكذلك ظل الفتى في سبيل البحث عن العمل سنين طوالاً ينتظر
وينتظر ، ويعانى أبرخ الآلام من هم وضجر ، حتى خطر بباله ذات يوم : لماذا
كل هذا ؟ لأجل الخبز والدفع ! أو ليس في غير هذا المكان من أرض الله
ذات الطول والعرض ما يقوم باطعامك وادفائك ؟ لقد عقدت النية على
التجربة ، قضى الله ما قضى ! »

لقد اتيح لنا إذن أن نشاهد تيوفلسدروخ مستقلاً بنفسه في ظروف
جديدة . نعم لقد قضى الأمر ، فانفصل الفتى عن قافلة السفن حيث كان مكانه
المتخلف في المؤخرة لا يبعث على عظيم الرضى ، وأخذ الآن يمتدح عباب
اليم في طريق منفرد معتمداً على ما أوتي من هداية ومقدرة . ويل لك أيها

المخاطر المنكود ! لئن كنت لا تزال تبهرم بالقافلة ومهمتها ، وتسخط على ربانيتها ونوايتها أو لم تكن هي على كل حال تسبح في طريق معبدة لأغراض معينة ويتعاون أفرادها جميعاً أخذاً وعطاء وإرشاداً واستئناساً ؟ ماذا أنت اليوم صانع ، وأنى تسلك بمفردك في مجاهل الدماء ، ومهامة اللجة الخضراء ، بل كيف تهتدى الى الطريق المختصر لضالتك المنشودة من جزائر السعادة ؟ لا جرم أن تقع لمثل هذا الجواب الجوال ، المخاطر بنفسه بين المهالك والأهوال ، حوادث وعجائب واقفلة بالمرصاد . بل ها هو لا يكاد يخطو أول خطوة حتى تعترضه جزيرة مسحورة توقف تقدمه ، فتفسد عليه كل تدابير ، وتقلب مخطته رأساً على عقب .

« اذا كانت الحياة لا تزال تتكشف في ريعان الشباب عن محاسن بهجتها ، واذا كانت جنة الخلد لا تزال تتجلى الفتى على كل بقعة من الارض في مفاتن روعتها ، فان هذا التجلي لا يتم في صورة هي أسرع وأبرع منه في صورة الغادة الحسناء . لطالما قلت إن الانسان هو أبداً في نظر أخيه الانسان مهبط روح القدس ، وإن سرّاً إلهياً ليربط كل نفس الى أخواتها بروابط المحبة والأنس . بيد أن هذا التجاذب السماوي والتآلف الروحاني لا يصير ضراماً مشرقاً ، ولا ينبعث لهيباً متألقاً ، الا في هذا التقارب بين الجنس وضده ، كما يورى الشرر بين السالب والموجب . أفترى في استطاعتك أن لا تحفل حتى بأحقر انسان ؟ أليس من أحب آمالك أن تجعله وإياك شخصاً واحداً بأن تضمه إليك ولو بأسباب الرهبة إن لم يكن بدواعي المحبة ، أو ان تنضم أنت اليه اذا أعيتك الحيلة في جذبه الى نفسك . واذا كانت الحال كذلك بين العشاء والخلطاء فكيف بها في هذا التقارب بين الجنس وضده ! الا ان في هذا التقارب

اشرف ما يعرف في الارض من تآلف والتضام ، واسمى ما تطيقه الطبيعة البشرية من اتحاد وانضمام . نعم في هذا الوسط الموصل بين مختلف الجنسين ، كما في الوسط الموصل بين مختلف السلكين ، تشتعل نار الكهربائية الروحانية ، تلك التي يسرى تيارها السيل في انحاء الكون اجمع ، والتي ندعوها اذا هي انقذت بين الرجل والمرأة عاطفة الحب !

« وأكبر ظنى أنه مامن شاب الا وتشرق في مسرح خياله جنة قصية غناء ، وروضة قدسية فيحاء ، تخلع عليها حلة الأنس والبهاء ، حورية من من بنات حواء ، ويتراءى من خلال مسالكها الظليلة الوريقة ، ومن فروج خمائلها المنورة الأنيقة ، « شجرة المعرفة » مائلة في جلال وروعة ، وجمال ورقة . ولقد يزيد المنظر فتنة وحسنا لوقام على خفارته « ملاك حارس » وحال بينه وبين عابرة السبيل « حسام ملتهب » ، فيظل الفتى وكل ما يستطيعه أن يحظى بمتعة النظر دون الدخول ، ويتملى بنعمة المشاهدة دون الوصول . سقيت الغيث يا عهد الشباب والفضيلة ! إذ لا يزال الحياء ذلك الحجاب الالهي الممنوع ، وإذ قصور الامل وشرفاته الرفيعة لا تزال قائمة في جمالها المقدس ، لم تتضاءل ولم تدنس ، ولم تتكشف لا عيننا المفيقة ، عن حقير اكواخ الحقيقة ، واذا لا يزال الانسان بطبعه ذلك الكائن الطليق الحر ، لا تحده غاية ، ولا تحصره نهاية !

« أما صاحبنا الفتى البائس (يعنى نفسه بلا نزاع) فقد كان ، ولا يزال ، شعوره تلقاء مليكات الأرض مما يعجز الوصف عن تصويره . ولا عجب أن يكون هذا شأن امرىء أثر العزلة عن الخلق ، وأوتى مع ذلك خيالا توهجا ، لا يزيده احتراقه في الخفاء الا تأججاً . لقد كان يرى فهن لألاء

النور اللدني ساطعاً يخطف الأبصار، وكن جميعاً في نظره مقدسات روحانيات،
مطهرات سماويات، ولم يكن عهده بهن يتجاوز لهن لمحا وهن ينسبن
بجانبه انسياباً في رياشهن الملائكي المقتن التلاوين البديع التزاين، أو
وهن يحمن على أطراف حفلات الشاي بعيدات المنال، محفوفات بهالات
الجلال، كاهن هواء ونور، ونسيم وعبير، أرواح متفرقة، في صور متألقة،
فاتنات ساحرات، كأنهن كاهنات مهيبات، في أيديهن ذلك المعراج العجيب
يرقي عليه الفتى فينال أسباب السماء! هكذا كان شأن الحسان في نظره.
وما كان ليهجس في وهمه، وهو ذلك البائس المسكين، ان يوفق ذات
يوم الى الظفر باحداهن، بل كان مجرد سنوح هذا الخاطر يتركه وكأن الأرض
الفضاء به تدور، ولقد يخيل اليه انه لو تم ذلك لخر صمعا، وفاضت الروح
الى بارئها.

« وهكذا كان الفتى، على انكاره ماتو من العامة بوجوده من ملائكة
وشياطين، لا تزال تزوره أسراب من الاطيف السماوية، والأرواح العلوية
ترفف حواليه، على رأي من عينيه، ومسمع من أذنيه، أينما راح وحيثما
اغتنى. وكان يلحظها بعين غضيضة الطرف خشية وخشوعاً، وقلب خفاق
الجوانح تعبداً وخضوعاً. ولكن هب أن احدى أولئك الحسان المصورات
من نور وبهاء، المجسمات من شعاع وهواء، ألقت عليه من سواجي الحاضرها
نظرة مكهربة توحى الى قلبه (لا بأس عليك أيها المنزوي فقد أبيع لك
أنت أيضاً أن تحب وأن تحب) ترى اذن أي نار بركانية، قاصفة الرجفات،
ناسفة اللفحات، كانت تنقدح يومذاك وتندلع! »

والواقع أن مثل هذه النار، وما يتلوها من فرقعات وانفجارات، قد

شبت بالفعل في صدر هرديا جونيز ، وهل كان عن ذلك مندوحة ؟ لقد كان ذلك الصدر (وليعذرنا القارئ اذا نحن جارينا الاستاذ قليلا في أسلوبه المجازي) يحوى قدرا لا يستهان به من حر ووق الحدة ومن نترات الوجد ومن كبريات الدعاة ، وكل ذلك في مستقر حار ، على مقربة من فرن خيال ملتهب . فهل عجب أن يتألف من هذه العناصر الحامية ما يكفي لتكوين أجف نوع من البارود ، بل أقوى صنف من الديناميت ، حتى لا تكاد تقترب منه أدنى شرارة - وما الشرر بالنادر في هذه الحياة - حتى يتقد فينفجر .

نعم لم يكن ثمة شك في أن ملاكا من هذه الملائكة الحائمة حواليه ، المرفرفة على مرأى عينيه ، سوف يعتمد يوما من الايام الى الاقتراب من هذا الحامل المنزوى ، وهناك يشعل بنظرة من تلك النظرات السماوية الشاقبة نارا ما أخطر شأنها ! فطوبى له يومئذ لو تكشف امرها عن نار كنار السواريح تتعاقب انفجاراتها المأمونة في روتق بديع السناء ، ومنظر انيق المجتلى ، خلال الادوار المتوالية لحب فتى سعيد ، حتى تنفذ مادتها ، وتهمد جذوتها ، وتخرج الروح الفتية سليمة لم يصيبها اذى . أجل طوبى له لو ان الامر لم ينكشف عن حريق هائل وانفجار مروع ، عن نار تمزق اعشار الفؤاد كل ممزق ، وذلك هو الموت - أو تصدع الغشاء الرقيق « لفرن ذلك الخيال الملهب » فتندلع لواهبه وتظل تعيث مطلقة العنان فيما جاورها من المفرقات ، وذلك هو الجنون ، حتى لا يبقى من ذلك الهيكل البديع الرائع الا بقية رماد هاب ، أو فوهة بركان خاب .

وهكذا شاءت المقادير ان يقع فيلسوفنا في شرك الغرام ، وأن يصيبه جنون الحب المستعمر. فاحب حبا ملك عليه عقله ونهاه، واستهلك لبه وحجاء. ولكنها مرة واحدة ، مرة لم تعقبها ثانية . وكذلك شأن القلب الآدمي لا يستطيع ان يعرف الحب الصحيح ، الحب الصادق العميق ، الامر مرة واحدة.

وما كان للمرشفة الاولى من كأس الغرام ان تعادلها في الحلاوة رشفة أخرى . فلا عجب أن نرى الفيلسوف بعد هذه الحادثة الغرامية الفذة قد أغلق فؤاده دون دواعي الصباية، بل سد سمعه دون هوائف الغزل والدعابة، وبات يعتد النساء لا أكثر ولا أقل من طرف فنية بديعة ، لا بأس عليه اذا هو متع ناظره بمشاهدتها في المعارض ، ولكنه لا يفكر قط في اقتناء شيء منها في بيته.

وكأنني بالقارىء يتلهف شوقا الى معرفة ما أحاط بهذا الحادث من الظروف ، وما تضمن من التفاصيل ، وعلى الاخص باي المناسبات ولأي الاسباب كان التقاء العاشق بالمعشوق ، وكيف كان موقفهما في ذلك الملتقى. ولكن الفيلسوف، كعادته دائما ، يتركنا من هذا الامر في حيرة حيرة ، ويكتفى بإيراد هذه الكلمة الموجزة « لقد كتب في لوح القضاء ان يقاطع مدار كوكبها السماوى الاعلى مدار كوكبه الارضى الادنى ، وان يخیل اليه وقد أطل في أعماق الحاضاها الصافيات ان سبحت الانوار العليا ، قد هبطت الى مساحب الظلال السفلي ، حتى اذا انكشف له خطؤه أنشأ عملاً الدنيا عويلا ولجبا »

ولقد يظهر ان المعشوقة كانت فتاة في مقتبل الشباب وريعان الجمال من بيت نبيل ومحتد كريم ، ولكنها لم تكن من ذوات الثراء ، ولعلها كانت تعيش في كنف أقرباء لها من ذوى النشب والجاه : على اننا لا ندرى

كيف كان التقاؤه بها . ولعل الامر قد حدث من باب المصادفة . وحسب
القارىء ان يسمع من فم الاستاذ هذه الكلمة في وصف القصر الفاخر حيث
كانت تقيم الحسناء:

«أيها القصر النبيل! من ذا الذى مر بك في جمالك وروعتك، وحسبك
وهيبتك، الاحبس خطاه ووقف بين يديك متأملاً متعجباً؟ لكانى أراك
الساعة مائلاً هنالك في أحضان ذلك المدرج الجبلى العميق تحيط بك العزلة
الصافية، وتحنو عليك الظلال الضافية، وقد ارتفعت شواهدك شرفاتك المرمية،
وبوارج جدرانك الجرانيتية. تلمع في أشعة الشمس الراحلة، كانك من
قصور الفردوس بنيت بأجر النضار وغشيت بذوب الذهب . ويالله ما ميلح
تلك الروابي المشرفة عليك، والقلاع الحارسة لك، تنهض سفوحها الخضراء
متدرجة متموجة، قد اثرت بالعشب النضير، وترصعت بالحصباء والصخور،
وازدانت ههنا وههنا بايكات منفردات تبسط على الارض ظلها الظليل . إلى
أيها القصر لقد كنت لهذا الحائر المتجول كمعبد ممنون في صحراء حياته
المحرقة، وكنت تضم بين جدرانك لوح قضائه المحتوم قد جرى فيه القلم
بسعادته وشقائه، وسرائه وضرائه : فما كان أجدره بالوقوف والتأمل لو كان
يدرى ماخبأت له من عذاب ونعيم !»

وليتصور القارىء أن صاحبنا الفيلسوف دعى الى حفلة شاي بهذا القصر
فدخل في حديثه، فالى نفسه في مجلس زاهر قد ضم جماعة من صفوة
الفتيات والفتيان، يتجاذبون أحاسن الحديث ويستمعون أطايب الألحان
والظاهر ان الحديقة لم تكن دون القصر بهجة وبهاء، ورونقا وسناء، وذلك
حيث يقول الاستاذ : -

« تحت ناضر الايك وأثيث الاغصان ، وبين عاطر الزهر وعبق
الريحان ، كان يجلس أولئك الاماجد يروقههم من بدائع الالوان كل مجلى أنيق ،
وتحييهم من نوافج الانوار أمثال نفحات المسك الفتيق ، وتراءى لهم من
خلال الابواب المفتحة مناظر يرود فيها الطرف ويمرح ، وترتع فيها العين
وتسرح ، من خمائل غناء ، ورياض لفاء ، ومروج خضراء ، وسيوح زرقاء ،
وكل شىء هنالك قد أشرقت ديباجته. وانجلى صفحته ، وترقرق مأوه ، وتألّق
لألآؤه ، وقد ارتفعت من كل صوب وناحية تغاريد الطيور فرحة طربى ،
وأراين الهوام سعيدة جذلى ، حتى لكأن الانسان قد اختلس من الدهر
ساعة هنيئة ، واسترق من الحوادث لحظة بريئة ، وآوى الى أحضان السعادة
مستقرا من صدرها فى مكان أثير ، ومضطجع وثير .

« وما هى الا لحظة حتى قدم صاحبنا الى القوم وفيهم - بلومين ! وكانت
جالسة فى تواضع رقتها ، ومهابة روعتها ، بين اترابها وصواحبها كالسكوكب
الوهاج بين مصاييح الثرى ، فتقدم اليها منحنيا بجسمه وروحه ، لا يكاد يجرأ
على رفع بصره الفضيض ، لفرط ماشاع فى قلبه من ارتباك مستلذ واضطراب
مستعذب .

« وما كان اسم هذه الحسناء بالجديد على مسمعه . لقد سار ذكرها فى كل
ناد ومحفل ، ولهج بوصفها كل لسان ومقول ، فمن متحدث عما أوتيت من
محاسن وهبات ، ومن متندر بما ركب فى طبعها من اهواء ونزوات .
فكان صاحبنا قد صور لنفسه من الوان هذه الاشاعات الغامضة ، مدحا
كانت أم قدحا ، ثناء كانت أم نقدا ، صورة رائعة ، أخاذة بمجامع الافئدة ،
تملاً الجنان رهبة وخشوعا . وكان قد رأى شخصها من قبل رأى العين فى

منتديات المدينة ومحافلها ، فشاهد ذلك القوام الالهيف المهيّب ، وتلك الغدائر
الوحفة الفاحمة ، تظلل وجها تلعب فيه الضحكات والانوار ، على متن اعماق
سحيفة من الجد والوقار . بيد أن هذا كله كان يتراءى له كتهابويل السحر
واضغات الاحلام ، لاسيما الى ادراكه ، بل لاحقيقة لوجوده . نعم لقد كانت
الشمس في بيت عزها ادنى اليه منالاً ، واسهل عليه مراما ، فما كان ليهب جس
بوهمه أن يلتقي بها ولو في العمر مرة ، وما كان ليسمو بأمله الى أن يخطر ذكره
على بالها خطرة ! ولكن هكذا شاءت الاقدار ، فاذا به الساعة جالس واياها
في حلقة واحدة ، ان بسمت شملته أنوار بسمتها ؛ وان لفظت وقع في اذنه
رين لفظتها . ثم اذا كانت الشمس وهي في سماء مجدها لا تستنكف أن تطل
في أحط الوديان ، وأوضع القيعان ، فمن ذا الذي يدري لعل هذه الحسناء كانت
قد لاحظت قبل اليوم هذا الحامل المغمور ، ولعلها سمعت من أفواه حاسديه
وشائثيه ، كما سمع هو من أفواه حاسديها وشائثيها ، ما أثار عجبها منه وأعجابها
به . ترى اذن هل كان التجاذب مشتركا ، وثوران العواطف متبادلا ، هل كان
القبطان المختلفان يرعشان وقد أدنى أحدهما من الآخر حنيا الى العناق ، ويهتران
شوقا الى الالتصاق ؟ أو قل هل كان القلب يجيش جيشانا في حضرة مليكة
القلوب ، كما يجيش صدر البحر اذا هو اقترب من مدار القمر ؟ نعم لقد كان هذا
شأن صاحبنا ، لقد أحس كأنما قد لمست له لمسة من عصا السحر ، فاذا بروحه
قد ثارت من اعماق مكانها ، واذا بكل ما هنالك من لذة والم ، ونعيم وعذاب ،
وذكريات غامضة لكل غابر ماض ، واحساسات مبهمّة بكل قادم آت ،
تصطفق وتشور ، وتلتطم وتمور ، في أمواج زخرات ، ودوامات دائرات .
« وإطالما كان صاحبنا قد شهد قبل هذا الموقف مواقف أقل إثارة

للعواطف ، فكان يعرف فيها تهيب وانقباض ، وكان يبادر الى إخفاء اضطرابه وارتباكه وراء ستر صفيق من السكوت ، بل خلف حجاب كثيف من الجلود . فاماذا إذن ، وقد راح في هذا الموقف ينتفض من أعماق سريره ، لم يسقط في مصرع الانغماء ، بل جعل يصعد في معارج القوة والشجاعة والبيان ؟ لا جرم إن شيطانه قد هتف به حينذاك ان أبرز من مكنك ولاق ما ساقه لك الحظ ، هذه ساعة الاقدام فاما أن تظهر وإما أن تتوارى آخر الدهر ! وكذلك تأتي على الانسان أحيان يبلغ فيها وجده من الطغيان مبلغاً يستفز الروح من رقدتها ، حتى تشعر لأول مرة انها تفوق هذا الوجد بطشاً وقوة ، فاذا هي قد ظهرت عليه وسمت عنه تحملها أجنحة النصر في هالة الفوز ، وتسبح بها سبجاً مفرط الهدوء من شدة إسرعه ، مفرط اللين من شدة اندفاعه . وان صاحبنا ليذكر بمزيد الدهش والارتياح كيف كان اذ ذاك لا يلتزم الصمت كعادته ، بل ينغمس في تيار الحديث بلباقة ، فاذا هو قد قبض على ناصيته يصرف كيف شاء زمامه . لا ريب أن وحياً من السماء كان ينزل عليه في تلك الساعات يلهمه الحكمة والصواب ، وينطق على لسانه بفصل الخطاب ، فتظل نفسه المطوية تنشر مكنون خواطرها في معنى جليل ، ولفظ نبيل ، وعبرة مشرقة بهية ، وديباجة مصقولة طلية ، وتعود روحه وكأنها بحر من النور يتلألاً ، هو مقر الحق ومنبع الحجى ، تطلع من جوفه أطياف الخيال صورة أثر صورة ، في وشى بديع التلاوين ، ورونق باهر التحاسين »

والظاهر ان بعض المتقربين كان يعكر صفاء المجلس بوابل من حديثه المملول ، غير دار أي بطل مخيف قد أقبل الساعة ليزعزع أركانه ويهدم كيانه بما جعل يصوب عليه من نكات لاذعة ، وتهكمات قارعة ، لم تلبث ان أغرته

بالصمت أولاً ، ثم لم تتركه حتى حملته على الانسحاب أخيراً . وذلك حيث يقول صاحبنا « ولقد كان انخزال ذلك اللجوج المماحك مدعاة ارتياح الحاضرين ، ولكن أى قيمة كانت لمستطاب ثنائهم ومستعذب إطرأهم بجانب تلك الابتسامة الحلوّة الجذلى التي كافأت بها الحسناء هذا البطل المنتصر على جميل صنيعه وحسن بلائه ؟ لقد جرأته هذه الابتسامة على توجيه الخطاب إليها ، فأقبلت عليه والتفتت إليه بل ليت شعري أكان في ذلك الصوت الرنان رعشة خفيفة ، وهل كانت حمرة الشفق تخفى على ذلك الخلد الأسيل خجلة طفيفة ! » ثم اتجه تيار الحديث الى مناح سامية ، في معرض من المعاني بديع ، حيث المعنى يبعث المعنى ، والفكرة تقدح الفكرة . وكانت لحظة من تكام اللحظات النادرة إذ تتفتح أغلاق النفوس ، ويشعر الانسان بأنه اقترب من أخيه الانسان . وكذلك ظلت كؤوس الأحاديث تدور على المجلس مشعشة رائقة ، نيرة صافية ، وقد ارتحل عن كل صدر همه ، وانزاح عن كل قلب عبؤه ، وذابت حواجز الكلفة فتمازجت النفوس ، وتلاشت حوائل الانقباض فتعانقت القلوب ، وتراءت الحياة على مدى البصر مفتنة الألوان ، منسقة النظام ، كأنها قطعة من الفردوس ليس فيها لغير الحب سلطان ! مثل هذه الموسيقى خليقة أن ترن في جوانب النفوس الكريمة متى طاب لها الزمان والمكان . بيد أنه ما كاد الضوء يترقرق على رؤس الرعان ، والظلال تستطيل في بطون الوديان ، حتى دب في كل قلب ديب من الحزن والشجى ، وتمشت في الجوانح وسوسة تذكر كل امرئ بأنه كما يوشك هذا اليوم المشرق البهى أن يفضى الى غايته من ظلمة وسكون ، كذلك يوم الحياة لا محالة صائر الى الاضمحلال فالزوال ، وكذلك هموم الانسان وأراحه ، وأفراحه وأثرأحه ،

لا محالة مفضية الى ظلمة القبر وسكون الأبدية .

« وكانت الساعات تمر على صاحبنا صر اللحظات ، لفرط شعوره بالسعادة والطهارة ، وكانت الالفاظ تهبط عليه من تينك الشفتين الحلويتين كما يتساقط الندى على العشب الظمان ، وظل يخيل اليه ان كل ما فيه من كريم العواطف وشريف الوجدانات راح يهمس في أذنه « طوبى لك فقد طبت مجلساً وكرمت مقاماً » ولما نهضوا للوداع اذا بيد الحسناء في يده ، وكان الجو يعبق بأنفاس الغسق ، والنجوم الوديدة تلوح في الأفق ، فطلب اليها معاودة اللقاء ، فلم يقابل طلبه برفض أو إباء ، ثم صغط في رفق تلك الأنامل الرخصة الناعمة ، نخيل اليه انها لم تسحب من يده بسرعة ، ولم تنتزع من قبضته بعنف »

وارحمنا لك أيها المسكين ! لم يبق شك في ان السهم اصمى فؤادك ، وان مليكة القلوب قد اعترمت ان ترى بين صرعاها رجلا من ذوى العبقرية فالقت عليك من شباك سحرها ما غادرك موثقاً اسيراً . وهنا يقول الفيلسوف « ليس الحب كله ضرباً من الخبل ، وان كان يشبهه في كثير من الوجوه . والاولى عندي ان يقال انه اكتشاف غير المحدود في نطاق المحدود ، اكتشاف الكمال الخيالى في شخص الواقع الحقيقى . وهذا الاكتشاف بدوره قد يكون صادقاً أو كاذباً ، قد يكون ملائكياً أو شيطانياً ، قد يكون الهاماً أو جنوناً . بيد انه في كلا الحالين لا يخلو من عنصر الوهم ، الوهم الذى يتخذ من الواقع الحقيقى المحدود . نقطة ارتكاز لرافعته الارخميدية ، فيحرك بها عالم الروحانيات غير المحدود . والحقيقة ان الوهم في حياة الانسان باب جنة وباب سعى ، وما خيالاتنا الحسية الا مسروراً مؤقتاً صغيراً ينصب عليه من هذين البابين سيلان عزيزان من الموترات ، يمثلان هنالك ما يمثلان من المبكيات المضحكات . ولو كان الامر

مقصورا على الحس لوجد المرء في الكفاف رضاه ، وفي شظف العيش هناءه
ومناه ، ولكن سلط عليه الوهم ، وهو لا ينفع له غلة ولو استولى على أبراج السماء
وامتلك ناصية الجوزاء. الا ترى الى يروس كيف دوخ الامصار ، وفتح الاقطار ،
وهو مع ذلك لا يحتسى من قاني الشراب خيراً مما كان يحتسى ؟ « بل قل الا ترى
اليك ايها المسكين كيف رحت تحلق في سماء الخيال ، وتشرف على حافة الجنون
والخبال ، كافا وهياما بفاتنتك الحسناء كأنما ليس في الارض غيرها من الحسان
الفاتنات ! »

والظاهر انه كان يلتقي بها في المدينة كثيراً ، وذلك حيث يقول « وكذلك
مر اليوم أثر اليوم وشمس فؤاده المشرقة تغمره بضياءها ، وتخلع عليه من بهائمها .
يا لله ! لقد كان منذ لحظة واحدة يتخبط في حالك الظلام ، ولا يطمع من الحسان في
نظرة عطف بله في نظرة غرام ، وكان ضعيف الايمان بكل شيء حتى بنفسه ،
وكان لعزله وأزوائه ، وبأوه وكبريائه ، مع تعرضه لهجمات الهموم
والاشجان ، والوساوس والاحزان ، قد أمسى طامخاً بالغم والغيظ قلبه ، منقطعاً من اعز
ما رُب الحياة امله . فكيف حالت به الحال وكيف أصبح اليوم ! لقد أصبح يحدث
نفسه : أنها تلحظني بنظراتها ، فما أسعدني بان اكون موضع الرعاية من
اجمل ذوات الحسن ، وأنبل ذوات النبل ، الا تناجيني عيونها السوداء لا بأس
عليك فما أنت بمحتقر ! الا فرعاه الله من رسول رحمة وعزاء ، وبشير نجا ونعما
وكذلك ظل الفتى تفيض في قلبه انعام وخيمة ، وتهفو في صدره نفحات كريمة
تحدثه بان هو أيضاً انسان من صلب آدم وحواء ، وبانه هو أيضاً قد أعد له مالا
اذن سمعت من غبطة وسراء

« وسط هذه المؤثرات من حديث كالسحر الحلال بين جد وفكاهات ،

تسمى القلوب ساجيات، وضحكات كنبرات الالحان صافيات، وعبرات كاللؤلؤ
 الرطب مترقرقات، يمازج كل هذا من الموسيقى صوتها الاعجم الفصيح، وغناؤها
 المعنى المريح - ظل صاحبنا في هذا العهد السعيد يغدو ويروح. نعم لقد حالت
 الحياة، فاذا هي فجر مختلف الالوان ساطع السنا، وإذا بابرع شمس الجمال تغازل
 صاحبنا الفتى، فاضحى يطالع في نورها البهى سفر الطبيعة المجيد، وظل يضاحكه
 من مشرقات الاماني كل أمل جديد. لاك الله أيتها الحسناء! هل كنت الا ك بعض
 كواكب السماء، نار كلها رفيقة كالماء، وشعاع خضيل اللاء؟ هل كان فيك
 حتى من العيوب والنزوات، الا ما كان في نظر الفتى محاسن وملاحظات؟ أو لم
 تطامع عليه كنجمة الصباح الاسنى، تستنزل أطيب الالحان من الملاء الأعلى، فاذا
 أنغام سماوية، كالتى تثيرها أنامل ذكاء الوردية، من تمثال ممنون في البرية، ترن حو اليه
 وعلا أذنيه، وتمهد تحته فراشا من الراحة وثيرا، حتى تغادره في أحضان
 السعادة ضجيجا، قد انهزمت بين يديه جيوش الشك والهموم، وأزلقت له
 جنات الآمال والنعيم؟ اذن لقد كان حاملا مزعجا كل هذا الماضى، واذن
 لقد كان الفتى يعيش في جنة الخلد وهو غير مادارى. فما هو الا أن التقى بهذه
 الحسناء، حتى انجالت عن عينه غشاوة السحر السوداء، فاذا بجدران سجنه
 المكروب، ثمات وتذوب، وإذا بالاسير الموثق، حي يرزق، بل حر مطلق.
 فياليت شعرى أ كان الاسير يستشعر لمعتقدته حبا وغراما، ولوعة وهياما؟
 لقد كان يشعر بان قلبه ومهيجته، وحياته وسعادته، كل ذلك ملك لها، وفداء
 مستعذب في سبيلها، ولكنها ما كان يجرأ على تسمية الامر حبا. ولا غرو فقد كانت
 حياته كلها عاطفة مبهمه، لم تبرز بعد في صورة فكرة يئنة.

نعم ولـكن بروزها الى حيز الافكار ، بل حيز الأفعال كان أمراً لا بد منه. فما كان عتيق ولا معتقة ، وكلاهما من أبناء الزمان ، ليستطيعا العيش على مجرد العاطفة والوجدان . والظاهر ان الفيلسوف لا يزال حتى الساعة حيران لا يدري « كيف استطاعت هذه الحسنة أن تجذب في قلبها اللين الرقيق ، وصدرها الحنون الرفيق ، من قوة العزم ومضاء الصريخة ، مما مكنها من قطع هاتيك الصلات المباركة الكريمة . ويحك أيها الاستاذ ان الامر لا أوضح من ان يحتاج الى بيان ، فحسبك ان تسأل نفسك قائلاً : « هب ان الامر قدر على ما كنت أشتهي ، ففي أية مكانة كانت تنزل ، وفي أي مظهر كانت تبدو ، مدام تيوفلسدروخ بين طبقات المجتمع الراقية ، ودوائره العالية ؟ » أم هل كنت تحسب ان حرارة الحب في الصدور ، تغني عن حرارة الاطعمة في القدور ؟ أما والله لقد أثبتت حسنائك يوم آثرت عليك من هو أوسع منك جاهاً وأوفر نشباً ، انها أصدق منك فلسفة وأثقب نظراً !

لقد شهد القارىء كيف نشأ هذا الغرام ونما ، وجعل يرقى في رونق بديع المجتلى ، حتى بلغ ذروة السعادة والهنا . فليعذرنا اذا نحن الآن أمسكنا عن وصف مصرعه الوشيك في حضيض الشقاء ، وانكساره الوحي في هاوية الظلماء . لقد رأينا الانطاد المونق البهيج ينهض من الغبراء ، ويختال صاعداً في الهواء ، ويشق أجواز الفضاء ، حتى بلغ عنان السماء . فماذا ننتظر أن نرى وقد انفجر اما بهامل طبيعى أو لحادث عرضي ، فهو ممزق الاشلاء كل ممزق ، مفرق الاوصال كل مفرق ؟ كلا ماللقارىء من فائدة في وصف هذه المناظر الموحجة ، بل حسبنا أن نلقى لمحة على الفصل الاخير من المأساة : « في ذات شارقة وجد الفتى نجمة صاحبه قائمة كدراء ، محمرة غبراء .

لقد كانت الفتاة واجهة ذاهلة قريحة الآفاق ، دامعة الاحداق . ويلاه ! ماهي اليوم بنجم صباح ، يهدي الامل والانشراح ، ولكن شهاب منذر ، باقتراب الساعة ودنو المحشر . وقالت بصوت يتهدج : «الوداع الوداع فلا لقاء بعد اليوم» اذن لقد وقمت الصاعقة ، فلنترك كل ما أبدى في ذلك الموقف من تضرعات لهفي ، وتوسلات ولهي ، وغضب متفزز ، وحنق متميز ، فقد ذهب كله أدراج الريح ، ولنسرع الى الخاتمة - « وقال الفتى بصوت ينم عن تجلد وأنفة ، لان كرامته المجروحة أسعفته في آخر لحظة : « الوداع اذن أيتها السيدة » فوضعت يدها في يده وأنشأت تتأمل في محياه ، فما راعه الا تفجر مقلتيها بصيب من الدمع هتان ، فلم يشعر الا وقد اندفع اليها يضمها الى صدره ضمة تعانق فيها القلبان ، ونازجت المهجتان ، كما يتمازج من الندى قطرتان - ضمة كانت هي الاولى والأخيرة ، هي الفاتحة والختام » ثم ماذا ؟ نعم « ثم أسدلت على روحه استار الليل الكثيفة ، وأرخت حوله سجوف الغياهب المخيفة ، وارتفعت من كل صوب وناحية ، دمامم الزلازل الداوية ، وبات بين أطلال الوجود الخرية ، يهوى هوى في ظلمات أغوار الهاوية »

الفصل السادس

أحزان تيوفلسدروخ

مازلنا نشعر بان صاحبنا الفيلسوف رجل نسيب وحنو في أخلاقه وخصاله ، غريب الشأن في أطواره وأحواله . وانه لا يماثل أحدا في طبع أو مزاج ، ولا يجارى مخلوقا في مسلك أو منهج . ولو كان كسائر الناس ، لأخذ وقد غشيته غاشية الياس ، فيما يأخذ فيه كل عاشق منكود من تخطيط وصرع

وجنون ، ولدم ترائب وضرب جبين ، وتحطيم أدوات ، وقذف لعنات ، ونظم
أشعار ، ومحاولة انتحار .

ولكن شيئاً من ذلك لم يكن . بل نرى صاحبنا وقد سوى حسابه
القديم ، ودفن في أعماق الصدر همه المقعد المقيم ، يتناول عصا الترحال ،
ويشرع حول الأرض في تطواف وتجوّال . فإن تعجب فاعجب لا تتلاف
مأهده نافية من حدة الإدراك وتوقد الوجدان ، مع هذا المظهر المدهش من
رباطة الجأش وثبات الجنان . لقد عرضت له الحسناء الساحرة ، فساطت
عليه من نقشاتها الماهرة ، مافتح أغلاق فؤاده المختوم ، فاذا كل ما فيه من
مخبوء ومكتوم ، يندفع ويتهزم ، كالجنى المنبعث من القمقم - ولكن
ما كاد تيار السحر ينبس حتى انغلقت خزانة الفؤاد ، ولعله لم يبق لها
في الوجود مقلاد ، لان تجربة الحب ما كانت في حياة صاحبنا لتعاد .

وأعجب من ذلك انه ما كاد يفرغ من هذا الحادث المفتت للقلوب
حتى راح يعتده أمراً طبيعياً ، وحدثاً عادياً ، لا يستحق أن يذكر عنه شيئاً .
وان ذكره فبأمثال الملاحظات الآتية : « لقد لاح في أفق الفتى ملاك شام في
عينيه بريق الأمل الأعلى ، فاذا هو قد أخرجه من ظلمة الموت الى نور الحياة .
ولكن ما هي الالحة الطرف حتى غشيت وجهه الملاك سحابة من وميض
الجحيم ، فاذا الزوابع الهوجاء تعصف بصاحبنا وتلوى ، واذا بقهقهة الآبالسة
تصل في أذنه وتدوى ! » وفي موضع آخر يقول : « ما كان هذا الغرام الا دواراً
كالذي يعترى راكب اليم ، فيخيل له لجائل الغناء ، فيقفار اللجة الخضراء -
أمل من الغرور كذوب ، وسراب من الباطل خداع ! »

كذلك مضى صاحبنا لطيته ، وقد أخفى ما يتلظى في صدره من نيران

الوجد والكمد ، تحت ستار صفيق من الصمت والجلد ، يبدو لرأيه مثال
الدعة والسكون ، أو يتحدث لمحدثيه عن كل عادي من الشئون ، فلا يكاد يمر
في خاطر الناظر اليه أن جحافل من الآلام تصطرع تحت هذه السكينة ، وأن
جميعاً من الأبراح يفور وراء هذه الطمأنينة ، اللهم الا من خلال النظرة ،
تبرق في عينه الفترة بعد الفترة ، فلا يدري إن كان هذا البريق لآلئ دمة
متفرقة ، أو شواظ لوعة متحرقة . وإنا لنذكر هنا ، اعترافاً منا لكل ذي
فضل بفضله ، أن اقتدار المرء على أن يحرق بين الضلوع مادة أشجانه ، كما
يفعل بعض المداخن بدخانه ، هو فضيلة وإن تكن سلبية ، الا أنها من أجل
الفضائل شأناً ، وأندرها في عصرنا هذا وجوداً .

بيد أنا لا ننكر أن الطريقة التي لجأ اليها الفتى من الضرب في مناكب
الآفاق لا تخلو من مسحة جنون ومس ، فقد أخذ يعتسف مجاهل الغبراء ،
ويتجشم العناء والوعناء ، على غير خطة مرسومة ، وإلى غير غاية معلومة ،
رائده الوحيد قلق هائم ، وقائده الفذ ضجر مستحكم . وانك لتجد في وصفه
لهذا العهد من حياته من فرط التشويش والاختلاط ، والارتباك والاختباط ،
ما يصور حالته النفسية يومذاك أصدق صورة ، وما يغادرنا نحن من معالجة
مهمتنا في أضل حيرة . على أنا باذلون جهدنا في استخلاص ما نستطيع استخلاصه
من هذه الفوضى .

فمن ذلك مثلاً أنا نجد العبارة الآتية ، بلا مقدمة ولا تمهيد : « شعور غريب
ذلك الذي يعتري المسافر ، وقد ارتقى قمة من القمم ، فإذا به يرى في بطن الوادي
بين الحمايل والبساتين ، وفي أحضان المعازل الطبيعية والحصون ، مدينة من
المدن ، متضائلة على البعد كأنها صندوق من اللعب . عندئذ يخيّل إلى الرأي

أن برج الكنيسة الذاهب في الهواء إن هو إلا أصبع مرفوعة ، وإن ذلك السرادق المنعقد من الدخان إن هو إلا أنفاس الحياة . وكذلك النفس الآدمية لا تزال تخلع من وحدتها ثوباً من الوحدة على كل شيء ترنو إليه بعين المحبة ، فترى المدينة الحافلة ، وهي في ذاتها مجموعة من عديد الكواخ والقصور ، تبدو لنا كأنها وحدة مندمجة ، بل كأنها شخص حي . ولكن ما هذا الشعور بجانب ما ينضم إليه من آلاف الخواطر ، إذا كانت هذه المدينة موطن أفراح لنا وأحزان ، ومراد لذات لنا وأشجان ، إذا كان المهد الذي ترجعنا فيه لا يزال قائماً هنالك ، وإذا كان أحبائنا الأحياء لا يزالون بينا كنفها يغدون ويروحون ، وأحبائنا الأموات في مضاجع تراها ينامون « أترى صاحبنا وهو في فاتحة تجواله قد عاج بدافع الغريزة تلقاء مسقط رأسه ، شأن كل طريد شريد ، فألقى إليه نظرة على البعد ، حتى إذا تذكر أنه لن يجد هنالك معونة انصرف هائماً على وجهه ؟

والظاهر أن متجهه كان بعدئذ إلى قفار الطبيعة كأنما راح يبتغي في أحضان هذه الأم الرؤوم شفاء لأراحه ، وبلسم لجراحه ، وذلك حيث يقول : « لم يكن ذلك أول عهده بالجمال . بيد أنه قلما رؤيت الجبال ، وقد اقترن فيها الجمال بالجلال ، كما في هذا المكان ، حيث الصخور مرصوفة منضدة طبقات فوقها طبقات ، وهضبات من دونها هضبات ، في جفاء شكل وغلظة منظر ، ولكنه جفاء تطفه من النضارة رقة غريبة ، وغلظة تمازجها من الغضارة رشاقة عجيبة ، فترى الصخرة الفبراء في هذا المناخ الخصب ، تطلع من تحت بساط الكلا القشيب ، في برودة سندسية ، وترى الكواخ البيضاء ، في ظلال الأشجار اللفاء ، تجتمع كالعناقيد حول الجلامد السرمدية .



وهكذا تتعاقب الخلاوة والجزالة ، وتتناوب اللطافة والفضامة ، فيسير السائح على جواده في معابر مطردة خلال مخارم وفجاج ، تخترقها جداول متدافعة الأمواج ، وتكتنفها جدران من الصخر كالأبراج ، فأنامير متمعجا بين فجوات مربدة فاعرة ، وأفناد من الجلمد الكالح متناثرة ، وأنا يطلمع على واد ناضر ريان ، قد التقت في ساحته الجداول والغدران ، فتألفت منها بحيرة فسيحة الرحاب ، على ضفافها الرطاب ، وجد الانسان مسكناً جميلاً ، وعيشاً رغداً وظلاً ظليلاً ، فكان السلام قد استقر في أحضان البأس ، وكان النعيم قد سكن في حمى القوة .

« ولكن هل يستطيع ابن الأيام ، أن يتطلع في دوامة هذه الحياة الى السلام ، وبخاصة اذا كان له من الماضي شبح مزعج لزام ، واذا كان المستقبل بأجمعه دجنة حمة الأشباح مرعبة الظلام ؟ كلا . بل لقد كان جديراً بالسائح الشريد أن يخاطب نفسه (أو لم تغلق أبواب السعادة في وجهك حتى لقاء المنون ، وهل جال بخاطرك أمل ليس بطائش مجنون ؟) ولكن تقدم ، فلقد قال حكيم الأغريق : (من استطاع أن يرى الموت بعينه ، فلن يحفل من رؤية الخيال)

« عن هذه الأفكار وأمثالها من السوانح ، ينصرف ذهن السائح ، لأن الوادي ينتهي بفتة ، في هذه البقعة ، حيث يقاطعه طود مشمخر الافناد ، لا سبيل الى ارتقاء ثنيته على صهوة الجواد . فما يكاد يصل مترجلاً الى قمته حتى يرى نفسه قد ارتفع مرة أخرى الى ضوء الأصيل ، في منظر عجب ومسرح جليل : نجد واسع الاكفاف ، مترامى الأطراف ، تنحدر عنه المسابيل والغدران ، وتتفرع منه الشعاب والوديان ، فتنصب في كل ناحية من الافق

انصبابا ، أو تنساب على المهمل انسيابا ، ثم ترى تحت قدميك سلاسل الجبال
متراكبة الطبقات ، متراكمة الهضبات ، قد نجمت من هنا وهناك غانها السماء ،
كأنها تشرف على بطيحة ملساء ، ولاحت بين ثناياها البحيرات صافيات
الجمام في وهادها المطمئنة ، باردات النطاف في عزلتها المستكنة . وقد خلا
المكان ، من كل أثر للانسان ، اللهم الا أن كان هو الذي مهد ذلك الطريق
النافذ في صميم الصخر ، المقتسم لهذا الوعر ، كما يصل العلائق بين أطراف
البلاد ، ويعقد الروابط بين أشتات العباد . ولكن عد عن هذا وول وجهك
شطر مغرب الشمس ! فأية بهجة هنالك وبهاء ، وأية روعة ورواء ! يا لله كيف
تذهب تلك القنن في أعالي الفضاء ، وتسمو الى عنان السماء ، كأنها اكليل
هذا الاقليم الجبلى ، ومركز الدائرة لهذا المدرج الصخرى ! مئات ومئات من
القمم الوحشية تبدو لعينك فى أخريات ضوء الأصيل وهى تتوهج وتألق
كأنما سال على جوانبها ذوب العقيان ، وفاضت على معاطفها حلال الارجوان ،
مائلة هنالك فى البداء كأنها عمارها الجبارة ، وملوكها العماقة ، وقائمة فى
جلال الصمت والعزلة لا فرق بين منظرها فى هذه العشية الساجية ،
ومنظرها ساعة انحسر عنها الطوفان فى السنين الخالية . وكان فى هذا المشهد
المتجلى لعين السائح بغتة ، من روائع الحسن وروائع الهيبة ، ما جعله يحقق
اليه بنظرة كلها اعجاب وطرب ، بل حنين ووله . والحق انه ما كان يدري
حتى الساعة ان الطبيعة كائن حى ، وانها أمه الرؤوم وأنها مظهر إلهى ! وبينما
كانت حمرة الشفق القانية ، تستحيل الى زرقة السماء الصافية ، وقد توارت
الشمس بالحجاب ، واربدت حواشي السحاب ، أحس السائح همسا نديا ،
خفيا خفيا ، كأنه همس الأبدية والانهاية ، وكأنه حفيف الموت والحياة ،

ينساب في أعماق روحه ، ويسرى في شعاب نفسه ، فاذا به يشعر كأن الموت والحياة سيان ، وكأن الأرض ليست جثة هامدة ، وكأن روح الأرض قد استوت على عرشها البهى ، فجعلت روحه تنأججها في ذلك الرويق السنى .

« وما لبث الا قليلا حتى انجلت ذهبية النشوة بصوت عجلات قادمة . فالتفت السائح ، فاذا عربات فاخرات ، تجرها صافنات مطهومات ، طالعة من الشمال متجهة الى الجنوب . وكانت مزدانة بالزهر والريحان ، وكل الدلائل تشير الى أن وسطاهن تحمل زوجين على وشك الاقتران . فطوبى لهذين السعידين ! لقد وجد كل منهما أخاه وهذه ليلة قرانهما ! وما هى اللحظة حتى اقتربت منى عربة العروسين ، فيالله ماذا أرى ! الهرتوجود وبجانبه ... من ؟ بلومين ! وحيانى الزوجان تحية يسيرة كتحية المتجاهل ومضيا لشأنهما ، واختفى الموكب في ظلال الخائل وبطون الوديان ! الى أين ؟ الى الهناء والنعماء ! الى الحياة المشرقة والعيشة الخضراء ! اما أنا فبقيت وحيدا مع الظلماء ! »

من هذه اللحظة يبدأ على الحقيقة تجوال الاستاذ وتطوافه . اذ يظهر أن هذا الحادث - حادث التقائه بالزوجين - قد محق ما كان لايزال كامنا في صدره من بقية أمل ، فامسى لا قصد له ولا غرض ، وباتت الحياة فى نظره متاهة مظلمة الأرجاء ، كتب عليه أن يقضى فيها السنين وهو يخطب المشواء ، بين أشباح تطارده من كل وجهة ، وعثرات تعترضه فى كل خطوة .

وهنا نستطيع القارىء عذرا اذا نحن أمسكنا عن متابعة الأستاذ فى حله وترحاله ، وطمعنا ومقامه ، فان أبسط وصف لهذه الرحلة الهوجاء لو كان شىء من ذلك بالمستطاع - خليق بان يملأ بطون المجلدات الضخام . بل حسبنا أن تثبت هنا الكلمة الآتية فى بيان حالته النفسية : -

« وكان بي نوع غريب من القلق والهيام، يستحثني الى الامام، ويحدوني الى الأقدام . وكنت أجد في الحركة الجثمانية راحة وشفاء، ولاكنها راحة مكدوبة، وشفاء موقوت . أنة غاية أنشد، والى أية كعبة أقصد؟ لقد انطمست من سمائي نجوم الهدى، فلم أعد أبصر الا أفقا متجهما . بيد أنى لا أجد بدا من التقدم، وكيف أجد لموطىء قدمى قرارا، والأرض تحتى أحمى من الرمضاء، فى الهجيرة النكراء؟ وكنت وحيدا لأطمئن الى سكن، وغريبا لا آنس بأليف، وكان ما يعتلج فى صدرى من النزاع الدخيل، وما يتسمر فى قلبى من الجوى والغليل، لاينى يصور لعين الضمير خيالات وأوهاما، لا أنفك أهيم فى اثرها هياما، حتى اذا حسرتنى الضنى وانهبكنى الكلال، عدت أدراجى قانعا من الغنيمة بخيبة الآمال . وكنت لا أزال أشعر بأن هذا الغليل الذى يتحرق بين أضلاعي لا بد أن يكون له ينبوع شفاء ينقع أواره، ويطفىء ناره، فكم كعبة حججت، وكم مورد قصدت، من رجال عظام، ومدائن عظام، وحوادث عظام، التماس الدواء، وابتغاء الشفاء، فلا أجد ما يمس الغليل أو يبرئ الداء . رحلت الى الأقطار المجهولة، كما ظننت الى البلاد المعروفة، وأقمت فى الفيا فى الخلاء المتأبدة، كما ثويت فى الحواضر المكتظة الفاسدة، فلم أجد على اختلاف الاحوال فرقا، بل رأيت الأمر كله سواسية، وكيف ينجو الهارب من ظله، وابن الزمان من اجله؟ وهكذا كنت أجدنى فى عجلة مرهقة، يسوقنى حاد خفى يسرع بى، الى أية غاية لأدرى! وانما كنت أسمع صوته من أعماق الفؤاد يصيح بى الى الامام! الى الامام! انعم ولقد يخيل الى أن الرياح والانهار، والاشجار والاطيار،

والطبيعة كلها تهتف بي الى الامام ! الى الامام ! فيالله ما كل هذا ؟ حقا انى
ما زلت ابن الزمان ، ذلك الطائر العجلان !

« تسألنى كيف كنت أرزق ، ومم كنت أعيش ؟ فهل فاتك يا صاح أن
تعتبر هذه الارض الحشناء ، المغذية لجميع الأشياء ، أتراها تطعم العصفور
المتنقل بين الاغصان ، ثم تعجز عن اطعام ربيها الانسان ؟ أبى الله أن تموت
نفس جوعا ما امت تعيش وتعيش . الرزق والمعاش ! انك لا تدري أى
كيمياء عجيبة ، وأية قدرة غريبة ، تكتمن في النفس الآدمية المبتدعة ،
وكيف تستطيع بأناملها الدقيقة أن تخلق ما يكفى من الغذاء لجسمها خلقا ، ثم
كيف تستطيع أن تخلق (لا بمجرد أناملها بل بجمع كفيها) ضربا آخر من الغذاء :
أشباحا وأغوالا ، توسعها تمذيبا ونكالا ! »

وارحمنا لك أيها المسكين ، لقد كتب عليك أن تهيم على وجهك شريداً
يلازمك من الجوع أبغض حليف ، ويطاردك من الهموم جيش كثيف ،
فكأنما قضى عليك أن لا تنال نعمة الحرية الا بعد أن تكتب « قصة أحزانك »
على وجه البسيطة بمواطىء الاقدام ، كما كتب غيرك من قبل قصة أحزانه
على وجه القرطاس بمداد الاقلام . ولكن لا تيأس ، فلقد ولدت فى عصر
راجت فيه سوق الأضاليل ، وتفشى فيه وباء الأباطيل ، فلا غرو أن تشعر
برحك الفتية وقد شرعت تتعبه حوالى العشرين بأن الدنيا بؤرة غش وبهتان ،
وبأن الحياة كلها خداع وبطلان ، لا يتاح فيها النجاح ، الا لكل كذاب
وقاح . ومن ثم قضت الضرورة ، على كل ذى بصيرة ، بأن ينفث لوعته ،
فى الصورة التى تلائم طبيعته . فهذا « جوتا » قد نفث فى « أحزان ورتز »
همومه ، وهذا « بيرن » قد أفرغ فى ديوان شعره سمومه ، وهذا « نابليون »

قد نفّس من كربيه الكارب ، بأسلوبه الهائل الصاخب ، في رواية غنائية موسيقاها قصف المدافع الداوية ، وهدات القلاع المتداعية ، وأنوار مسرحها لمع البوارق ، ونيران الحرائق ، وأوزانها الموقعة أنين قتلى المعارك ، ووقع زحف السنابك - فطوبى لمن استطاع كصاحبنا الفيلسوف أن يكتب هذه المادة - اذ كان لا يدمن كتابتها - على صحيفة الرغام ، بمواطىء الاقدام.

الفصل السابع

(استحكام اليأس)

وراء هذه الحجب الكثيفة التي ترفع بها الاستاذ كان كيانه الروحاني لا محالة في حركة ونماء ، وهل في هذا التيار الجموح - تيار الحياة - يستطيع ابن الزمن جمودا ؟ لقد أبصرناه يعاني في ذلك العهد الغامض كربة حرجة ، ويكابد أزمة عسراء ، فهل كان اضطرابه في الآفاق على غير هدى الا اختمارا شديدا ، بل غليانا عنيفا ، كلما كان أشد وأقوى ، كان ما يتمخض عنه من ثمرة وزبدة أنضج وأصنى ؟

بيد أن أمثال هذه الازمات ، تكون أهدام مفعمة بالالم المضيض ، فالنسر اذ ينسلخ من ريشه يبيت هزيعا مدنفا ، ولا يستحدث منقارا جديدا حتى يحطم على الصخر منقاره القديم . ففهما رأينا على ظاهر صاحبنا من تجلده واصطبار ، فلا نزاع في أن جوفه كان يتهزم كالرجل بسورة الالم وحمي الشقاء . أو لم ير كل آماله في الحياة تصاب بالخيبة والافقار ؟ أو لم ير الدهر الحقود قد أولع بالكيد له والسخرية منه ، وأنى الا أن يحرمه كل ما تشتهيه القلوب الصبية ، ويمنعه كل ما تتلف عليه الأفتدة الفتية ؟ بل لقد فعل به في

حادث الغرام ماهو شر وأدهى ، اذ قدم له كأس النعيم ، حتى اذا صارت في يديه ، وأدناها من شفثيه ، لم يرعه الا أن خطفها منه في لمح البصر . واذا كانت الحياة كما يقول الاستاذ قد بنيت على الامل ، واذا كانت الدنيا انما هي دار الامل ، واذا لم يكن للانسان فيها من قنية غير الامل ، فماذا بقى لصاحبنا بعد أن انكدت من أفقه كواكب الآمال ، وتكاثفت حوله دياجير اليأس منذرة بكل مبيد من الصواعق ومبهر من الانواء ؟

ويلاه ! ليت يأسه وقف عندا نقطاع الامل من هذه الحياة الدنيا ، ولم يتعددها الى الحياة الاخرى ! ليتته وقد تداعي ايمانه بالعاجلة ، بات سليم الايمان بالآجلة ! ولكن الامر كان على غير ذلك ، فانه لما راح يتخبط في هذه الحياة الفانية ، أمسى وكأنه لم يسمع قط نبأ عن الحياة الباقية ، وذلك حيث يقول : « وجعلت ظلمات الشك تتراكم حولى طبقة على طبقة ، وتتراكب حجابا وراء حجاب ، حتى ألفت نفسي في غيب من الاتحاد طامس الاعلام والصوى ، يكاد ظلامه يقطع بالمدى » فمن كان من القراء قد فكر مليا في أسرار الحياة ، وتبين لحسن حظه أن الروح ليست لفظا مرادفا للمعدة كما يدعي فلاسفة المادة ، وأنه لن يستقيم للانسان عيش ، ولن تنصلح له حال ، الا بفضيلة الايمان ، تلك التى بها يستطيع الشهداء أن يتحملوا آلام الصلب والفضيحة والعار ، وبغيرها لا يسع ابناء الدنيا ، وهم يتقلبون فى احضان الخفض ، الا أن يتقيئوا حياتهم الخبيثة بالانتحار - أقول من كان هذا شأنه من القراء فهو خليف بان يرى فى انهيار العقيدة الدينية انهيار الحياة من أساسها .

وارحمنا لك أيها المسكين ! لقد كان كل ما أصاب فؤادك الكريم ، من جراح وكلوم ، خليقا بان يندمل ويبرأ ، لو لم ينضب من قلبك بنضوب

إيمانك معين الحياة ، فلا جرم أن ترفع عقيرتك صارخاً وتقول : « أفليس
 اذن في العالم آله ؟ أو كل ما هنالك على أكثر تقدير إله غائب ، قد جلس
 خارج الكون منذ فرغ من ابداعه ، لا يعمل قط شيئاً سوى أن ينظر اليه
 ويشاهد دوران أفلاكه على البعد ؟ أو ليس لكلمة الواجب من معنى ؟ أو ليس
 الواجب رسولا آلهياً ، ودليلاً سماوياً ، بل وهما كاذباً مزعوماً تصوره الخواص
 الهيمية من رغبة ورهبة ، من وجل وأمل ؟ إيه أيها المتحدث عن ضميرك
 المطمئن : ألم يبلغك أن بولص صاحب طرسوس ، وهو الذي رفعه الناس
 الى مراتب القديسين ، كان يشعر بانه رأس الخاطئين ، وكبير المذنبين ،
 ولم يبلغك أن نيرون صاحب رومه كان لانزال صرحاً طروباً ، يقضي
 أكثر أوقاته في استماع الألحان ، ومغازلة الحسان ؟ عبثاً ما تحاول
 يا صاحب المنطق أن تستخرج بمعاصر منطقك لباب الفضيلة من قشور
 اللذة ! ثم ويل للانسان اذا بات يشعر بانه من أهل الحق والفضيلة ،
 ويل له اذا بات يشعر بأنه ليس فريسة الألم فقط ، بل أيضاً فريسة الظلم .
 ماذا تقول ؟ أهذا الالهام النبيل الذي ندعوه الفضيلة إن هو الا شهوة
 حيوانية ، إن هو الا قوة دموية ؟ لست أدري ، ولكن الذي أدريه أنه اذا
 كان ما ندعوه السعادة هو الغرض الحقيقي في هذه الحياة ، فكلنا إذن ضالون .
 واننا اليوم في عصر مادي أهوال الضمير فيه لا تعد شيئاً مذكوراً بجانب
 أمراض الكبد ، وجدير بالانسان فيه أن يتمكن بفضل البلادة وجودة الهضم
 من مصادمة كثير من الصعاب ، وتذليل كثير من العقاب . فلنبن معقلنا
 الحصين لا على دعائم الاخلاق والمكارم ، بل على قدور المطابخ ، ولنتخذ من
 المقالي مجامر نحرق فيها البخور للشيطان ، ولنهنا ما يقدم لنا من شهى

الأطعمة ودم الألوان ! »

وكذلك نرى هذا الهائم الحيران ماثلاً بين يدي كهف الاقدار يستنطقها
عما أعجبت، ويستنجزها عما أضمرت، فلا يتلقى من الجواب الا صدى مردداً،
حتى كاد يسلم لليأس قياده، ويمنح للكفر فتواه. ولكن حذار أيها القارئ
أن تحسب صاحبنا، على ما كان يفوه به من هذه الملافظ الموحية، قد عاد
خبثاً شريراً، فلعله ما كان في فترة من فترات حياته أشد رغبة في الخير،
وأصدق ولاء للحق، منه في تلك اللحظة التي شهدت شكه في كل شيء،
وارتيابه حتى في خالق الكون. وحسبك دليلاً على هذا قوله: « وأعجب ما في
الأمر أني، على ما كنت اعاني من برحاء الألم بسبب هذا البحث والتساؤل،
لم أزل اتقاني في محبة الحق، تفانياً، ولا غرو فلقد عقدت العزم على أن أنشد
الحق وأنصره، ولو صعقتني دونه صواعق السماء، وأن أطارد الباطل وأهزمه،
ولو حاول استمالي بكل ما في الارض من ونعماء »

ثم يستطرد الاستاذ فيقول في معرض وصف حالته النفسية يومذاك :
« ان شر ما ينتاب المرء من أليم الاحساسات احساسه بالضعف، او كما قال
ملتون شاعر الانجليز (مارأيت كالعجز شقاء) بيدانه لاسبيل الى احساس
المرء بقوته الا من طريق ما يباشر من عمل وما يفلح فيه من سعي، فان بونا
شاسعا بين القدرة الكامنة الغامضة وبين العمل البين الصريح. والواقع ان
في كل امرئ منا شعوراً بنفسه، ولكن شعور مبهم أبكم، لاسبيل الى
ايضاحه وانطاقه الا بالاعمال. فالاعمال هي المرايا التي ينظر فيها المرء نفسه
ويتعرف قدره. ومن ثم كان قول القائل (اعرف قدر نفسك) هو كلمة حمقاء
ومطلب مستحيل، ما لم يؤول معناه بما هو ممكن نوعاً أعني (اعرف ما تستطيع

صممه) . غير انى لسوء حظى كنت حتى تلك الساعة لم اصادف فى كل ما باشرت
من عمل ومسعى غير الخيبة والفشل ، وكنت اذا تأملت نتيجة اعمالى
كلها وجدتها صفرا ، فكيف كان لى ان اؤمن بنفسى ، وليس فى يدي مرآة
ترينها . ولطالما كنت أسائل نفسى قائلا : اتراك قد أوتيت من الفضل
والقدرة ما لم يؤت احد سواك ، أم انت أغبي من اقلته الغبراء ، وأسئف من
اضلته الخضراء ؟ ويلاه ان شر ضروب الكفر كفر المرء بنفسه ، وهل كان
لنى من سبيل الى الايمان بنفسى ؟ ألم أشاهد أول ايمان بها - يوم تفتحت
ابواب السماء بين يدي ، وتنزلت آية الحب بين جنبي - ألم أشاهد هذا
الايمان الأول يتصوح ويذوى ، كما تجف الزهرة فى لفحة السموم ! ألم أجد
نفسى محفوقاً من هذا الكون بسر لا يزداد على كراياىم الا إلغازا واستعجابا ،
واستخفاء واستهما ؟ هل كنت فى هذا العالم الهائل المخوف الا ذرة عاجزة
لم ترزق من أسباب القوة الا أعيناً تبصر بها فاضح عجزها ، وفادح شقاءها ؟
لقد كنت أشعر بان أسواراً منيعة ، ولكنها خفية ، تفصل بينى وبين
الأحياء أجمعين ، وكنت أسائل نفسى : هل فى هذه الأرض ، ذات الطول
والعرض ، صدر واحد حنون أضمه الى صدرى ؟ فيصعد الى الجواب من
قرارة نفسى قائلاً : كلا ! وكذلك لبثت كئيباً واجماً ، واضعاً على شفتى قفلاً
محكماً . وأية حاجة كانت لى الى التحدث لاولئك المتلونين المتذبذبين المنسجمين
بالاخوان ، وهم لا يعرفون الصداقة الا حديث خرافة ، ولا يؤمنون بالوفاء ، الا
كأيمانهم بأساطير القدماء ؟ تلك أيام أذكرها الآن فأعجب العجب كله للعزلة
التي كنت فيها . كنت لا أرى فيمن يطيفون لى ، بل وفيمن يتحدثون الى ،
من رجال ونساء ، الا مجرد صور وأشباح ، لا تجول فيها أرواح ، وانما هي

آلات متحركة أسير وسطها في الطرقات ، وأخالطها في المنتديات ، وحيداً
فريداً ، قد تملكني نفور وحشي كالليث في غابه ، وكانمر في شعابه .
« وكذلك مرت الأعوام المتطاولة وكأني احتضر احتضاراً بطيئاً .
لا تنزل على قاي من السماء قطرة ندى ، بل تتماطى بين جوانحي جهرات الجوى .
وكان شئون الدمع جفت في جفوني ، فلم أعد منذ عهد صباي أبجد في مدامعي
من العبرات ، ما عساه يطفئ بعض هذه الجرات . وكما أقفر فؤادي من الآمال
جملة ، كذلك أقفر من المخاوف المعينة جملة . فلم أعد أرهب إنساناً أو شيطاناً ،
بل كان يخيل إلى أني قد أبجد بعض العزاء لو أن كبير الأبالسة طلع على أهواله
حتى أبته بعض همومي ، وأفضى إليه بحديث شجوني . ولكن المدهش العجيب
أنني مع تخلصي من كل خوف معين ، كنت لا أزال أشعر بخوف غامض
مبهم ، يملأ روعي ، ويرجف ضلوعي ، لا أدري من أي شيء بعينه . بل كان
يؤهم إلى أن كل شيء فوق في السماء ، وكل شيء تحت في الأرض ، يوشك أن
يوقع بي مكروههاً ، كأن السماوات العلى والأرض السفلى ، قد انقلبت كلها
فكي وحش هائل يوشك أن ينشب في أنيابه المذروبة ، ويلتهمني في أحشائه
الرغبة .

« في ذات يوم وتلك الحالتى وهذا شعورى كنت أجوب شوارع باريس
في هجيرة مسجورة الرمضاء ، إذ خطر ببالى خاطر على حين غرة ، فانشأت
أسائل نفسي : (ماهذا الخوف الذى يقض وسادك ، وما هذا الجبن الذى ينتخب
فؤادك ؟ أى شيء تخشى أيها الاحق ، وما عسى أن يكون شر ما يترقبك في
هذا الوجود ؟ أليس هو الموت والآم الجحيم ، وكل ما يستطيع الإنسان أو
شيطان أن ينزل بك من مكروهه ؟ وأى شيء هذا ؟ أوم تؤت قلباً فيه صبر

وجلد ، وشجاعة وشمم ، أو ليس في استطاعتك أن تصبر على البأوى وان
عظمت ، وأن تحمل المسكاره وان فدحت ؟ أو ليس في مقدورك وأنت من
أبناء الحرية أن تدوس الجحيم بقدميك ، وناره ترعى بين جنبيك ؟ ليأت
القضاء بما قضي ، فها أنا ذا متأهب لتلقيه ، متحفز لتحديه ! »

« وبينها هذه الخواطر تدور في خلدي شعرت كأن صيبا من النار قد غمر كياني ،
وإذا بي قد نفضت عني إلى الأبد مقيت الخوف ، ورحلت أشعر بقوة عجيبة ،
بقوة مجهولة ، كأني روح مطلق ، بل كأني إله قدير . ومن ذلك الحين تغير
إحساسي بالشقاء عن سالف عهده ، فاستبدلت بخوف الرعيد الجبان ،
وحزن الممول الآن ، غضبا مقدسا ناريا ، وإباء اشم حميا ! »

« في تلك اللحظة كان ميلادي الروحاني ، أو قل تعميدي الناري ، ومنذ
تلك اللحظة بدأت أشعر بأنني أصبحت رجلا ؟ »

الفصل الثامن

في سبيل الشفاء

لا يحسبن القاريء أن ما يدعو الاستاذ ميلاده الروحاني أو تعميده
الناري كان خاتمة مطافه . وكيف ذلك وقد أصبح حليفاه الغضب والاباء ،
وما هما بحليفي راحة ولا بجليسى صفاء . بيد أن اضطرابه لم يعد ، كما كان ،
اضطراب اليأس الحائر المذهول ، بل أصبح وله على الأقل قطب ثابت يدور
عليه ، وأضحى الفتى يلمح في الحياة معنى ظاهرا يرتاح إليه . أجل ان الروح

التي طالما لفحتها لوافح الألم وعصفت بها عواصف الشقاء قد اخذت تشمر بحريتها ، قد اقتنعت حصن ممالكها عنوة واقتداراً ، وستبقى معتصمة به لا يستطيع أحد اجلاءها عنه . وما دام الامر كذلك فلا نزاع في أنها سوف توفق على التدرج - بالجهاد العنيف طبعاً - الى انتزاع ما بقي من الاستحكامات الخارجية ، والخافر الامامية . أو قل بعبارة اخرى ان الشيطان الذي كان يسكن قلبه قد تلقى حكماً لا يقبل معارضة ولا استئنافاً ولا نقضاً باخلاء المسكن ، واثن لم يكن قد أحلاه بالفعل فقد بلغت اخلاؤه أمراً مقضياً ، ليس منه مفر مهما علت صرخانه ولعنانه ، ومهما اشتدت تخبطاته واضطراباته .

والواقع أن صاحبنا قد شرع يفيق من غمرته ، وينصرف عن التحديق في أعماقه الباطنية الى تأمل المرئيات الخارجية ، وبدأ يقلع عن التهام أجزاء نفسه وينزع من الاشياء المحيطة به طعاماً أصح وأشهى ، وذلك حيث يقول :
« وكان من أوقع المناظر في نفسي وأشرحها لصدري رؤية الحواضر والمدن ، لاسيما القديمة التالدة ، كأنها دهاليز طويلة تطلع العين من خلالها في أعماق القدم ، بل كأنها قطع مأموسة من الماضي البعيد ، تأدت سليمة موفورة الى الحاضر القريب ، فوضعت بين أيدينا نتأمل في روعتها ونملؤ الصيون من جلالها ! هنالك في تلك المدينة القديمة أشعلت لأول مرة منذ النفي عام أو قبل ذلك نيران المطابخ ، فما برحت مشعلة متوقدة تحش بما يجلب لها من وقود حتى لترى الساعة بعيني رأسك دخانها المتصاعد . نعم وهنالك في ذلك الوقت بعينه وضعت أيضاً تلك الجرة المتوقدة العجيبة : جرة الحياة ، فما برحت حتى اليوم متوهجة متأججة ، يتصاعد دخانها (من قاعات الحاكم) ويتراكم رمادها (في قبور المدافن) وتذكيها منافئخها (من المعابد

والكنائس) ، أجل ولا يزال لهيبتها يطالعك من كل وجه كريم ، وكل وجه كريمة ، فيدفئك صلاه ، أو يلحفك لظاه !

« إن أجل الثمرات التي يجنيها الانسان من سعيه ونجاحه إن هي إلا أشياء هوائية ، روحانية معنوية ، محفوظة في لتقاليد المتوارثة دون سواها . فمن ذلك أشكال حكوماته وما ترتكز عليه من سلطان ، ومن ذلك عاداته ومواضعه ، وشرائعه وقوانينه ، ومن ذلك مجموع ذخيره التي استفادها من معالجة الطبيعة والتي يدعوها الحرف والصنائع . كل هذه الاشياء ، على نفاسة قيمتها وشدة ضرورتها ، هي مما لا يستطيع حفظه في الاحرار ، وصونه وراء الاغلاق والاقفال ، بل لا بد أن تسري كالطيف على أجنحة الهواء ، من الآباء للابناء . فاذا حاولت أن تنظرها بطرفك ، أو تلمسها بكفك ، لم تجد لها أثراً في مكان . صحيح أنك واجد من شئت من زراع ومعدنين وصناع ، وكلهم يمسون باليد لمساً ، ويروون بالعين رأياً ، ولكن أين مستودع المهارة المتراكمة منذ أقدم القدم ، من زراعية ومعدنية وصناعية ؟ انها شيء لا يحصر في مكان ، انها شيء مشاع ، يتنقل على متن الهواء والشعاع ، بواسطة الابصار والاسماع ، انها شيء هوائي معنوي روحاني . كذلك لا تساني أين القانون ؟ أين الحكومة ؟ فعبثاً ما تذهب الى (دوننج ستريت)^(١) والى (سراي بوربون)^(٢) فما أنت واجد هنالك إلا ابنية من الطوب والحجر ، والااضابير من الورق . اذن أين ما يحدد ثوننا عنه من تلك الحكومات الدقيقة التركيب المتقنة الوضع ؟ هي في كل مكان وهي ليست في أي مكان ،

(١) مقر الحكومة الانجليزية في لندن (٢) مقر الحكومة الفرنسية في باريس

هي لا ترى إلا بأعمالها وآثارها - إنها أيضا شيء هوائى روحاني . ألم أقل لك ان حياتنا العادية اليومية هي كلها شيء روحاني ، وان كل ما نفعله يخرج من أعماق الروح الباطنية ، وأغوار القوة الخفية ، وان هذا الواقع المشهود ان هو إلا سحابة ضئيلة تنشأ من محيط الغيب العظيم .

« على أن ما يلمس ويحس من نتائج الماضي لا يتعدى في نظري ثلاثة أضرب (أولا) المدن بقصورها ومصانعها (ثانيا) الحقول المزروعة وإلى هذه أو تلك أو إلى كليهما مما تنتمي الطرق والجسور ، (ثالثا) الكتب . بيد أن هذا الضرب الأخير وهو أحدث الثلاثة عهدا ، يتأخر عن الأولين بميزة ترفعه عنهما جلدا . ولعمري الحق ما أبدع وما أعجب شأن الكتب القيم ، الكتاب الذي يستحق أن يسمى كتابا ! فما هو كالمدينة الجامدة المبينة من حجر وطوب لا يزال إلى بلع عليها كل عام ، ولا تزال تحتاج إلى الترميم في كل عام ، بل هو أشبه بحقل مزروع ، ولكنه حقل روحاني ، أو قل هو أشبه بشجرة روحانية ، ماثلة في جلالها عاما بعد عام ، بل جيلا بعد جيل ، أو ليس عندنا من الكتب ما يعد عمره بالآلاف من السنين ؟ ولا تزال تؤتيك في كل حول محصولها من الورق الجديد (ما بين شروح وتعليقات وحواش وتفسيرات ورسائل ومقالات) وكل ورقة منها لها فضيلاتها السحرية وقوتها الخفية لأنها تستطيع اقناع الانسان . ايه يا من تستطيع أن تسكتب كتابا - وذلك ما لا يتأتى إلا لبعض النوابغ كل قرن أو قرنين - لا تحسدن الذي يدعو به بان المدن ومعهها ، وارحن من صميم قلبك ذلك الذي يدعو به فاتح المدن أو مدمرها ، أنت أيضا فاتح مظفر وغار منتصر ، ولكنك من الغزاة الصادقين والماتحين الفاضلين ، لان انتصارك ما كان على أخيك الانسان

بل على عدوك الشيطان ، أنت أيضا قد بنيت ما سوف يودي بمشيدات
المرمر والصوان ، والحديد والصرفان ، وما سوف يبقى على الدهر مدينة
للمقول عامرة ، وكعبة للأذهان طاهرة ، حافلة بالعجائب والمجرات ، يحج
إليها بنو البشر من كل عشيرة وقبيل ، في كل عصر وجيل . - أيها اللاحق
علام تعاني وعناء السفر لمشاهدة أهرام الجيزة أو مقبرة ؟ ماذا أنت مستفيد
من رؤية اطلال ماثلة في انبياء ذاهلة جامدة ، قد مضى عليها ثلاثة آلاف
من الأعوام وهي ترتو إلى الصحراء سادرة سامدة ! أو ليس في استطاعتك
أن تفعل ما هو خير وأفضل : أن تفتح انجيلك المنزل ! »

وهاك مثالا آخر يدلك على أن تيوقلسدروخ شرع ينسى نفسه؛ ويذكر
مأحوله ، وذلك حيث يقول في وصف ميدان بعض المعارك ، ولعلها معركة
« واجرام » التي انتصر فيها نابليون على امبراطور النمسا :-

« بالاشناعة والفضاعة ! ميدان واسع الاطراف ، متباعد الأكثاف ،
مكتظ الفناء بشظايا القنابل ، وخرائطش البنادق ، وحطام العربات ، ورفات
الانسان والحيوان. ثم ماهذه الكيمان المدمنة القانية ؟ انها اصداف الابدان
انتزعت منها درر الارواح ، والقيت هنالك كأنها قيص منقاض اهل كانت
الطبيعة يوم أمرت هذا النهر المتدفق أن يحمل من شواهد الجبال أوساق
الطمي ، وينشرها هنا على بساط هذا السهل السوي - هل كانت الطبيعة
أرادت بك ايها الميدان أن تكون مثالا يخرج لأبنائها من البشر الثمرات
وانايرات ، أم مذبحا في ساحته يجندلون ، فتهرق منهم الدماء ، وتزق الاشلاء ؟
وهل كانت هذه المايح الثلاثة التي تلتقي فيك من أطراف أوروبا قد جعلت
لعربات الذخيرة ؟ وهل كان ما أراد منبدا في أنحائك من القري والساكن

ماهى إلا حصون لآلها بسبرج ومعاقل ، يضربون منها ويضربون فيها
 بالمدافع ، أشد ماشوه وجهك أيها السهل الأنيق ! زروع مقلعة ذاوية ، ويوت
 محرقة خاوية ، وخمائل أصبحت قذى العيون بعد أن كانت قرتها ، وشجى
 النفوس بعد أن كانت بهجتها ، تملأ الخياشيم بروائح الجيف والبارود ، بعد
 أن كانت تحي الأنوف بنفحات الورود ، وحقول أصبحت مستودع الجماجم
 والأوصال ، بعد أن كانت منابت الثمار والفلال - بيد ان الطبيعة لا تفر لها
 همة ، وما كان الانسان مهما أسرف في الشر بمسطيع أن يفسد عليها خطة ،
 فكل هذه الجيف وكل هذه الدماء لا تلبث أن تختفي وتستحيل سمادا ، ولن
 يحول الحول حتى ترى هذا الميدان قد عاد كمهد بل أزهى ربي وأنضروهاذا !
 ليه أيتها الطبيعة المجتهدة المقتصدة ، يامن لا يدب اليك الملل ، ولا يفت في
 ساعدك الكلال ، ويامن لا تزالين تخرجين من الشر خيراً ، ومن النكر
 عرفاً - حدثيني كيف تستخلصين حتى من جيفة الميت ، حياة للحى ؟

« دعونا نتكلم باللغة غير الرسمية : ماهي النتيجة الصافية للحرب ؟ إلى
 أعرف مثلاً أنه يسكن ويكدح في قرية « دمبردج » الانجليزية حوالى
 خمسمائة نسمة في المادة ، يختار منهم كل عام ، ما دامت الحرب الفرنسية
 مستمرة ، نحو ثلاثين رجلاً أشداء الأبدان . هؤلاء الثلاثون قد تولت
 « دمبردج » رضاعتهم وحضانتهم على نفقتها ، وما برحت تتحمل الآلام
 والمشاق في سبيل تربيتهم وتغذيتهم حتى باتوا رجالاً أصحاء أقوياء ، بل لقد
 تكفلت فوق ذلك بتدريسهم على مختلف الحرف والمهن ، فأصبح هذا النساك
 وذلك حداداً وذلك بناء وهلم جرا . ولكن بالرغم من كل هذا يصدر الأمر
 بتعبثهم ، فيؤخذون وسط الويل والبكاء ، ويلبسون أكسية حمراء ،

ثم يرحلون على نفقة الخزانة العامة الى جنوب اسبانيا ، وهناك يظلون
يطعمون حتى تمس الحاجة اليهم . في أثناء ذلك يكون ثلاثون صانعاً فرنسياً
ممن اخذوا بنفس تلك الطريقة من بعض قرى فرنسا متجهين هم ايضاً الى
جنوب اسبانيا ، حتى يتلاقى الفريقان بعد العناء المعنى والجهد الجهد ، فيقف
الثلاثون تلقاء الثلاثين وفي يد كل منهم بندقته . هنالك يصدر الامر بضرب
النار ، فاذا بكل فريق يهدر ارواح الفريق الآخر ، واذا بنا نجد بين ايدينا
بدل الستين من مهرة الصناعات ، ستين جثة هامة يتعين علينا ان نواريتها ،
وعلى أهلها ان تبكيها ! ليت شعري هل كان بين الفريقين عداوة أو
شحناء ؟ يعلم الله أنه ما كان بينهما قط شيئاً . لقد كان كلاهما يعيش على بعد
شاصع من الآخر ، وكان كلاهما عن صاحبه غريباً اجنبياً ، بل من يدري
فلعله في هذا العالم الواسع العربض كان بينهما - من حيث لا يشعران -
شيء من المعاونة المتبادلة عن طريق التجارة . اذن فعالم هذا التناحر ؟ أيها
الأبله ألا تدري أن حكومتيهما قد تشاحتا ، فبدلاً من أن تتقاتلا احتلتا
على هؤلاء الاغبياء المساكين فتقاتلوا عنهما . ويلاء تلك هي الحال في جميع
البلدان ، وكذلك كانت في جميع الازمان - صحيح أن احد كتاب الانجليز
تنبأ في بعض رواياته بزوال الحروب ، فصور لنا صاحب الشأن المباشر في
الشحناء ، ينزلان بنفسيهما الى ميدان اللقاء ، وقد امسك كل منهما متبغفة
مملوءة بالكبريت ، فيشعلها ويظل ينفخ في وجه خصمه حتى يستسلم
اضعفها لقرنه . واسكن الى ان يحين هذا العصر السلمي المتنبأ به اي قرون
دموية لا بد ان تنقضي ، واي اجيال حربية لا بد ان تمر ؟

والظاهر ان هذه الفترة من حياة الامتياز كانت من حيث تهذيبه

الروحاني من أبرك أيام عمره وأخصبها ، فاما باطناً فقد كانت عملية التفكير جارية مستمرة يساعده على اجرائها ميله الى السير على قدميه ، وأما ظاهراً فقد كان في تطوافه يجد الكفاية من المناظر لعينه ، وان كان لا يجد الكفاية من السلوة لقلبه ، وذلك حيث يقول : -

« لقد قرأت في أكثر المكاتب العمومية ، غير مستثنى مكتبتى الاستانة وسمرقند . وكنت أتلقي اللغات الاجنبية من مستودعها الطبيعي - الهواء ، بواسطة حاسة السمع . كذلك كانت الاحصائيات والجغرافيات والطوبوغرافيات تاتي الى عنفوا من خلال العين . فاساليب الانسان بمختلف البلدان في تحصيل القوت والدفع والوقاية - كل هذا قد تعلمته بالمشاهدة . أما عما رأيته من المناظر الجميلة فحدث ولا حرج . لقد جلست تحت نخيل تدمر ، وقضيت يوماً بين أطلال بابل ، وشاهدت بعيني رأسى سور المغول الاعظم .

« وأما عظماء الرجال فما زلت أشعر من صميم قلبي بالجناب اليهم ، واني لأنخر بان قليلاً من المعاصرين لي منهم قد فائتني محادثته أو مشاهدته . وما عظماء الرجال الا المتون الملهمة لذلك السفر المقدس الذي تكذب منه سورة في كل حقبة والذي يدعوهم بعضهم : التاريخ . أما من عدا اولئك العظماء ، من غمار الناس والدهماء ، فهم لتلك المتون الملهمة حواش وتعليقات ، وشروح وتفسيرات . وما كنت لأجعل موضع بحثي ودراستي الا المتون نفسها . أو لم أقف متذكراً في زى خادم فندق بين يدي الشاعر العظيم « شيلر » والشاعر الاعظم منه « جوتا » مستمعاً من حديثهما ما لن أنساه آخر الدهر »

وهنا نجذب القلم عن ذكر الشيء الكثير مما يدعونا الحذر الى كتمان

فما حسن بنا أن نهتك الستار ، عن أسرار الكبار . بيد أننا إذا رأينا فيما
بعد أن الظروف قد تغيرت وأن الوقت قد حان للنشر فعندئذ لا نضمن على
القراء بهذه النظرات المختلصة في دخائل الكبراء . أما الآن فليعذرنا القاري .
إذا نحن لم نذكر قط شيئاً عن علاقة الأستاذ بالورد بيرون والبابا ييوس
والامبراطور تاراكو انج وغيرهم من مشاهير العصر . كذلك لن نذكر عن
علاقته بنابليون إلا أنها كانت جسد متقلبة . ففي أول الأمر كاد الأستاذ
المسكين يضرب بالرصاص على أنه جاسوس ، وبعدها أدنى مكانه وأدخل في
حظيرة الانس ، حيث لقي شيئاً من الملاطفة وإن لم ينفج بشيء من المال ،
وأخيراً طرد أشنع طردة على أنه خيالي متطرف . وهنا يقول الأستاذ « لله أبوه !
وهل كان هو الآخر الاخيالياً من أغلى غلاة الخياليين ؟ هل كان يعيش ويحيش ،
ويناضل ويقاتل ، الا في الفكرة ، الا في الخيال ؟ لقد كان هذا الرجل - من حيث
لا يشعر - مبشراً آلهياً ، كان يعلن بمنجزة المدفع ذلك المبدأ الخطير الذي فيه
يتخلص انجيلنا السياسي ، وعليه وحده يمكن أن يقوم صرح الحرية :
أعني « القوس لباريها والدولة لحايتها » صحيح أنه كان يبشر بلسان غير مفصح
ولامبين ، وأنه كان يخاطب بتبشير كثير من الهذر والهاء ، والتخبط والهراسان
جميع المتحمسين المتعصبين ، والمبشرين الاواين ، بيد أنه كان يبشر على كل حال
بأقصى ما يحتمله موقفه من بيان ، أو قل أنه كان كالحمد الامر يكانين
الاول تطاع الغابات ، يزيل عن وجه اثرى الغياض والادغال ، ويطارد الالوف
من الوحوش والذئاب ، وبأى الحين بعد الحين ما تسوله له نفسه من سكر
وعريضة وسرقة ، ولكنه يقوم بعمل لازم نافع سوف يباركه من يأتي بعده
من الزراع وهم يحنون حصائد الحقول الواسعة ، وثمار الحدائق البانعة . »

ولكن أعجب من كل ما تقدم ظهور تيو فلسدروخ على حين غرة في
 مجاهل الاقاليم الشمالية ، احدى ليالي يونية ، وذلك حيث يقول :
 « سكون سكون الموت فان نصف الليل لا يعدم ، حتى في الأقاليم
 القطبية ، خاصيته من السكون الرهيب ، والجلال المهيب . ثم ترى الصخور
 العباء ، وردية حمراء ، وتسمع خريرا ناعما نديا لذلك المحيط الشمالى البطيء
 الخفقان ، وتلمح الشمس في حاشية الأفق معاقة ، وطفاء مكسال مرتقة ،
 كأنها هي الأخرى في سنة الكرى مستغرقة ، ولكن على فراش وثير ،
 من الصبير ، مصبوغ بالأرجوان ، ومرصع بالعقيان ، وقد انصبت أنوارها
 على مرآة الماء ، كعمود من النار مرتش الالاء ، ينفذ الى قاع الهاوية ، ثم
 يختفى تحت قدمي في أغوارها الداجية ، في مثل هذه اللحظات تكون للوحدة
 قيمة لا تقوم ، فن ذا الذى يستطيع احتمال تشويش المشوشين ، بل من ذا
 الذى يستطيع احتمال نظرات الناظرين ، حينما يكون وراءه سكان نصف الكرة
 الأرضية وكلهم ، ماعدا الحراس ، قد ركبهم شديد النعاس ، وامامه الانهائية
 الصامتة وقصر الألية الجليل ، حيث شمسنا الباهرة إن هي الاقنديل كليل ؟
 » بيد أنى في هذه اللحظة الرهيبية أرى رجلا بل وحشا يطالع على من
 فجوات الصخور ، اغبر اشعث ، هائل الجثمان كأنه دب الشمال ، وأقبل يحينى
 بالروسية ، فلهذه بعض المحترفين بتهريب البضائع فى تلكم الأتحاء . فاجبته
 فى رفق وإيجاز بانى رجل لا شأن لى بتهريب السلع ، وانى لا أقصد به سوءا ،
 ولا أنوى لاحد شرا . عبثا ما أقول ، فان الوحش لم يزل يتقدم الى ، معتددا
 ولاشك على ضخامة جرمه ، ومصمما على أن يستفيد منى مطربا أو مكسبا ،
 ولو تذرع بالقتل الى غايته . وكذلك ما برح يدنو الى ، هاجما على بانفاس تفوح

منها رائحة الشحم ، حتى صار كلانا على شفا الصخرة والبحر العميق يزخر
تحتنا شره العباب ، نهم الحباب ! أية أدلة عقلية وبراهين منطقية تنفع مع
هذا الممجى الجانى ، بل الوحش الضارى ؟ فلعمري لو انى خاطبته بلسان الكرام
المطهرين ، واستعطفته بكلام الملائكة المقربين ، لذهبت مقالتي أدراج الرياح .
ولكنى كنت أعددت لمثل هذا الموقف عدتي ، واتخذت له أهبتى ، فتنجيت
قليلًا بخفة وسرعة ، وأخرجت من حقيبتى مسدسا وجهت فوهته اليه
قائلًا « تفضل يا صاحبي بالانسحاب ولتسرع ! » ففهم الوحش هذه اللغة ، ولم
تكن الالحة الطرف حتى ولى ينحدر بين الصخور ، وكأنه يعتذر الى مهمته .
« هذه فى نظرى هى الفائدة الحقيقية للبارود ! اعنى أنه يسوى بين
الناس جميعا فى العرض والطول ، بل اذا كنت أنت أوسع منى حيلة وأربط
جأشًا ، اذا كان عقلك أرجح من عقلى ، فأنت الأطول والأعرض ، وأنت
الأقدر على قتلى منى على قتلك ، ولو كان جسمك النهاية الصغرى فى الضلالة .
أجل بواسطة البارود أصبح جاوت موهون الأسر مفسوخ القوة ، وأصبح
داود مرهوب البطش مخوف السطوة ، صارت الحيوانية المتوحشة لاشيء ،
والروحانية المبدعة كل شيء ! »

ولننظر الآن بعدما أوردنا هذه التفاصيل والجزئيات الى غرضنا الكلى
من هذا المبحث ، نعى ماذا كان يجرى فى أعماق الاستاذ الباطنية تحت تلك
التطورات الخارجية . لقد كانت كل الدلائل تبشر بالخير ، وكانت كل الاعراض
تؤذن بالشفاء . ولا غرو فان التجارب هى الطيب الروحاني الأعظم ، وقد
لبث تيوفلسدورخ بين يدي هذا الطيب أمدا مديدا يتعاطى ما يتعاطى من
المقاير المرة ، ويتلع ما يتلع من البلايع الكريهة . فان لم يكن صاحبنا

المسكين أحد أولئك النفر العديدين الذين لا ينفع فيهم دواء ، ولا يرجى لهم شفاء - وهو ما نراه من المستبعد - فلا ريب في أنه سوف يتمثل ويشفى . وحسبك أن تسمع ما يقوله في هذا الصدد عن نفسه : -

« وأخيراً بعد طول الاحتراق أصبحت ، اذا صح التمثيل ، متكاسماً تحب في شعلة الحياة ، ولكنها صفت وبقية كامنة . لست أقول ان الشقاء لم يعد شقاء ، ولكنني أصبحت استطيع النظر من خلاله وازدراءه . أى عظيم من العظماء ، في هذا الوجود الفناء ، الأرايته اما طارد وهم واما طريده ؟ لقد رفض القضاء كل رغبة من رغباتي ، ولكن ماذا كنت صانعا لو انه بلغني أقصى مرادى ؟ أو لم أر الى الغلام المقدوني يبكي وينتحب لانه لم يعط نظاما شمسيا يفتحه ، بل عالما بخذافيره يدوخه ؟ رحماك اللهم ! انى لاحدق في كواكب السماء ، فكأنها ترنو الى من أعماق اجوائها الزرقاء ، بنظرات ملؤها الرحمة والرثاء ، حتى لأخالها أعينا تتلألأ في احداقها دموع الشفقة والحنان ، لضالة حظ الانسان ! الوف من الاجيال ، لا تقل عن جيلنا هذا صخباً ولجبا ، قد ابتلعها لجة الايام ، ولم يبق منها حتى الحطام ، وهذه النجوم الوديمة لا تزال تسبح في أفلاكها مشرقة سنية ، صافية فتية ، كما رآها الراعى لأول مرة في سهل شينار ! ضلة لك ! ما هذا الوجار الصغير الحقير الذي يدعونه الارض ؟ ومن أنت أيها الجالس فيه معولا باكيا ؟ انك لا شيء ! صحيح هذا ولكن من هو الشيء ؟ انك من آل آدم منبوذ ، انك عضو مبتور ! وليكن ذلك فعلة خيراً وأبقى . »
وراحتنا لك أيها المسكين ! لشد ما ينقض العبء ظهرك ، ولكن الا ترى أنه قد شرع يفك قيوده ، ولن يلبث حتى يطرح العبء عن كاهله ويشب حراً طليقاً مجدد الشباب .

الفصل التاسع

انبلاج الأمل

« المحنة في البرية ، ومن ذا الذي منا لم يمتحن هذا الامتحان ؟ إن آدم القديم ، المستقر بالوراثة من قلوب أبنائه في الصميم ، لا يمكن ازعاجه بغير جهاد وجلاد . وحياتنا هذه محاطة بنطاق من الضرورة ، ولكنها في جوهرها نفحة من الحرية ، من القوة الاختيارية ، ومن ثم لم يكن بد من أن نعيش في صراع يكون في مبدئه عنيفا قاسيا . ذلك بان الوصية الالهية (افعل الخير واصنع المعروف) مكتوبة بحروف من نار على صفحات قلوبنا لاتدع لنا راحة ولا قرارا ، ليلا أو نهارا ، حتى نوفق إلى قراءتها واطاعتها وحتى تتجلى في أفعالنا شريعة نافذة وناموسا مطاعا . وبما أن الوصية الارضية (اطعم نفسك واملا بطنك) لاتزال في الوقت عينه تناديننا من كل جوارحنا وتهيب بنا من جميع أعصابنا ، فلا مندوحة من احتدام النزاع حتى يتغلب النفوذ السماوي على النفوذ الارضى .

« واذ كان ذلك كذلك فأى شيء هو أليق بالانسان حينما يهتف به لأول مرة صوت الداعي السماوي ويتمين عليه أن يكافح الجأ المسنون فاما أخضعه واما خضع له - أى شيء أليق حينئذ بالانسان من أن ينتبذ في البيداء مكانا قسويا ، وهناك يتحدى المضلل ويصارعه أشد صراع ، حتى ينهزم ويولى الادبار ؟ سم الامر كما نشاء ، فسواء أكان الذي يصارعنا شيطانا منظورا أم لم

يكن ، وسواء أكان الصراع يجري في الصحراء المقفرة - صحراء الصخور والرمال أم في الصحراء الآهلة - صحراء اللؤم والسفال ، فالواقع الذي لا نزاع فيه أنه ليس منا أحد الا ويدعى الى اجتياز هذه المحنة . والويل لنا ان لم ندع الى ذلك ، الويل لنا ان لم نكن الا انصاف رجال لم تتوهج على صفحات قلوبنا تلك الوصية الالهية زاهرة زاهية ، بل ظلت تحت رماد الشواغل الدنيئة خافية خافية ! وكذلك أوتيت - لا أقول نعمة الفوز - واسكن نعمة الشعور بالجهاد والعزم على مواصلة ما بقيت في حشاشة تردد . وكذلك كتب لي بعد أن لبثت ملبثت حيران هائماً في الغابة المسحورة اسمع عزيز الجان ، وأشهد من المناظر ما يشيب الولدان - كتب لي أن أجد مخرجاً بعد لأي وعناء إلى السفح المشرق البهيج - سفح ذلك الجبل الذي يصافح بقمته السماء .

أكان إذن ما عاناه تيوفلسدروخ من التطواف في مناكب الارض والتجوال ، كأنه الروح الحائر أو طيف الخيال ، هو ما يدعوه المحنة في البرية ؟ وهل كانت تلك اللحظة الخطيرة ، التي مرت عليه بشوارع باريس في تلك الهجيرة - ساعة قال له الشيطان « أعبدني وإلا مزقتك ارباً » فأجابه ثبت الجنان « اليك عنى فما أنا منك ولا أنت منى » أكانت هذه اللحظة هي نقطة الانقلاب في سير المعركة ؟ عجباً لك أيها الاستاذ ! ما كان ضرك لو قصصت علينا قصتك الغريبة ، بأسلوب جلي وعبارة قريبة ؟ عبثاً ما نحاول أن نجد في هذه الاضابير التي بين أيدينا إلا طمحات خيال مخلق في الفضاء وثاب ، أو صوراً مبهمه كأنها ملفعة بالضباب ، ولعله قد أحس من نفسه هذا النقص حيث يقول « كيف أصور العين الجثمان ، ما يجري في قدس الأقداس من

سريرة الانسان ؟ كيف يمكن التاميح ولو بأبعد إشارة إلى ما لا يحيط به وصف ولا يعبر عنه لسان ؟ » بيد أنا تؤدي إلى القارىء ما نستطيع أدائه من النبذ المقتطفة من هنا وهناك ، على يامح فيها معنى متتابعاً ، وينظم منها حديثاً مفهوماً . يقول الاستاذ « لقد سكنت سورة العاصفة ، وخفتت زماجرها القاصفة ، وأصبح في استطاعة الروح بعد طول الصمم أن تسمع ما يجري حولها ، فأمسكت عن المضي في تجولاتي الطوجاء ، وجلست في مكاني أترقب وأتروى ، لأنى أحسست أن ساعة الانقلاب قد حانت . وكان يخيل إلى أنى قد رحت أسلم بكل شيء ، وأنزل عن كل شيء ، وأقول « اليك عنى يا خيالات الامل الكاذبة فلن أطارذك بعد اليوم ، ولن أومن بك منذ الآن . وأنت أيضاً يا أشباح الخوف المرعبة ، لن أحفل بك ولن أبالي ، أنت أيضاً خيالات كاذبة وأوهام باطلة ! لا جلسن هنا فقد أمسيت انضو سفر ونضو حياة ، لا جلسن هنا ولولا أجل أن أموت ، فقد أمسيت والحياة والموت عندى سيان ، كلاهما في الحقارة صنوان »

ويقول الاستاذ في موضع آخر « وبينما أنا راقد كذلك ، وقد اتقى على النفوذ السماوى غاشية من النعاس الشافى ، شرعت الاحلام الفليضة تنجاب عنى شيئاً فشيئاً ، حتى إذا استيقظت وجدتني في أرض جديدة وسما جديدة . لقد تم بحمد الله العمل التمهيدى الاول ، أعنى محق النفس ، فأصبحت أشعر بان العصا قد حلت عن ناظرى ، والاغلال قد فككت عن ساعدى » والظاهر أن الكلمة الآتية تشير إلى المكان الذى القى فيه الاستاذ عصا التسيار ، وجلس تلك الجلسة يترب ويتروى فنزل عليه ذلك النعاس الشافى .

« ما كان أجمل الجلوس على تلك الهضبة البافخة ، تلقاء الجبال الشاغمة ، غارقا في خواطري وتأملاتي ، أحسبني في سرادق سماوي سقفه القبة الزرقاء ، وجدرا نه أربع ستائر لازوردية فضفاضة ، ستأثره الرياح الأربع الخفاقة. هنالك استعرض في الخيال ، صورة ما اكتن في بطون الاودية وثنيات الجبال ، من قصور مشرقة ، في خمائل موقنة ، ترينها كل حورية حوراء ، ومليحة حسناء . أو تخيل ما هو خير من ذلك واملح : صورة الاكواخ المسقفة بالقش ، حيث تجلس الامهات بين اولادهن يخزن الخبز . كل هذا وان توارى عن ناظري بين أجزاع الوادي كائن هنالك لاشك فيه ، كأنى أراه رأى العين . ولربما رحت أتأمل تلك القرى المنبثة حول مقعدى الجبل ، تخاطبني من أبراج واقدها بلسانها الحديدى ، وتعلن حيويتها آنا بعد آن ، بما تصعده من سحب الدخان ، تلك السحب التى كانت لى بمثابة مزولة أعلم بها عدد الساعات والأوقات ، لأن هذا الدخان كان يتصاعد من المطابخ كلما عمدت الأزواج الكريكات فى الصبيحة أو الظهيرة أو المساء ، الى اغلاء القدور للبعولة والأبناء . فكما حان وقت من هذه الأوقات الفيت عمودا من الدخان الازرق يتصاعد من كل قرية ، ويقول بمبارة جليلة : «الآن يجهر الطمام للوجبة الفلانية» منظر لعمر الحق انيق ! فانك لترى كل قرية بما حوت من محبات وعداوات ، ومخادثات ووشايات ، وخلاقات واتفاقات ، ململمة هنالك تحت عينيك كأنها لعبة صبي لو شئت لفطيتها بقبعتك - حقا لئن كنت أثناء تطوافي قد تعلمت ان أنظر الى تفاصيل الأمور والجزئيات ، فهنا موضع تجميعها الى كليات ، واستنباط ماشئت من الامتتاجات .

« كذلك كم من مرة شاهدت الزوابع الهوجاء ، مقبلة غضبي من أقصى

الفضاء ، حتى اذا التقت ببعض القمم السماء ، فوجدتها مربدة غبراء ، جعلت تدور حولها وتدوم ، وتغلى وتهزم ، ثم تنتشر في منفرج الاجواء ، كالقول ناشرة شعورها السحباء ، وما هي الا برهة حتى تسكن العاصفة ، وتبدو القمة في لآلاء الشمس ضاحكة ناصعة ، لأن الزوينة قد كستها حلة من الجليد لامعة . ايتها الطبيعة العجيبة ! كيف تختمرين وتغلين في تلك الخابية الهائلة التي ندعوها الفضاء ! بل حدثيني ما انت ؟ لماذا لا ادعوك باسم الله ؟ الست أنت رداءه الحي ؟ الست أرى جلال الحق يسطع من خلالك ويتكلم بلسانك ويعيش فيك ويحيى ، كما يعيش في ويحيى ؟

«وجعلت تبشير هذه الحقيقة تلوح لبصيرتي ، كما يلوح سنا الفجر لحابط الظلماء ، فكان وقعها في نفسي أحلى من صوت الأم في مسمع طفلها التائه الحيران ، وأعذب من نغم المعشوق في اذن العاشق الوهان . ولا غرو فقد أنشأت اتبين أن العالم ليس بمجزرة تعزف فيها الاباسة وترقص الاشباح ، وانما هو بيت الله ورداؤه ، ومظهر الحق ورواؤه .

«وتعلمت أيضاً أن أنظر الى اخواني في الانسانية بعين أخرى ، بحب لا يعرف نهايته ، ورحمة لا تحدها غاية . لهني عليك أيها الانسان البائس ، المضلل الطائش ، الاتقاسى ما تقاسى من الوان الشقاء ، وضروب البلاء ؟ الست سواء أتخايلت في حلل الملوك ، ام تضاءلت في اطهار صعلوك ، ذلك العاجز الضعيف ذا العبء الثقيل والجناح المهيض ؟ هل لك على كل حال راحة أو مستقر ، الا في جوف القبر ؟ ايه يا أخى ! لماذا لا أريك بين جوانحي ، وأمسح عن مقلتيك دموع الاسبى ؟ أجل ان ضوضاء الحياة تلك التي مازلت اسمعها باذن مخيلتي وانا معتكف في عزلي لم تعد لي كما بصم الآذان ، بشوش الاذهان ،

بل صخباً شجياً ، وهتافاً ندياً ، كأنه انين مبهم رخيم ، يصدر من مخلوق اعجم بهيم ، ويصعد الى مسامع السماوات ، فاذا هو دعوات وصلوات . واصبحت أرى أن هذه الارض الفقيرة ، وما حوت من المطايب الزهيدة المنزورة ، هي امي المدقعة المسكينة ، لامرأة ابى القاسية الضنينة . وصار الانسان على حقارة ما ربه وخرق مساعيه ، احب الى منزلة واعز في قلبي مكانة . بل لقد أصبحت من اجل آلامه وآثامه ادعوه أخى وشقيقى . وكذلك الفيت نفسى ماثلاً بين يدي «هيكل الاحزان» لأدري من أى طريق وعرو ومسلك موحش ارشدتنى اليه خطاى ، فما هى الاهنية حتى تنفتح لى اعماق الحزن الالهية ، واسراره المصونة الربانية »

وهنا يقول الاستاذ انه ابصر لأول مرة تلك العقدة التى كانت قابضة على عنقه ، آخذة بكظمه ، فبادر الى فكها عن مقلده ، وراح فى الحال حراً طليقاً . وذلك حيث يقول « لا يزال ينشأ فى كل نفس منذ بدء الخليقة الى اليوم جدال عقيم لا طائل تحته ولا نهاية له فيما يدعونه «اصل الشقاء» . ولا بد لكل نفس تريد الانتقال من حال التألم العاقل الى حال الجهاد العامل من حل هذه العقدة . بيد ان اكثر الناس فى عصرنا هذا يكتفون بحسمها حسماً غير مبنى على الاقناع ، وقليل هم الذين لا يهدؤون او يهتدون الى حل يرضيهم . وما زال هذا الحل يختلف باختلاف الاجيال والعصور . فكلما جاء عصر جديد اصبح الحل المقبول فى سالفه عتيقاً بالياً لا يصلح للاستعمال ، ولا يطاق مقتضيات الحال ، لان الانسان مدفوع بطبعه الى تغيير لهجته واسلوبه من عصر الى آخر ، لا مندوحة له عن ذلك مهما اراد وحاول . ولقد عاجلت هذه المسئلة فاهتديت الى الحل التالى : ان شقاء الانسان نتيجة عظمته .

الانسان يشقى لان الطبيعة اودعته مطامع غير محدودة، لا يستطيع مهما احتال
وتصرف اشباعها بما يملك من الوسائل المحدودة . أفلو تالفت شرككم تضامنة
تضم جميع من في العالم من المالمين والمنجدين والحلوانيين افتراهم يستطيعون
أن يجعلوا شخصا واحدا ، ولو من مساحي الأحذية ، سعيدا سعادة حققة ؟
كلا أنهم لن يستطيعوا ذلك الا مدي ساعة أو ساعتين ، لان مساح الأحذية
قد أوتي فضلا عن معدته نفسا نهمة لا سبيل الى اشباعها وارضائها الا اذا
استولت على ملكوت الله باجمعه ، لا أقل ولا أكثر ، تمرح فيه كما تشاء ،
وتستمتع به كيفما تشاء . افتحسبه لو اعطى نصف الكون بلا شريك ولا
منازع يبيت قانعا بقسمته ؟ كلا ! فانه لن يلبث حتى ينزع مالك النصف الآخر
نصيبه ، ويجاهر بانه أشقى خلق الله واسوأهم حظا . ان ضياء الشمس الذي
نسير فيه لا يزال مشوبا ببقعة سوداء ، تلك البقعة هي ظل أنفسنا ، وهل
ينجو المرء من ظله ؟

« بيد ان هذا الوم المتسلط علينا من حيث السعادة انما ينشأ كما يأتي :
نفترض من تلقاء أنفسنا افتراضات ، وتقدير تقديرات ، نستخلص منها
متوسطا معلوما لما يجب في حسابنا أن يكون حظنا في الحياة ، ثم نتوهم ان
هذا الحظ المتوسط هو من حقنا بحكم الطبيعة ومقتضى العدالة ، وانه لا يعدو
أن يكون الاجر الذي نستحقه باستعدادنا ونستأهله بمواهبنا ، اذا استوفيناها
كاملا فلا محل لشكر ولا موضع لشكوى ، أما إذا اختلف حظنا عن ذلك
المتوسط فالزيادة نعدّها سعادة والنقص نعتبره شقاء . فاذا لاحظت أننا نحن
الذين نقدر استحقاقنا لانفسنا بأنفسنا ، واذا ذكرت أي مقدار وفير من
الزهو والغرور ، قد أودع كل ابن أم منا هل يكون من المحب أن نذهب

بعيداً في المغالاة بأقدارنا ، فيختل التوازن أيما اختلال بين مآدعيه لنا حقاً
وبين ما نؤتاه من الحظ فعلاً ، حتى ترى كل غبي أحقّ يصيح متمللاً :
« أنظروا أي أجر بخس أعطى ، تالله ما عومل انسان هذه المعاملة السوأى ! »
أيها الاحقّ ما هذا كله إلا من غرورك ، إلا مما يقوم في وهمك عن جدارتك
واستحقاقك . توهم أنك تستحق الشنق (وهو الاصح في الغالب) تجد من
السعادة أن تضرب بالرصاص ، توهم أنك تستحق الشنق بحبل في دقة الشعرة
تجد من السعادة أن تشنق بمرس من السكتان .

« حقاً ان كسر الحياة ليزداد بخفض مقامه أكثر مما يزداد برفع بسطه .
بل ألم يحدثك علم الجبر أن الواحد الصحيح مقسوماً على صفر ينتج لانهاية ؟
إذن فلتجعل مآدعيه لنفسك من الاجر صفرأ ، تجد أن الدنيا بخذا فيرها
تحت قدميك . لقد أصاب أحكم حكماء هذا المصر حيث قال « انما تبدأ الحياة
حيث يتم انكار الذات »

« في ذات يوم سألت نفسي قائلاً : اخبرني أيها الانسان لأمر ما أراك
من عهد بعيد ثائراً غضباناً ، آسفاً أسياناً ؟ قل وأوجز ! أليس لانك غير
سعيد ؟ أليس لان نفسك (أيها السيد اللطيف الظريف) لا تلقى ما يكفيها
من الحفاوة والتعظيم ، واللذة والنعيم ، والمطعم الشهى ، والمهاد الوطى ؟ ضلة لك
من أحق مغرور ! أي قانون من القوانين ضمن لك صفاء العيش وخولك
حق الهناء ؟ منذ قليل من الزمن لم يكن لك حق حتى في الوجود ، ومن
يدريك فلعلك ولدت وقد كتب عليك أن لا تكون سعيداً ، بل أن
تكون شقياً تعيساً ؟ ما أراك إذاً الا عقاباً شرها منهوماً ، تخلق في هذا
الوجود باحثاً عن طعمة تلتهمها ، وصارخاً بأعلى صوتك ، لانك لا تجد من

ارم ما يملأ فراغ بطنك . اغلق يا صاحبي ديوان بيرن^(١) وافتح ديوان
جوتي^(٢) ا »

ثم يصيح الاستاذ في موضع آخر « ها قد لاح لى وميض الحق ا فاني
لارى في الانسان شيئاً أرقى وجوهراً أعلى من شغفه بالسعادة . في قدرة
الانسان أن يستغنى عن السعادة ، وتكفيه مكانها البركة والقناعة . أليس
من أجل التنويه بذلك الشيء الارقى ، والتنبيه الى ذياك الجوهر الاعلى ، أن
الحكماء والشهداء ، والائمة والشعراء ، في كل زمان ومكان مازالوا يرفعون
عقائرهم بالدعاء ، ويكابدون ألوان المذاب والبلاء ، مقيمين الدليل بحياتهم
ومماتهم على أن الانسان لا يخلو من نفحة الهية ، وعلى انه بغير هذه لا يكون
له حول ولا حرية ؟ وهذه العقيدة المنزل من رب السماء قد تشرفت أنت
الآخر بتعلمها ، وابتليت بصنوف العذاب الشافى ، وأنواع البلاء الذى باطنه
رحمة ونعمة ، حتى تصير نفسك الى الخشوع والانكسار ، وحتى تدرك
الحكمة الدنية حق الادراك . فاحمد ربك على ما أصابك ، وتحمل ما بقي
لك بقلب صابر ، ولسان شاكر ، لانك بحاجة اليه ، ولان النفس التى بين
جنبيك يجب أن تتمحق وتسحق . وكذلك لن تلبث فى قلب وتملل بينما
عناصر الحياة تستأصل من قرارة نفسك شأفة المرض المسكين ، وتنزع من
أعماق صدرك أصل الداء الدفين ، حتى تفوز على الموت فوزها المبين . هنالك

(١) الشاعر الانجليزى المعروف وكان لا يزال متبرماً بالحياة ساخطاً عليها نادياً حظ

الانسان فيها داعياً الى اليأس منها

(٢) كبير شعراء الالمان وهو ينظر الى الحياة نظرة هادئة وديعة يقبلها على علاقتها

مستمتعاً بما فيها من خير .

روح وقد أمنتك العناية من الزمن ، لا يطويك تياره الطامى ، ولا يفرك
 غماره الطاغى ، بل تظل محمولا على مناكب لججه ، مرفوعا على ذرى
 ثبجه ، حتى يؤدبك الى صفاء الابدية وملكوت الخلود . ايه يا نفس لا ترغبي
 فى اللهو وارغبي فى الله ! هذه هى الحكمة السرمدية بفضليها تنحل المشكلات ،
 وتتسق المتناقضات . فأخلق بمن سار عليها وسعى ، أن لا يزل فى خير وهدى »
 ثم يقول الأستاذ فى موضع آخر « احقر بهذا الذى تفخر به من انك
 تستطيع أن تدوس الارض ومظالمها بالاقدام كما علمك زينو حكيم
 اليونان . إن فى وسعك أن تصنع ما هو خير وأبقى - فى وسعك أن تحب
 الارض بالرغم مما تسومك من الظلم ، بل من أجل ما تسومك من الظلم -
 إن بث هذه الروح السامية السمحاء كان يحتاج إلى من هو أعظم من زينو
 ولقد بعث الينا فى دوره . هل أتاك حديث « عبادة الحزن » ؟ ان معبدها
 ذلك الذى أسس منذ ثمانية عشر قرنا خلت ، قد أصبح اليوم أنقاضا واطلالا
 تعلوها الاعشاب الوحشية ، وتسكنها الحشرات المزعجة ، ولكن لا تجفل
 بل أقدم ، فهناك فى قبوت تحت الانقاض المتداعية لا يزال المذبح قائما سليما ،
 والمصباح المقدس متوقداً وهاجا . »

وهنا يطلق الأستاذ لقامه العنان فى مباحث الدين والوحى والنبوة
 والكرامة بكلام غامض مبهم يؤثر أن تضرب عنه صفحا ، ونكتفى بإيراد
 النبذة المفهومة التالية :

« فى هذه الحياة الدنيا ، حيث لا تزال مع الوقت فى حرب مهلكة ضروس
 يتراعى لى أن كل حرب أخرى لا موجب لها ولا مبرر . أيها الانسان هل
 بينك وبين أخيك الانسان خلاف أو نزاع ؟ إذن فنصيحى اليك أن تفكر

في الامر مليا ! أليس معنى هذا الخلاف اذا أنت سبرت غوره ، انما هو ما يأتى «صاحبى تأمل ! انك تأخذ من السعادة اكثر من نصيبك - انك تأخذ جزءا من نصيبى أنا ، وذلك لعمر الحق ما لن اسلم به ، بل أولى بي أن أحاربك دونه» ويلاه كل هذا والغنيمة التى عليها يتكالبون ، ومن أجلها يتحاربون ، هى شىء حقير سفساف ، هى مجموعة من القشور والاصداف ، لالب فيها ولا شحمة ، ولا تكاد تشفى من ملايين الزهات نهمة . أفما كان أجدر بنا وأحصى أن تقول فى مثل هذه الاحوال «خذ أيها المنهوم الشره ! خذ هذا الجزء الاضافى الحقيق الذى اعتده من نصيبى ولا تكنك تريده لنفسك . خذه بارك الله لك فيه ، ليتنى كنت أملك ما يكفيك ويشفيك » لا أقول ان هذا هو كل واجب الانسان ، وانما هو نصف واجبه ، هو الشطر السلبى منه ، لو استطاع الى أدائه سبيلا .

«على أن العقيدة ، مهما صحت وقويت ، فهى شىء عديم القيمة ان لم تصبح جزءا من السلوك والخلق » بل هى فى الواقع لا وجود لها قبل ذلك ، لأن الآراء والنظريات لا تزال بطبيعتها شيئا عديم النهاية عديم الصورة ، كالدوامية بين الدوامات ، حتى يتهاى لها من اليقين المؤسس على الخبرة الحسية محور تدور حوله ، عندئذ تصير الى نظام معين . ولقد صدق من قال (لا يزول الشك مهما كان إلا بالعمل) لذلك انصح لمن يقاسى التخبط فى الظلام البهيم ، أو يعانى التعيث فى الضياء السكلى ، ولا يزال يتضرع الى ربه ، ويرجو من صميم قلبه ، أن يسفر الفجر الملبس عن صبح مبين - أن يضع فى سويداء فؤاده هذه الحكمة الغالية : «ابدأ قبل كل شىء بالواجب الذى بين يديك ، بالعمل الذى تعرف أنه واجب ، فانك ان فعلت اتضع لك الواجب التالى »

« بل ألا يصح القول بأن ساعة انعتاق الروح إنما تكون حينما يتبين
 لعبك المدهوشة ان هذا العالم الذي مازلت تجاهد فيه جهاد المعتم الحيران ،
 وتتحسر تحسر العاجز اللهبان ، هو بذاته عالم الكمال المطلق الذي تصبو اليه
 وتتلهف عليه - حينما يتضح لك بين التعجب والاستغراب ان دنياك
 الجديدة هي في هذا المكان ، وإلا فستحيلة الامكان ؟ والحق انك لن تجد
 في مقامات الحياة مقاما إلا وله واجبه الاسمى ، ومثله الاعلى ، فهنا في هذه
 الحالة القائمة والظروف الراهنة ، على رؤسها ومهانتها ، ونكدها وحقارتها ،
 نعم هنا في الموقف الذي أنت فيه ، يوجد المثل الاعلى الذي أنت به هائم كاف ،
 فاكده لتحصيله ، واعمل لتحقيقه ، وكن حيا مؤمنا ، حرا مطلقا ! أجل
 أيها الاحق ! إن المثل الاعلى هو في ذات نفسك ، والمقبة أيضا في ذات
 نفسك ، وما حالتك في الدنيا إلا المادة الأولى ، التي يصور منها ذلك المثل
 الاعلى ، وما عليك أن تكون المادة من هذا النوع أو ذاك مادامت الصورة
 التي أنت ملبسها إياها ، ومفرغها فيها ، كريمة جميلة ، ورائعة جليلة . فيامن
 تنوح في سجن حياتك الراهنة ، وتجأ بالدعاء الى الآلهة ، طالبا اليهم أن
 يمنحوك عالما تنفرد فيه بالحكم والانشاء ، تعلم هذه الحقيقة وهي ان ضالتك
 المنشودة هي في حوزتك ، ورهن قبضتك ، هي في هذا المكان ، وإلا
 فستحيلة الامكان ، لو كان لك عينان تبصران !

« والواقع أن مثل الروح كمثل الطبيعة ، مبدأ الخلق في كليهما النور .
 فحتى تصبح العين بصيرة لا بد لسائر الاعضاء أن تظل مقيدة مغلوقة . فيالها
 تلك من لحظة مقدسة اذ يقال للروح الجائشة المضطربة ، كما قيل مرة للسديم

المصطفى « ليكن نور ! ». هنالك تنقطع زماجر الخلاف الداوية ، وتألف العناصر المصطرة المتعادية ، فاذا أجواء منفتقة ، وأفلاك منفتقة ، واذا جبال تبني في الحضيض كالأوتاد الراسيات ، واذا رقيم يرفع في السماء مزينا بالكواكب الشائبات ، حتى تجد بين يديك مكان السديم المظلم الجوانب ، المائج الفياهب ، دنيا تشرح الصدور بهجة وبهاء ، ونضرة ورواء !

« وكذلك أصبحت وفي استطاعتي أن أقول لنفسى « لا تكن بعد اليوم سديماً ، بل كن عالماً نظيماً ! انتج ، انتج ما في قدرتك انتاجه ، بالغاً ما بلغ من الزهادة والضالة ! إنه قصارى مجهودك فلتخرجه . هيا بك لا تقعد عاجزاً عاطلاً ! بل مهما تناولت يدك من عمل فاعمله بأقصى قوتك وأبعد همتك ! اعمل مادام الوقت نهراً ، قبل أن يدركك الليل فلا تستطيع الى العمل سبيلاً »

الفصل العاشر

الختام

لقد تتبعنا تيو فلسدورخ في مختلف اطوار حياته حتى بلغ رشده الروحاني . وسنراه منذ اليوم « سامعياً في عمل الخير » رامياً الى الغاية الجديرة بالإنسان . نعم لقد استكشف أن المصنع الخيالي الكامل ، ذلك الذي مافتى ، يتشوف اليه ويتلهف عليه ، هو بعينه هذا المصنع الفعلي الناقص العدة والأستعداد ، حيث ما برح يتعيث ويتعثر . وأما الآلات فقد وجد منها كفايته ، وذلك حيث يقول : « آلات ! اليس ذلك عندك منها ما يكفيك ! كيف ذلك واني يكون وما من انسان ، بل ما من شيء ، يعيش في هذا الوجود الا وقد أوتي

ما يعوزه من الآلات ؟ ان احقر المخلوقات - ذلك المنكبوت الذي تقتحمه العين - قد أوتي مغزلاً ومنسجماً ومنولاً ، كلها مركب في رأسه الصغير ، وان ابلد المهارات قد اوتيت آلة هائلة يصونها بيت من الحجر والجير ، وكذلك ما من شيء حتى الا في قدرته أن يعمل عملاً . آلات ! اليس لك ذهن منار ، أوقابل للأتار ، بوميض من العلم ؟ اليس لك ثلاث انامل تمسك بها القلم ؟ لله در القلم أي عصا سحر هو وأي خاتم ملك ! من عهد موسى وعصاه ، أو من قبل ذلك ، لم ير الناس أعجوبة هي أبرع وأبدع من القلم . والواقع ان هذه الاداة الدقيقة قد أظهرت من الآيات البيّنات ، والمعجزات الباهرات ، ما هو أعظم وأفضل من كل خارفة مذكورة ، ومعجزة مشهورة . وانه لمن عجائب هذه الدنيا ، التي ظاهر شأنها الصلابة والجمود والثبات وان تكن على الدوام في قلق وصرج واضطراب ، ان الصوت ، وهو في الظاهر أهون الاشياء خطراً وأوشكها فناء ، يكون في الباطن أدومها أثراً وأطولها بقاء . ولقد صدق من قال ان الكلمة هي صاحبة الصولة والسلطان في هذه الدنيا ، وانه بقوة الكلمة يصبح الإنسان الهياً يقول للشيء كن فيكون . فانهمض أيها الإنسان من رقدتك ، وانتبه من غفلتك ، وانفت ما يجيش في قلبك ، وبلغ ما أوحاه اليك ربك - فما قدر لابن آدم عمل هو أشرف وأسمى من الدعوة الى الحق . وإن أعطيت ولو أدنى مرتبة في ديوان هذه الدعوة فلمحسبك من الشرف النبيل ، والمجد الاثيل ، ان تنفق عمرك وتنفق قواك في هذه السبيل ! »

« وكذلك اتيح لي أن احترف هذا الفن الرفيع الذي كثيراً ما نراه مع الأسف ينحط في بعض الأيدي الى حرفة وضيعة . فكم من كتابات لي ،

وان لم تكن منسوبة الى (ومن هو أنا حتى أحفل بان ينسب شيء الى؟) قد
القيتها في ذلك الحقل العظيم الحصيد : حقل الآراء، وكم رأيت مع الارتياح
ثمرات غراسي تطالفي من هنا وهناك ! فالحمد لله الذي هداني الى مهنتي ،
لتسفر مجهوداتي فيها عن نتيجة أو عن غير نتيجة ، لقد صممت على المضي
فيها بكل قواي . »

وهنا يقف الناشر أخيراً ، غير واجد بدا من الأعراب عن شبهة اليمية ،
مارحت تجول في خاطره خلال الفصول الأخيرة من هذه الترجمة وتفض
مما في قلبه من بقية حماسة كانت لاتزال تجعل واجبه الشائك عملاً محبوباً .
تلك الشبهة هي أن محتويات هذه الوثائق جليها أو كليها ان هي الانعمية . وهل
بعيد أن يكون كثير من الأمور الموصوفة هنا بأنها وقائع ان هي في الحقيقة
الا خيالات ؟ هل بعيد أن يكون كل ماتضمنته هذه الأضابير ليس صورة
شمسية لحياة الفيلسوف ، بل مجرد صورة رمزية تشير الى الحقيقة تليحاً
لاتصريحها ، وتورية لاتوضيحها ؟ ان الذي نرجحه أن المهر هفريات اذ حسب
الصورة الرمزية صورة حقيقية كان مخدوعاً في أمره ، كما كان مسلطاً على خدع
غيره . والا ناشدتك الله كيف يعقل أن رجلاً معروفاً بفرط الاجتهاد وشدة
التكتم كصاحبنا الاستاذ يتطوع دفعة واحدة وبكل صراحة فيفتح اغلاق
قلعته الحصينة لناشر انجليزى ولهفريات الماني ؟ اليس الاقرب الى المعقول
أن يكون غرضه استدراجهما حتى اذا حبسهما في دهاليزها الملتوية وسراديها
المظلمة أنشأ يتأمل كيف يكون . منظر الاغرار المغفلين ؟

ولكن فليعلم الاستاذ أنه مهما خدع فثمة واحد على الأقل لن ينخدع
بتمويهه . لقد قرأنا أخيراً على احدى القصصات ، التي كنا قد القيناها جانباً

أول الامر بسبب عدم وضوح الخط ، العبارة الآتية : « ماهذه التي تسميها وقائع تاريخية ؟ » تحسب في مقدورك أن تكتنه انسانا ، بله نوما بشريا ، بمجرد نظمتك عقداً من هذه الخرزات التي تسميها وقائع ؟ انما الانسان بما نوى ، بالروح التي تحدوه ، لا بالعمل الذي يؤديه . وما الواقع الا رموز منقوشة ، لا يهتدى الى سرها الا الأقلون ، أما غبياؤك فلا يتفهمون أسرارها ولا يتفحصون معانيها ، بل همهم أن ينظروا الى حسن نقشها أو رداءته ، الى موافقتها أو مخالفتها للأداب . وشر من ذلك أجلافك فلقد رأيت بعضهم يقرأ « روسو » مدعيا فهمه متكلفا تفسيره فاذا هو يخطيء افعى الأبدية حاسبا اياها زاحفة عادية . « أكان الأستاذ اذن يوجس خيفة لئلا يخطيء فهم أفعاه ناشر كالناشر الراهن يعد نفسه من صفوة الناشرين ، فعمد من أجل ذلك الى تغيير شكلها وبرزها في صورة رمز أوضح وأبسط ؟ أم هل هذه أيضاً احدي انصاف حقائقه وأنصاف أضاليله ، تلك التي لا ينفك يرسلها كالسهام الشاردة لا يعنيه أن وقعت ولا ماذا اصابته ؟ لسنا ندري على التحقيق ، ومن الحال ، وهذا شأن الاستاذ في غريب أطواره ، أن ندوى . فاذا كان اشتباها قائما على غير أساس فليرجع باللائمة على أساليبه المريبة ، لا على احترامنا الواجب . بيد أنه كيفما كان الامر فقد عول الناشر ، وقد بلغ منه الإين والضجر ، على أن يلقي من يده مؤقتاً هذه الاضايير . وحسبنا أننا عرفنا من الاستاذ حتى الآن « الروح الذي تملكه وحده » ، وان لم نعرف العمل الذي أداه « لاسيما وان كيانه الروحاني ، قد أفرغ الآن في قلبه النهائي ، فلم يعد من المنتظر استكشاف شيء جديد ذي خطر . لقد صارت الشرقة المحبوسة فراشة مخنجة ، ولسوف تظل كذلك حيثما كان مطارها . فلئن تتبعنا الاستاذ في

حركاته وتقلباته خلال أحوال الحياة الظاهرية حتى يصل أخيراً الى كرسى
الآخرة ، لما أسفر عملنا عن نتيجة جديدة بهذا المجهود . لقد رأينا تيار حياته
الخارجية يتحول عند « مصرع الغرام » الى رشاش بخار ، فلنتركه حائماً في
الجو كما رأيناه ، وحسبنا اننا قد وقفنا على اتجاه مجراه العام ؛ مما تبيناه هنا
وهناك من برك وجمام . بل ألم نعرف فوق ذلك ان هذا الرشاش البخار قد
تكاثف من عهد بعيد فنزل مطراً وصال غديراً وانه الآن في مدينة وسنتشتو
يجري عميقاً هادئاً بحيث تراه عيون الناظرين ؟ اذن فلنكف مؤقتاً عن
التنقيب في هذه الاضابير - عن الحفر في هذه المناجم ، وان كان هذا لا يمنعنا
من العودة اليها الفينة بعد الفينة والقاء نظرة على ما احتوته من مادة نفيسة
مبعثرة هناك كالجوهر بين الاخبات .

والآن وقد اعتزمنا أن نعود الى كتاب الملابس فقد يحق لنا أن
نتساءل عن مبلغ التقدم الذي تقدمناه خلال هذه الفصول الشر من ترجمة
الاستاذ نحو ادراك فلسفة الملابس على حقها . وما نحسب أن الجواب على
هذا السؤال يكون كله سلباً . فلقد وقفنا - على حد التشبيه الآنف بيانه :
تشبيه الجسر الممتد من باب الجحيم الى حافة الارض - الى اضافة بضع صنادل
عائمة ، وان لم تكن قد ثبتت بعد في مواضعها ، بل لا تزال مضطربة على متن
الفيضان . أما الى أين ينتهي هذا الجسر متى شددت بالسلاسل ارمائه وربطت
اجزائه فتلك مسألة لا تزال حتى الآن في حيز التخمين .

والحق اننا قد استطعنا أن ننظر في سريرة الفيلسوف من خلال خصائص
صغيرة جمة حتى أصبحت معالم تلك الصور الغريبة التي يتصورها عن الوجود
والكيفية التي ارتسمت بها في ذهنه ، غير خافية علينا ، فأرؤوه المعجزة عن

الوقت - تلك الآراء التي هي جديرة بكل اعتبار والقي لا يستمضي فیهما
على التأمل - حقيقة أن تتكشف عن معان جلیلة . وأخلق منها بذلك ریه
في الطبيعة وانها وحدة مبینة . ألا يلمع القاریء في قوله عن الطبيعة وعن
الحياة انها رداء - رداء حی نسج ولا يزال ينسج على نول الوقت - الا يلمع
القاریء في هذا الخاطر الهيكل الخارجی لفلسفة الملابس بخذا فیرها ؟ اصف
إلى ذلك أن اخلاق الرجل لم تعد سرا ملغزا ، ألا ترى أن نوعا من الالباء الحمی
مقترنا بنوع من الخشوع الفياض ببرزان من وسط السكثيف من الغموض
وبزغان خلال المظلم من الابهام كانها الدعامتان الخلیقتان بأن يؤسس فوقهما
ویشاد علیهما كل ماعداهما ؟

بل ألا یصح القول بان ترجمة تیوفلسدورخ - وان لم تكن فيما نرجع
الا صورة رمزية - تعرض علینا مع ذلك صورة رجل كأنما أعدته المقادیر
لفلسفة الملابس ؟ لقد كان في جميع أطواره مسوقا سوقا ومدفوعا دفعا للنظر
خلال مظاهر الاشياء الى ذات الاشياء ، وكان كل ماجرى له من تقلبات
الحظ وتصرفات الايام من شأنه أنه يقوى في نفسه تلك النزعة السلبية التي
انطبعت فيه منذ نعومة اظفاره ، وكان مثله في المجتمع كالزيت في الماء محرما
عليه أن یمتزج بافراده في عمل أو في اجتماع ، فلا غرو أن يكون نصيبه العزلة
والاستغراق في التأمل . والواقع أن جميع قواه ظلت طوال سنين عدة منحصرة في
عمل واحد : تحمل الألم ان لم یجد إلى شفائه سبيلا . وكذلك ظلت مظاهر
الاشياء أينما راح وحيثما اغتدي تضغطه وتكربه وتهدهه بالعطب الذريع
والهلاك الفظيع ، فلم یکن یجد إلى السلام والراحة سبيلا الا بانفاذ نظره
خلال مظاهر الاشياء الى الاشياء ذاتها . ولكن اليس مجرد النظر خلال

المظاهر - وهي بمثابة الملابس - الى الأشياء ذاتها هو المقدمة والتمهيد لفلسفة
الملابس؟ ألا تلمح في كل هذا بواذر الغرض الحقيقي الاسمي من هذه الفلسفة
والشكل الذي يجب أن تتخذه في يد رجل كهذا وفي عهد كهدهنا هذا؟
وما نحسب القارئ الكريم، وهو على أبواب الكتاب الثالث يجهل
الآن كل الجهل أين يساق. وما نظن أنه سيموزنا، مع كل ما لا بد أن نخوضه
من متاهات ومضال، أن نلمح الحين بعد الحين وميض نجم قطبي ثابت.

الكتاب الثالث

الفصل الاول

أعظم حادثة في التاريخ الحديث

لقد رأينا تيوفلسدروخ منذ الفصول الأولى من كتاب الملابس يتكشف شيئاً فشيئاً عن رجل محب للعجب ، منقّب عن المعجب . وكان من دواعي الدهش أن نراه ، بالرغم من غموضه واستغلاقه ، يخلص الى لباب الكائنات بعصر نافذ وبصيرة ثاقبة ، فلا يجد في الظواهر الحسية مهما كانت رفيعة عالية ، الا أردية قشبية أو بالية ، ولسكنه من ناحية أخرى يري تحت هذا الظاهر جوهراً روحانياً ابرز للعيان ، بفضل هذه الأردية والخلقان . وبناءً على بقدمية خرق المادة بما حوت من زخرف وزبرج إذا به يرفع الروح الى أعلى المراتب ، ويضعها فوق هام الكواكب ، ويعبدها بخشوع واجلال ، وان ترامت له في أحقر الاشكال . أما ما يرمى اليه المؤلف من القاء ناره الاغريقية بهذه الكيفية في خزانة ملابس الوجود ، أما ما سوف يؤدي اليه هذا الاحراق والتمزيق لكل ما شتمت عليه الحياة من مظاهر وظواهر فذلك ما سوف يستكشفه القراء الآن ، ذلك في الواقع هو الغرض الاسمي والمرمي الأقصى لفلسفة الملابس .

ولكن لا يتوهم القارئ أنه سيقع على هذا الغرض مكشوفاً مستنبطاً ، بل كل ما يرجي أن نرشد به الى مكان وجوده لكي يستنبطه بنفسه . نعم ان مهمتنا تنحصر في ارشاد القراء الى هذا الأقليم الذهبي الجديد ، وفي دلائلهم

على مواقع المناجم ، ولكن ليس علينا أن نقب فيها بانفسنا ونستخرج منها
 ماحوت من سبائك ، بل هذا واجب القراء ، فعليهم ان ينقبوا بانفسهم ،
 ويحاولوا من التبر ماوسعت حقائبهم .
 ولا يحسن القارئ مع ذلك أن مهمتنا الآن قد أصبحت أيسر مشقة
 وأهون عناء ، وانما حريون بان نسير الى غرضنا بخطو واسع حيث في
 طريق معبد ذلول . كلا ! فالهمة لا تزال كما عهدنا عناء وشدة ، والطريق
 لا تنفك غامضة وعرة ، وكل املنا أن نلتقط الخطوات التقاطا وثبة وثبة ،
 وان نختار لمواطني اقدمنا المواقع المناسبة ، علما بربط هذه المواقع بعضها
 الى بعض . نستطيع أن نهيه للقارئ (على حد التشبيه القديم) وسط هذا
 الخضم المضطرب جسرا صالحا للعبور . ولنبدأ الآن بالتقاط النبتة الآتية فانها
 جديرة بالاختيار : -

« ربما كانت أعظم حادثة في التاريخ الحديث لا يجمع ورسم^(١) ولا واقعة
 «اوسترلتر» ولا معركة «ووترلو» ولا ملحمة «بيترلو»^(٢) ولا اية واقعة أو معركة
 سواها ، وانما هي حادثة أهمل ذكرها أكثر المؤرخين ، والاعاليها بعضهم مع
 الاستغفاف والتعقير - واعني بها خصف « جورج فوكس » ثوبا من الجلد
 ليتخذ لنفسه رداء !

« كان هذا الفقي اسكافا ، وكان أحد الذين يصطفهم الله فيميط عن
 بصارهم حجب الجهالة ، ويهتك عن افئدتهم غشاوة الغرور ، فيبصرون

(١) مجمع عقده البابا في سنة ١٥٢١ ودعا اليه ملوك أوروبا وامراءها للنظر في أمر

«لوتر» مبتدع المذهب البروتستانتي

(٢) كل هذه أسماء معارك حربية لنا باليه

الحقيقة وجهها لوجه ، و يرونها ساطعة رائعة في بهجة الجمال ، وبهاء الجلال ،
فندهم تارة أنبياء الله ومها بطوحيه ، ونرفهم تارة الى مراتب الآلهة .

« وكان هذا الاسكاف يجلس في حانوته الحقيقير ، مكبا على رقعة الاديم
يقدها ويفريها بين ركام مركوم من المخارز والاشافي ، والخيوط والغراء وما
اليها من مختلف الادوات والآلات . ولكن كان بين جنبيه نفس جياشة
كبيرة ، وكان تحت عينيه كتاب منزل قديم ، تطلع روحه من خلال آياته ،
كما تطلع العين من خلال النافذة ، فتلمع اعلام وطنها البعيد ، وتشيم بشار
سمائها المقدسة . وكانت هذه النفس الشريفة أكبر مطمحا من ان يقنمها
صنع ازواج الأحنفة وحق صناعة النعال واحراز مسكة الحوباء . بل مازالت
تسمع من خلال الطرق على الاديم والقرع بالشراك اصواتا وافدة من ذلك
الوطن البعيد ، وتلمع روائق وروائع تلوح في هاتيك السماء المقدسة . ولا
غرو فان هذا الاسكاف كان - كما قدمنا - انسانا ، وكان يرى هيكل الوجود -
ذلك النى ارسل اليه ليكون من سدنته - قد افهم بمقدس الاسرار ومطهر المعاني .
« فولى الفتى وجهه شطر قساوسة الحى المنوطين بشرح هذه الاسرار
والمعاني ، ولكن القساوسة كانوا كلما جاء يلتمس منهم الرشيد يصفون اليه
وعلى وجوههم ملل ظاهر وضجر مبين ثم ينصحونه آخر الامر بان ينفي عن
نفسه هذه الوسوس ، ويطرد من ساحة صدره تلك الهواجس ، بمعاقرة بنت
الحان ، والرقص مع الحسان . ضلة لهم من عمى يقودون عميا ! الأمر ما اذن
تجمع المشور لهم وتجي ، وتخط لهم تلك الملابس والقلائس وتسوى ،
وتشيد المعابد والكنائس وتبنى ، اذا كان الانسان مجرد آلة هاضمة وكانت
البطان وملحقاتها هي الحقيقة العظلى ؟ فاعرض عنهم فوكس بازدراء شريف

ودموع هائلة ، واقبل على نعاله وتمسك بأنجيله . ولبثت هذه النفس مقبورة
تحت هضاب وجبال ، من الهموم والاثقال ، ولكنها نفس أبية قوية لن
تمكت دهرها في ذلك السجن المطبق ، والرأس المرهق . فكم من نهار أفنت
بياضه ، وكم من ليل أمضت سواده ، وهي تجاهد في طلب الحرية جهادا
صامتا ، وتكافح في سبيل الخلاص كفاحا عنيفا . ويالله كيف كان ذلك السجن
الهائل يرتج بنيانه ، وتميد أركانه ، وهو في يدي تلك النفس الجبارة تهز ذات
اليمين وذات اليسار حتى تفسخ وتداعي ، فاذا هي قد خرجت من دجى الظلماء
الى نور السماء ! ولو كشف الله عن بصائر الناس لوجدوا ذلك الخانوت الحقيق
حيث كان يجلس ذلك الاسكاف المسكين اشرف من «فاتكان» البابا (١) وأقدس
من معبد «لورتو» (٢) . وقد كان مما يحدث به نفسه «انى اذا لبثت هكذا
مشدود العينين ، مفلول اليدين ، مقيد الرجلين ، بانواع التكاليف واللبنات ،
وضروب الهموم والحاجات ، فلن استطيع حرا كالن أبلغ مراما ، بل أعيش
مأعيش أسيرا مذللا ، واموت اذ أموت جاهلا مضللا ، على حين أن الاجل
ماتر عجلان ، والجنة عالية ، والنار هاوية ! ايها الانسان أجل في مالك الفكرة ،
ان كان في رأسك من العقل ذرة ! أى مانع يمنعك من الخلاص ، أى حائل
يحول بينك وبين النجاة ؟ الحاجة ! الحاجة الى ماذا ؟ اتحسب كل ما فى الارض
من اثمان الاحذية مستطيعا اجازتك الى دار البقاء ؟ كلا فلن يستطيع ذلك
الا التأمل والاعتبار ، والخلوص لوجه الله والادكار ! فالى الغابات ! الى الغابات !
حيث تأويني بطون الاشجار ، وتغذي الفواكه البرية والثمار ، ويكفيني

(١) قصر البابا فى روما ويعد من مفاخر العالم

(٢) «لورتو» مدينة فى ايطاليا مشهورة بمعدها الذى يزوره سنويا كثير من الحجاج

من الثياب أن أخصف لنفسي ثوبا أبدياً من الجلد يرافقني مدى العمر ويكون لي نعم السكفن متى جم القضاء »

ثم يستمر الاستاذ قائلاً « ما كان فن التصوير بالزيت من الفنون التي مارستها قط ، لذلك لأدري إن كان ذلك الموقف الذي وقفه جورج فوكس يوم أمسك قطعة الأديم وجعل يخصف منها ذلك الثوب العجيب هو من المواقف التي يسهل على المصور تصويرها . بيد أني مازلت أحسب أن انبثاق فجر الحرية والهمة في قلب الانسان ، واستفاضته في شعاب نفسه شيئاً فشيئاً وانتشاره في أنحاء كيانه رويداً رويداً ، حتى يرد ظلمة الضلال التي كادت تبتلمه في جوفها الرغيب ، وتلتقي عليه بهولها الرهيب ، ضياء لامعا ، ونهارا ساطعا - مازلت أحسب أن هذا الانقلاب هو أحق شيء في تاريخ الانسان بالتعجيد والتعظيم ، لأنه مظهر الرفعة الصادقة وبرهان المجد الصميم . إذن فلينهض أبرع المصورين وليرسم لنا بنظر نافذ وفهم ثاقب صورة جورج فوكس وقد بسط بين يديه رقعة الأديم لآخر مرة ، وشرع يفريها على مثال لم يسبق له نظير ثم جعل يخصفها ويهيئ منها رداء شاملا هو خاتمة مصنوعاته الجلدية ، وآخر مجهوداته الدنيوية . الا بوركت أيها الرجل النبيل ! صمدا في عمالك صمدا ! ان كل وخزة من وخزات مخصفك الصغير لتشك فؤاد النذل والعبودية ، وتصمي كبد المطامع الدنيوية ، وتصيب مقتل الفتنة الذهبية ، وان ساعديك إذ يتحركان ، لأشبه بساعدين مفتولين يسبحان ، وإن كل حركة لهما لتحملك عبر خندق السجن حيث الذلة والغرور والخواية ، وتدنو بك خطوة الى ملكوت الحرية والنور والهداية ! أما والله لو تم عمالك هذا لكان في أوربا كلها رجل واحد حر ، ولكنته أنت !

«وكذلك لا يزال الانسان واجداً من الخضيض الاسفل ، مرتقى الى
السماء الاعزل ، ولا يزال الفقراء واجدين كتاباً منزلاً فيه للناس هداية وارشاد .
ولئن كان سمي الشهير دياجونيوز^(١) هو أعظم الاقدمين ، على ما كان ينقصه
من رقة ولين ، فأحر بجورج فوكس أن يكون أعظم الأولين والآخرين .
لقد كان بشاطر سلفه دياجونيوز فضل الوقوف على صخرة الحقيقة ، مستقلاً
عن كل عون وساعد ، مستغنياً عن كل رافد ومساند ، ثم يمتاز عنه بأنه لا يقتحم
الارض بنظرة الكبرياء ، ولا يلحظها لحظة شزراء ، بل يقدر ما تسدي اليه
في الماء كل والمشرّب والملبس من نعمة ، ويرفع بصره الى السماء وقلبه يفيض
عطفاً ورحمة . لله در ذلك الرداء الجلدي ! فلئن كان برميل دياجونيوز منبراً
شريفاً تلقى عليه خطبة تمجيد الانسان بلهجة التهكم والازدراء ، فلقد كان
ذلك الرداء منبراً أشرف وأعلى إذ كانت تسمع منه تلك الخطبة ولكن
في غير تهكم وازدراء وقسوة ، بل في حنان ومحبة ورقّة »

لقد مضى الآن نيف وقرنان وذلك الرداء الابدي كما يدعو الاستاذ
قد بلى واندثر ، ولم يبق له في الوجود أثر ، فليت شعري ماذا تراه ينبغي اليوم
من استشارة ذكره بهذه العبارة الرنانة ، وبعد التمهيد لها بتلك المقدمة الطنانة ؟
أريد الاستاذ أن يحمل الناس على الاقتداء بجورج فوكس ، وهل يرى من
المستطاع في هذا العصر ، عصر التأنق والرفاهية ، أن جانباً كبيراً من الناس
يقدمون على التجلبب برداء شامل من الجلد ، وذلك كما يقول « اصابة لمقتل
الفتنة الذهبية ، وفرار من سجن النذل والعبودية » ؟ إنها وايم الله لفكرة مضحكة .

(١) الحكيم الاغريقي الشهير ، صاحب القصة المروية مع الاسكندر ، وهو
اللقب بصاحب البرميل ، لانه كان يعيش فيه احتقاراً منه للعالم وزهادة في الدنيا .

هل يرضى صاحب الجلالة بأن يخلع رداء الملك وحلته ، وهل ترضى ربة الجمال بأن تنبذ وشى الحسن وحليته ، لكي يتخذا لنفسيهما إهابا ثانيا من الأديم المدبوغ فوق إهابيهما الطبيعي؟ وهل تحسب هذا التبدل إذا تم يكون له من أثر سوى بوار المغازل ومعامل النسيج ورواج المدايغ ومصانع الجلود؟ لقد يتوهم الأستاذ أن هذا الانقلاب جدير بأن يؤدي إلى التسوية بين مختلف الطبقات ، وإزالة ما بينها من الفوارق والمميزات ، وبذلك تبجني الانسانية فوائده مذهب « المتجرد » السياسية دون تعرض لآفاته الصحية وغير الصحية . ولكن غاب عنه أن الداء أشد تغلغلا من أن ينجح فيه هذا العلاج السطحي ، وإن الفوارق التي يخشاها لن تلبث بالرغم من ذلك العلاج أن تنجم واضحة جليلة ، إذ يرى السراة والأغنياء ، يحتالون في أحاسن الجلود والفراء ، وربات الحسن والجمال يتبخترن في المصبغات الزاهيات من الجلد المراكشي البديع ، مبطنة بالشمواء الفاخر الصنيع ، ولا يبقى للفقلة والجراء ، غير جلود البقر السوداء . أم هل ترى فيلسوفنا يرمى إلى غرض أبعد وأعمق ، فهو يضحك في سره من هذه التعليقات والانتقادات ؟

الفصل الثاني

الملابس الدينية

عماز هذا الفصل الذي عقده الأستاذ عن الملابس الدينية بأنه أقصر فصول الكتاب فنحن ننقله هنا برمته : —
« لست أعني بالملابس الدينية برانس القسس ومسوح الرهبان ، كلا

ولا أقصد بها الثياب القشبية التي يرتديها القوم في أيام الآحاد ، وإنما أريد بها تلك الصور والامواضع التي مازال الناس في كل عصر ومصر يلبسونها للفكرة الدينية فيظفرونها بها - أي انهم يمدون الى السر المصون المحرك لهذا الوجود فيلبسونه جسما محسوسا لموسا ، يظهر بفضلهم بينهم ، فيكون هو الكلمة العليا : مصدر الحياة ومنازل الهدى .

« هذه ولا شك أهم أردية الحياة البشرية . واول من يغزل هذا النوع من الملابس وينسجه هي ام العجائب : الهيئة الاجتماعية . فان الدين ، وان كان مركبا في اصل الخلقة متصلا بجوهر النفس بحيث لا يمكن انعدامه البتة ، الا انه يظل كامنا خفيا لا يظهر ولا يتجلى الا باجتماع اثنين فأكثر من ابناء آدم . فقد ذلك يظهر الشعور الديني مجسما في الحفلات المقدسة . عجيب والله ، بل معجز وأكثر من المعجز ، أمر هذه المفاوضة بين الروح والروح وكلاهما يتطلعان الى السماء ! هذا حقا مقام تاجي النفوس ، فليس الا في النظر نحو السماء (على أي وجه أو لت هذا القول) لا في النظر الى الارض ، يستطيع الناس أن يحققوا معنى الاتحاد والتآلف ، والاجتماع والتعاطف . وما أصدق نوحا ليزحيت يقول : « في اللحظة التي استطيع فيها اقناع غيري بما اعتقد يزاد تمسكي باعتقادي ازدياداً لا حد له » بل انظر انت الى وجه اخيك وتأمل في عينيه المتلاذتين بأنوار الحب المشرقة ، او الملهبتين بنيران الغضب المحرقة ، واعتبر كيف تسرع اليك عدواه ، فاذا بنفسك الهادئة قد انتقل اليها على غير اختيارك قبس مما تراه ، فلا يزال كلاكما تتقدان ، ويعكس كل منكما على اخيه ناره أو نوره ، حتى يصير ما بينكما شعلة مشتركة من الحنان والود ، أو من الكراهة والبغض الأول ! فقل لي اذن أي تأثير خفي عجيب هذا الذي ينفذ

من العين الى العين ، ويسري من النفس الى النفس ؟ واذا كان الامر كذلك من خلال الاغلفة الكثيفة المحيطة بهذه الحياة الارضية ، فما بالك اذا كان موضوع الحديث بين النفس والنفس هو الحياة الدنية والاسرار الالهية وقد تصافح القلبان ، وتلامس الروحان !

« وكذا ترى ان اول من غزل الملابس الدينية وحاكها هو المجتمع . فالديانة الظاهرة نشأت بفضل المجتمع ، وبفضلها صار من الممكن وجود المجتمع ، بل ما من مجتمع يستطيع تصوره في غابر أو حاضر الا ويمكن اعتباره من جميع الوجوه كنيسة حقيقية تلتحق بأحد الأقسام الآتية : - أولا كنيسة منطلقة اللسان بالدعوة والنبوة وهي افضلهن ، ثانيا كنيسة تجاهد كي ينطلق لسانها بالدعوة والنبوة ولكنها لا تستطيع ذلك بمد حتى يحل عيد موقفها ^(١) ، ثالثا كنيسة اصبحت من فرط الهرم خرساء أو هي تهذي وتخرف بما هو نذير الانحلال . فمن توهم أني في هذا المقام أقصد بالكنيسة مجرد الصوامع والكاتدرائيات والدعوة والنبوة مجرد الكلام والترتيل فدعه يقرأ فارغ القلب خلى البال .

« أما عن الديانة الصحيحة والملابس الدينية فأقول ولا أخشى في الحق لومة لائم انه بغير هذه الملابس والنسائج المقدسة ما وجد المجتمع ولن يوجد . فائن كانت الحكومة للمجتمع بمثابة جلده الظاهر الذي يضم اجزائه ويقيه ، ولئن كانت طوائف العمال وتقابات الصنائع سواء أ كانوا يعملون بأيديهم

(١) عيد الموقف هو عند اليهود العيد المذكورى لنزول الشريعة على موسى ، وهو عند النصارى العيد المذكورى للنهضة الكبرى وهي اللحظة التي تبين فيها رسل المسيح ان سيدهم حي لم يموت وانه في غيبته اقرب اليهم منه في مشهده .

أم بادمفتهم هي بمثابة النسيج العضلية والعظمية (الكائنة تحت ظاهر البشرة) والتي بفضلها يستطيع المجتمع أن يقف على قدميه ويعمل بيديه، فإن الديانة التي بمثابة النسيج العصبي الدخيل والجهاز الدموي الباطن يثبت الحياة في جميع الاعضاء، ويبعث الدم جاريًا في كل الاجزاء. فبغير هذا النسيج العصبي والجهاز الدموي تصير العظام والعضلات (واعني متنوع الصناعات) الى الجمود والشلل، فان تحركت فانما يكون ذلك بفضل تيار كهربائي لا بدافع روح حقيقي، وبصبح الجلد قشرة ذابلة زاوية أو اهابا عفناً خبيث الرائحة و يعود المجتمع جثة هامدة أحق شئ بها الدفن - حينئذ يكون اجتماع الناس لا بداعي التعاطف والتآسي ولكن كما تجتمع البهائم، وهذه الحال لا يمكن مع ذلك أن تدوم، بل لا بد أن تنتهي تدريجاً الى تباين فتنقطع فتفرق، وبذلك يعني العفاء حتى على رمة المجتمع. ذلك بعض ما للملابس الدينية على المجتمع من فضل، فهي اذا تأملت ملاك حياته. وقوام نظامه.

« ولكن من المحزن ان هذه الملابس الدينية قد أصبحت في عصرنا الراهن اسماً بالية، بل أصبحت شراً من ذلك، فان كثيراً منها قد صار مجرد اشكال جوفاء، وجوه مستعارة، لا تجول فيها حياة ولا تسكنها روح، بل يغص جوفها بجيوش من العناكب البشعة والخنافس القذرة، بينما الوجه المستعار يحدق اليك بأعينه الزجاجية، محاولاً بشكل مرعب أن يحكي الحياة بعد ان انسحبت منه الروح الدينية، واعتكفت في زاوية منعزلة، تندسج لنفسها أودية جديدة سوف تظهر فيها مرة أخرى، فتباركنا نحن أو أولادنا أو أحفادنا. وكما ان الامام الصادق هو افضل الرجال واعلامهم، فان الامام الكاذب أحط الرجال وأدناهم، ومهما راكم على جسده من طيبالس وبرانيس وقلانس

فلسوف تنزع عنه يوماً من الأيام ، لكي تتخذ منها ضمادات لجراحات
الإنسانية ، أو لكي تحرق وتندري رماداً للأغراض الملمية أو المطبخية . »

الفصل الثالث

في الرموز

قد يكون في بيان نظرية الاستاذ عن الرموز ايضاح لمغزى ما تقدم
من اقوال غامضة ، بيد اننا لا نطمح في ايراد نظريته هذه كاملة جلية ، فانك
لن تراه اشد استغلاً واستغلاً واستغلاً منه عند الكلام على الوهم ، وأثره في حياة
الإنسان ، وكيف « ان الإنسان وان كان في الظاهر يقوم في نطاق المنظور
المحدود يضرب بعروقه ، بفضل الوهم ، في اعماق غير المنظور ذلك الذي لا
قرار له ولا غاية ، والذي ما الحياة نفسها إلا رمز له وإشارة » فلندع اذن هذه
التأملات المالية على مثالنا ، ولنقصر عملنا على ان نلتقط (سواء من الاضابير
المخطوطة أو من الكتاب المطبوع) ما قد نثر عليه من عبارات منطقية ،
محاولين بكل جهدنا ان ننظم منها كلاماً منسجماً مفهوماً : -

« من ذا الذي يتحدث عن مزايا الاخفاء أو يتغنى بفضائل الصمت
والكتمان ! لا جرم ان تبني الهياكل لتجيدها ، لو كان هذا عصر بناء
الهياكل . الصمت هو العنصر الذي تنشأ فيه جلائل الامور ، حتى اذا استكملت
صورتها ، واستتمت روعتها ، برزت الى ميدان الحياة تصرف زمامه ، وتدبر
احكامه . وليس ويلم^(١) الصامت بالرجل الوحيد الذي كان يحتج بفضل منطقته ،

(١) ملك هولانده الذي حررها من النفوذ الاسباني ، كان مشهوراً بصمته

ويربأ بنفسه عن التحدث بما يصنع والتشدد بما يفعل ، بل كل من اعرف
من عظماء الرجال ، حتى الذين هم ابعد الناس عن فنون السياسة واجهولهم
بأبواب المكر والخداع ، كانوا كذلك اكثر دهرهم صامتين .

« بل انظر الى نفسك ، وانت تتخبط في مشاكك التافهة ، وتخزن
لسانك ولو يوماً واحداً ، تعلم في الغد كيف استنارت اغراضك واستبان
واجباتك وكم اكتسح اعوان نفسك الصامتون من القذورات والنفايات ،
حينما انقطعت عنهم متطفلات الاصوات والهوشات .

« ليس الكلام كما يزعم الفرنسيون صناعة اخفاء الفكر وستره ، وانما هو
صناعة اخماده وبتره ، حتى لا يعود هناك فكر يستوجب الاخفاء . الكلام
جليل عظيم ، ولكنه ليس الاجل الاعظم . وكذلك يقول المثل الالماني :
الكلام من فضة والصمت من ذهب ، أو كما اقول انا : الكلام وقى فان ،
والصمت أبدي باق .

« لا يعمل النحل إلا في الظلام ، ولا يشمر الفكر إلا في السكون ، كذلك
الفضيلة لا تنحيا إلا في الخفاء . وقد جاء في التنزيل : لا تطلعن يسراك على
ما تصنع يمينك ، ولا تبج لقلبك الذي بين جنبيك بتلك الاسرار التي يعلمها
كل انسان . أليس الحياء تربة كل فضيلة ، وأصل كل مكرمة وخلة حميدة ؟
الفضيلة كالنبات لا تنمو ولا تزكو الا اذا اختفى اصلها تحت الثرى ، واحتجب
عن عين الضحى ، لا يكاد الضوء يطل عليه ، بل لا تكاد انت تنظر خفية
اليه ، الأ جف وذوى ، فلا بهجة ولا زهرة ، ولا رونق ولا نضرة ! ايه يا اخواني
اذا نظرتم الى روضة الزواج مزدانة بعقود الازهار وكاليل الريحان ، تحيط
الحياة بهالة من ألوان السماء وعبق الجنان ، ثم رأيتم من جاء بقتلها من اصولها

ويريكم ، وهو ضاحك السن سخرية وهزوا ، الدمنة التي منها نشأت ،
وفوقها ربت واهتزت ، أيكم يأبى إذن ان يضرب على يدي ذلك الفاتك
الطيب ؟ ؟ فما بال الناس - لا أبالهم - يكثران التحدث بمنافع الصحف
والطابع ، فأين هذه من فوائد الملابس وبرة الخياط ؟

« وثم شيء آخر اجتمعت له مزايا الاخفاء الكثيرة مع مرافق اسمي
وفضائل اسني : الا وهو الرمز . فالرمز هو مجمع الاعلان والكتمان ، وملتقى
الصمت والبيان ، يحل فيه بالاقتران شأنهما ، ويتضاعف بالاتفاق خطرهما ،
واذا كان البيان سديداً عالياً ، والصمت شريفاً مناسباً ، فقل في اجتماعهما ما
« ذلك بأنه في الرمز ترى الخيال بملكوته العجيب متجلياً في نطاق
المحسوس الضيق الحقير ، بحيث يمتزج به امتزاجاً ، ويندمج فيه اندماجاً . والواقع
ان كل رمز صحيح ، يتضمن على درجات مختلفة من الغموض والوضوح ، شيئاً
من تجلي الابدية وتجسم اللانهاية - فالملق يمتزج فيه بالمحدود حتى تراه
امامك منظوراً ، بل يكاد يكون ملموساً . وبفضل الرموز يهتدي الانسان
ويغوى ، ويسعد ويشقى . وهو اينما اجال بصره الى نفسه محاطاً برموز
بعضها معروف وبعضها مجهول : وما العالم اجمع إلا رمز واسع كبير يشير
الى باريه ، بل ما الانسان نفسه ، إلا رمز يدل على خالقه . وما كل مسعى
يبدله ، وكل عمل يعمل ، الا رمز يبرز فيه للمشاعر الظاهرة ، فضل مواهبه
الباطنة . وما كل كوخ يبنيه ، فضلاً على كل قصر يعليه ، الا وهو جسم
لملموس لفكرة معنوية ، وعلان مداع لاسرار خفية ، أو كما يقول الربانيون :
دلالة رمزية كما انها حقيقية »

ثم يقول الامتاذ في موضع آخر بلهجة منافية كل المناقاة لهذه اللهجة

العالية المحلقة في عنان السماء : «الانسان بطبعه يشبه اليوم من بعض نواحيه ،
ولعل اقرب ما فيه من وجوه الشبه الى اليوم تلك الفكرة التي تملكك اليوم :
فكرة المادية وارجاع كل شيء الى اصليين او باعشرين من الم ولغة . لطالما لعب
الانسان الاعيب حجة وحيلة غريبة في كل زمان ومكان ، فلقد توهم نفسه كل
شيء حتى لقد توهم نفسه في وقت ما كتلة حية من الزجاج ، ولكن ان يتوهم
نفسه ميزانا ميتا من الحديد لوزن الآلام والذات : هذه وأيم الله هي البدعة
التي كان القدر يخبئها لهذا الزمن الاخير . هنالك يقف الانسان وهو لا يرى
في العالم بحذافيه الامذودا هائلا قد شعن علفا وشوكا يوازن بينهما ، وانه
لمسترخى الأذنين طويلها ! وارحم تلك أيها المسكين ! لقد كتب عليك
ان لا تنفك ابدا مطية الاشباح والاهام ، ففي ذلك العصر تركبك المجائر
والساحرات ، وفي ذيك العصر يركبك القسوس والرهبان ، وفي جميع العصور
لا يزال يركبك الشيطان . والآن هاهو مارد المادية قد جثم على صدرك اشد
وطأة من الكابوس الكارب ، حتى لقد اوشكت روحك ان تهرق ولم يبق
فيك من الحياة الا قوة هاضمة آلية . فاصبحت لا ترى في الارض وفي السماء
إلا آلة كبرى لا تخشى سواها ولا ترجو سواها .

« آه لحي على رقية افك بها عن الانسان عقدة السحر فها هو الآن أقول
له افتح عينيك وانظر حتى يعود بصيرا ! بالله حدثني في أي عصر وفي أي
مصر رأيت الانسان يعيش بمجرد هذه البواعث من الم ولذة ؟ اين اذن
عصور الديانات ، والفروسيات والاصلاحات ^(١) ، وانشيد المارسييزات ،

وعهود الارهابيات^(١) ؟ بل انظر الى هذا المبشر المادي نفسه اولم يزر قلبه طائف الحب ؟ دعه يا صاحبي للوقت انه كفيل بشفائه »

ويقول الاستاذ في مكان آخر : « نعم يا اخواني ! انما الانسان خاضع لملكته الخيلة ، وليس لملكته المنطقية الحاسبة . وانما الخيال في الانسان نبى صادق يسمو به الى جنة النعيم ، أو ساحر دجال يهوى به الى قرارة الجحيم . وما المادة - حتى عند ابله الماديين - الا آلة يستخدمها الخيال وكأس يشرب فيها . ولا يزال في حياة الانسان ، وهما بلغت من الخول ، لمعة الالهام أو من الجنون (وانك لخير بينهما الى حد محدود) تنفذ اليها من محيط الابدية ، وتتفض الوانها على جزيرة الوقت الصغيرة . واذا كان الفهم هو نافذتك - ولا يمكن ان يكون زجاجها شفافا اتم الشفوف - فان الخيال هو عينك التي تصطبغ بنورها الاشياء ، والتي قد تكون صحيحة أو رمداء . اولم اشاهد بعيني رأسي خمسمائة جندي يمزقون اربا ، ويقطعون للغربان لقما ، من اجل قطعة من القماش يسمونها « العلم » لوعرضت في السوق لما زاد ثمنها على دريهمات ثلاثة ؟ لم تنهض الأمة المجرية بأسرها ، كما ترخر امواج البحر تحت الحاظ القمر ، لأن القيصر يوسف^(٢) وضع في جيبه تاجهم الحديدي ، وهو على رأى أهل النظر لا يربو على نعل الفرس حجما وقيمة . وكذلك دأب الانسان يعيش بفضل الرموز ويحيا ، ويعمل ويسمى ، شعر بذلك أولم يشعر . وان اشرف المصور تلك التي تدرك فضل الرموز ، وتعطيها من القيمة اسماءها ،

(١) اشارة الى حكم الارهاب في عهد الثورة الفرنسية .

(٢) هو القيصر فوا - واجوزيف امبراطور النمسا والمجر الذي اعانت الحرب

ومن المكانة اسناها. فان العيز البصيرة لتجد في كل رمز قبسا من الانوار اللدنية اما ساطعا باهرا ، واما كليلافارا .

« بيد انه قد يكون للرموز فضيلتان : عرضية وجوهرية ، وان كان الغالب أن لا يكون لها الا فضيلة عرضية ، مثال ذلك الاعلام الحربية والملابس العسكرية وما ينضم اليها من صنوف الشعارات والدلالات التي تتخذها الشعوب والطوائف . فجميع هذه وما شاكلها ليس لها فضيلة ذاتية بل احرزت فضيلة مكتسبة بأنها صارت لواء يجتمع في ظله الجماهير لأغراض شيء تتفاوت نزاهة وطهارة . على ان في هذا الاجتماع بذاته معنى من الفضل السماوي . والواقع ان جميع الرموز ذات القيمة المرضية ، لا تزال منطوية على وميض من الفكرة الآلهية ، كما هو الشأن في الاعلام الحربية ، فانها تدل على فكرة الواجب المقدس والافدام الشريف وتشير في بعض الأحيان الى الحق والى الحرية . « ولكن الأمر يكون بخلاف ذلك اذا كان للرمز فضيلة جوهرية ، وكان هو في ذاته جديرا بأن يجتمع الناس حوله . دع النور اللدني يتجلى للحواس البشرية ، دع الابدية تطل في وضوح او غموض من خلال الصورة الوقتية ، فخلق بالناس ان يجتمعوا حول ذلك المظهر ، ويعبدوا الله امام ذلك الرمز ، ويضيفوا اليه على كرايام ومر الليالى شرفا جديداً وفضلا طريفا .

« في سلك هذا النوع الأخير من الرموز تنخرط بدائع الفنون والصناعة ، فن خلال هذه يلمح الانسان (ان كان ممن يميز الغث من الثمين والمتكاف من المطبوع) بهاء الأبدية مطلانا من الزمن ، ويرى نور الحقيقة مكشوفاً للبصر . وربما انضاف الى هذا الصنف من الرموز أيضاً قيمة كبرى اذا

كثيرا من الالياذات ^(١) وما مائلها يستفيد خطرا على خطر في مدى ثلاثة آلاف من الاعوام . واشرف ما في هذا النوع من الرموز حياة الأبطال الملهمين : ولا غرو فأية بديعة من البدائع هي أشرف من حياتهم واقدس ؟ وكذلك موتهم الذي هو تاج حياتهم ولا كليل مجدهم ، ألا تلاحظ فيه معنى عميقا ورمزا جليلا ؟ ألا إن في ذلك السكون الرائع - سكون الفوز المبين - السائد على المخيا المحبوب - يتبين الانسان (ان امكنته من ذلك سوابق الدموع) التقاء الوقت بالابدية .

« وارقى انواع الرموز تلك التي يرتفع بها صاحبها وصانعها الى عليا مراتب النبوة ، فيخرج للناس هدى ونورا ، يخرون له سجدا وركوعا : أعني الرموز الدينية . وكثير ما هي هذه الرموز التي نسميها الاديان ، وهي تختلف باختلاف درجات الانسان في الرقي وبحسب مقدرته على تفهم الاسرار اللدنية ، وتصوير المعاني الربانية . فبعض هذا الصنف من الرموز يكون له فضيلة جوهرية ولكنها سريعة الزوال ، وبعضها لا تكون له الا فضيلة عرضية . » واعلم ان الرموز ان كانت تزداد على مضي الوقت شرفا وتقديسا ، فهي اذا تبادى بها القدم عرضة للبلى والفناء . لانها كسائر الظواهر الارضية غير مصونة من الهرم ، ولا معصومة من العدم . فالزيادة هو ميروس مثلا ، وان كانت لا تزال صادقة ، قد صارت نائية عن قلوبنا ، غريبة عن شؤوننا ، وامست منا على مسافة قصوى ، كأنها نجم غائر يزداد شعاعه كلاله ، وان كان يتضاعف صفاء ، حتى ليتمذر على المرء ان يتبين انها كانت ذات يوم

(١) جهة الياذة، وهي القصيدة الشهيرة المنسوبة للشاعر اليوناني هو ميروس، واسمها المؤلف منا علما على كل قصيدة قديمة لها شأن كبير ولذلك اساغ جمعها .
١٩ - فلسفه

شمساً عظيمة باهرة ، مالم يستعن على ذلك بمجهر علمي يقرب معانيها البعيدة ويوضح اسرارها الغامضة . وكذلك ترى انه ما من رمز من الرموز إلا وله اجله المحدود ، ويومه الموعود ، حين يدرج في طي السكمان ، ويهمل في زاوية النسيان . ولا عجب فجميع الاشياء حتى السكواكب السماوية ، ومن باب أولى النيازك الجوية ، لها شروق ومتوع وافول »

ثم يقول الاستاذ بعد ذلك « وخلاصة القول انك اذا أردت الابد والازل فابحث عنها في ملكات الانسان العميقة المطلقة : في القلب والوهم . واذا أردت الايام والاعوام فابحث عنها في ملكاته السطحية المحدودة : في العقل والفهم . لهذا كان من حق الملهمين من الشعراء والفنانين ان ندعوهم سلاطين هذا العالم وامراءه ، لانهم يصورون للناس رموزاً جديدة ويقتبسون لهم من السماء نوراً يهتدون بهديه . ولن تخلو الدنيا من أمثال هؤلاء في عصر من العصور ، ولعل عصرنا هذا لم يخل منهم . بيد انا جديرون بأن نمنح لقب المشرع أو الحكيم لمن يستطيع أن يثبت للناس أن هذا الرمز أو ذلك صار بالياً فأصبح غير صالح للاعتداد به ، والاعتماد عليه ، ثم يزيله من امامهم في لطف ورفق . »

الفصل الرابع

مجد العمل

« اثنان لا ثالث لهما جديران مندى بالاكرام ، حقيقان بالاعظام : أولهما ذلك العامل المكدود ، يكدح بما أوتي من قواه الجسدية وآلاته الارضية في فتح مغالق الارض واخضاعها لحكم الانسان »

اليد المجلدة ، الموجعة الحشنة ، فان فيها من صادق الرفع وبارع الفضل ما يليق
 بصو لجان هذا الكوكب السيار ، وكذلك ما أشرف وما أنبل ذلك الوجه
 الأشعث الأغبر ، قد دبغت أديمه الأجواء ، واشرقت من خلال شحوبه
 لمحات ساذج الذكاء ، فما هو الا وجه الرجل يعيش عيشة الرجل ، بل ما أجلك
 وما أشرفك من اجل خشونتك وسذاجتك و بما لا تزال تقتضينا الرحمة
 كما تقتضينا المحبة ! أيها الأخ الممرض لبأساء الحياة ! لأجلنا ما قوست
 قناتك المعتدلة ، ولأجلنا ما شوهدت أعضاؤك المنتظمة ، انت الذي وقعت
 عليه القرعة ، فراح يحارب دوننا وقائع الدهر ، ويمطى عنا حقوق الكريمة ،
 فنا بك من الكدوح ما نابك ، وأصابك من الجروح ما أصابك . ان
 فيك لبذرة الهية لو استطاعت الى النماء سبيلا ، وأصابك الى التفتح مسافا !
 ولكن قضى عليها ان تبقى دفينه تحت مترام أطباق العمل وانتقال الهموم ،
 وكتب على روحك ، كما كتب على جسمك ، ان لا تذوق طعم الحرية .
 ومع ذلك صبر أيا اخي صبراً ، وصمداً الى غرضك صمداً ! انما انت قائم
 بواجبك المفروض ، ليعدل عنه من يعدل ، انما تكدح لما لا منه بد ، ولا عنه
 محيد : لا حراز قوت اليوم .

« أما ثانی الرجلین ، وهو عندی أشرف منزلة وأرفع مقاماً ، فالذي يكدح
 لتحصيل ما لا غناء للروح عنه : لا حراز قوت العمر ، لا قوت اليوم . اليس
 هو أيضاً قائماً بواجبه ، عاملاً في سبيل الوفاق الباطني ، ساعياً بما أوتي من
 قوة روحانية وعدة سماوية في فتح مغالق السماء واخضاعها لحكم الانسان ؟
 أئذا وجب على الفقير الوضع أن يكدح لكي نحصل على حاجتنا من القوت ،
 أفلا يجب على السرى ارفع أن يكدح أيضاً لكي يحصل الفقير على حاجته

من نور وهداية وحرية وخلود ؟ - هذان على اختلاف المراتب والدرجات أجلها من صميم قلبي ، أما من هداها فخشالة وهباء ، دع الريح تذروه أينما تشاء . « يد أن الروعة كل الروعة ، والرفعة كل الرفعة ، في أن يلتقي المجدان ، ويجتمع السؤددان ، فترى الذي يكدر ليكني الانسان من حاجاته أدناها ، يكدر أيضاً ليكنيه من مطالبه أسماها . وهل في الدنيا شيء هو أرفع وأسمى من قدس فلاح ؟ إنه ليرجع بنا إلى عهد الوحي والالهام ، فترى جمال السماء ينبثق من أعماق الأرض ، كالنور الضاحك في الظلام الحالك . »

ثم يقول الاستاذ في موضوع آخر . « لا من أجل كده ونصبه أرثي للفقير وأحزن له ، فكلنا قد كتب علينا ، أما أن نكد وننصب ، وأما أن نسرق وننصب ، وذلك شر وأدهى . وما كان المخلص من الماملين ليجد عمله ملهى وملعباً . وإذا كان الفقير يمسى جائعاً عطشاً نافله قد أعد له طعاماً وشراباً ، وإذا كان يبيت متعباً حسيراً فالله يرسل عليه من النوم سباتاً ، فإذا هو في كوخه الحفير قد حوته سماء من الراحة ندية صافية ، تلوح فيها بوارق الأحلام بدیعة زاهية . وإنما الذي من أجله أحزن وأرثي أن يطفأ في الفقير سراج روحه وأن يعيش ما يعيش في ظلمة داجية لا يأنس فيها شعاعاً من العلم السماوي كلا ولا الأرضي ، يقضى حياته وقد اكتنفه من الخوف والحنق شبهان مرعبان ، لا يفارقانه لحظة من الزمان . وآسفاه ! أينما ينو الجسم هذا النور العظيم ، فيروح مجدول المرأر والعصب ، وفي الألواح والقصب ، تبقى الروح قشة ضئيلة مضغوطة مكروبة ، تكاد من الضيق تزهق ؟ أهذه أيضاً نفحة من روح الله أطلقت من السماء واسكن كتب عليها أن تظل في الأرض حبيسة لا تنطلق ، ومطوية لا تنتشر ؟ أما إن لا هدموت

كل إنسان يموت على الجهل مع استطاعته استيعاب العلم مأساة كبرى وفاجعة عظيمة ولو تكررت وقوعها في الدقيقة الواحدة عشرين مرة كما تؤكد بعض الإحصاءات .

الفصل الخامس

(المنقاء)

لقد يظهر مما تقدم في هذه الفصول الأربعة العجيبة وفي كثير سواها من التاميزات والتصريحات المنشورة نثراً في تضاعيف هذا التيه الواسع من الكتاب أن الاستاذ هو أحد الذين يرون المجتمع قد أصبح جثة هامدة أو يكاد ، وأنه لولا ماركس في طباعنا من غرائز التعاشر ، وماورثناه عن أسلافنا من مادات المخالطة ، لقضى على هذه الهيئة الاجتماعية بالانحلال فالزوال ، وذلك حيث يقول :

« أتدعو ذلك مجتهداً حيث لا يوجد للروح الاجتماعية أدنى أثر وحيث الفكرة السائدة ليست فكرة الإقامة في بيت واحد مشترك ، بل فكرة المبيت في خان مزدحم ، حيث ترى كل إنسان في عزلة أيما عزلة ، معرضاً عن صاحبه معادياً لأخيه ، يختطف كل مانالته يده ثم يصيح (متاعى وملكي) ويدعي أنه عائش في سلام وأمان ، لأن المكالب والمهارشة التي فيها تشق الأكياس وتحز الأعناق لا تقع بواسطة الخناجر والمدى ، بل بأسلحة هي أذرع فتكا ، حيث المؤاخاة والصداقة قد صارت أضغاث أحلام وحديث خرافة ، حيث أقدس عشاء رباني ، هو أكلة في مطعم شهى ، يكون فيه

لكن في اجلالكم لهم واحترامكم اياهم سبيلكم الوحيد الى الحرية . »
ثم يقول الاستاذ في موضع آخر « اما وقد فارقت الروح جسم المجتمع
فهل بقي الا أن يعنى بحرق الجثة صوتاً لها من التعفن ؟ اني لا أنظر طوائف
الاحرار والاقتصاديين والنفعيين يحملون نعشها وهم يرتلون الادعية والانشيد
ميممين كومة الخطب حيث يوقد على الجثة الموقرة بين عويل القليلين وهتاف
الاكثرين . أو قل بعبارة أخرى انه لم يبق اليوم شك في أن أولئك القوم
الذي يتسمون بالاحرار والنفعيين وما الى ذلك سوف يبلغون صرامهم من
تفكيك أوصال المجتمع وتدمير معظم انظمته وهدم أكثر مؤسساته .
« الا ترى الى جمهور العمال والصناع تلك الطوائف المنتشرة في كل
مكان ، الممتلئة من همة وتعاون ونشاط ، كيف تتفشى بينها هذه المبادئ
المادية والمذاهب النفعية كأنها نوع من الكلب ذريع لا يزال تنتشر عدواه ،
وتعم بلواه ، حتى يعود وجار الدنيا وقد شمله الوباء ؟ فالويل اذن للصيادين !
لقد كان واجباً عليهم أن يسعفوا هذه المجرمات بالماء - ماء العلم والحياة -
قبل أن تضيع الفرصة وتنشب الفصاة .
« والواقع ان الدنيا تكابد الآن عملية اتلاف وتدمير . وسواء أصرت
هذه العملية بأدوار التآكل الصامت الملح البطيء ، أم بادوار الاحتراق الصاخب
المفاجيء السريع ، فلا بد أن تنتهي بآبادة أوضاع المجتمع القديمة واعاضته منها
أوضاعاً جديدة . هذا حكم القضاء ومن يستطيع أن يعارضه ؟ من ذا الذي
يستطيع أن يقبض بيده على عجلة القدر ، فيقول لروح الزمن « أرجعي
القهيقي ! » خير لنا وأولى أن نستسلم لما لا منه بد ، ولا عنه محيص ، بل خير
لنا وأولى أن نرى الخيرة كلها فيه . »

والظاهر أن تيوفلسدروخ قد أثر لنفسه هذا الاستسلام عن طيب خاطر . فلقد رأينا يقول ان العالم كله قد اصبغ « سوقاً هائلة للاصحال البالية » وان « خرق الرموز القديمة » كانت تنهافت في كل مكان ، كالطر الهتان ، حتى لكادت تغمره وتخنقه . فلا عجب أن ينظر بعين الرضى الى عملية اكتساحها واتلافها مادامت تحصل في رفق ولطف . نعم لقد كان يسره أن يشاهد ، وهو آمن في صرقه ، وحش المادية والنفعية ينطلق - وانما بعد أن يزم ويخطم ، ويقيد ويلجم - لكي يطأ بسنا بكه المر يضة الثقيلة ما هنالك من قصور متخربة وهياكل متهدمة حتى يسويها بالتراب ، تمهيداً لتشييد غيرها مما هو خير وابقى . وبهذه المناسبة يقول الاستاذ : -

« ليس المجتمع بميت ، فان هذه الجثة الهامدة التي تسميها المجتمع الميت ان هي إلا رداؤه البالي ، نزعته عن نفسه ليرتدى ما هو اشرف وأسنى . أما المجتمع ذاته فلن يزال في تطور مستمر وارتقاء مستديم ، من حسن الى أحسن ، ومن رفيع الى أرفع ، حتى ينغمس الوقت في الابدية . فأنما اجتماع اثنان فأكثر من بني آدم فهناك يكون المجتمع ، أو هناك سيكون ، بمعداته الدقيقة ومنشآته الجليلة ، منتشراً على أديم هذا الكوكب الصغير ، ومتصلاً بأعلى السماء وقرارة السمعير . فانك لن تراه يد الدهر خالياً من ظاهرتين خطيرتين : احدهما تشير الى الله والاخرى الى الشيطان : المنبر والمشنقة . »

ألم يحدثنا الاستاذ في غير هذا الموضوع عن « الروح الدينية منعكفة في بعض الزوايا المنزلة ودائبة في نسج اردية جديدة لنفسها ؟ . لعل تيوفلسدروخ نفسه كان أحد أنوالها .

وهنا يشير الاستاذ الى تلك الحكمة المأثورة عن القديس سيمون ، حيث

قل « ان المصر الذهبي ، ذلك الذي وضعته الاساطير العمياء في الزمن الماضي ، هو في الحقيقة أمامنا في الزمن الآتي ! »

ولكن دع ذا واستمع الى ما يقوله في موضع آخر حيث يشبه المجتمع بمنقاء الاساطير ، تلك التي كانت تقدم نفسها قربانا للنار في كل حقبة ، ثم لا تكاد تحترق حتى تنهض من الرماد مجددة الشباب : -

« وهل عجب أن يتطير الشرر حينما ترفرف العنقاء بأجنحتها على الخطب الملهب ؟ ويلاه لقد رأيت بضعة ملايين من الرجال ، وفيهم امثال نابليون ، يحترقون كالفراش المتهافت في ذلك اللهب المندلع . واني ما زلت اخشى ان يلفح شواظ تلك النار بعض الذقون غير المحترسة .

« أما متى ينتهي هذا الاحتراق والتجديد فعلمه عند ربي . لان الانسان يكره التغيير بفطرته ، ومن أرسخ الفرائز فيه التثبيت بالقديم ، فهو قلما يفادر بيته الصيق حتى يتداعى فوق رأسه . ولقد رأيت من الجلالات ما يتلوم كرمميات ، ومن الرموز المقدمة ما يتلوم كظاھر فارغة ، الى مدى نيف وثلاثمائة من الاعوام بعد ان تلاشى منها كل أثر للقداسة والحياة . فليت شمري أفلو عرضت علينا المقادير ان تنجز لنا هذا الاحتراق والتجديد في ظرف قرنين مثلا ، بحيث نجد انفسنا بعد انقضاء هذه المدة عائشين في مجتمع حي وقد فرغنا من الحرب والنضال وأقبلنا على العمل والانتاج ، أفلا يحسن بنا أن نقبل هذا المرض ونمضي الصفقة ؟ »

الفصل السادس

الملابس القديمة

لقد ذكرنا آنفاً ان الاستاذ تيو فلسدروخ ، على ما في ظاهره من خشونة وعجرفية ، هو في الحقيقة من أرق الناس حاشية واوفرهم أدبا ، يفيض صدره بمواطف الاحترام ، ويزوب قلبه لينا ودمائة . والواقع أنه قد أوتي من حسن الأدب المطبوع ما يعد حلية لغريب اطواره وشواذ خصاله ، كما يتحلى بسنا الفجر مدلهم السحاب ، فيصير ابهى رونقا من وشى الربيع وآنق بهجة من وشاح السماء ، وكما يصطبغ بأشعة الشمس دخان لندن ، فيعود من فرط اللألاء ، كالذهب الوضاء . وحسبك على هذا دليلا ما يقوله عن فضيلة التأدب والاحترام : -

« ترى هل سيبقى واجب الاحترام أخرى الدهور لا يؤديه الا الاغنياء ولا يؤدى لغير الاغنياء ؟ لست أرى اى تلازم بين الحسب والنسب ، وبين التربية الصحيحة وحسن الأدب ، بل عندي ان التربية الصحيحة والآداب الفاضلة هي شيء كامن في الفطرة ، وان واجب الاحترام مفروض على جميع الناس لجميع الناس ، لا فرق في ذلك بين فقيرهم وغنيهم ، بدويهم وحضريهم . والواقع أنه لو كان القائمون بأمر تهذيبنا يؤدون واجبهم بنصح واخلاص ، لو كانوا هم اهلا لتأدية هذا الواجب الشريف ، لأصلح هذا الفساد مع كثير سواء من المفسد والاغلاط . نعم ولصار كل انسان لأخيه معلما ناصحا ، ومثالا صالحا ، حتى لا يبقى في العالم قروى جافى الآداب غليظ الطباع ولا قروى جاهل بأسرار علم النبات و بأن الارض التي يفلحها كان بدء خلقها في السماء

« أولست يا صاحبي سواء أ كنت تقبض على صولجان الملك ، أم على محراث الأرض ، انسانا حياً ، ومخلوقاً آلهياً ؟ يقول نوباليز « ليس في الدنيا الا هيكل مقدس واحد ، هو جسم الانسان ، لا شيء في الأرض اطهر منه طهراً واقدس قدساً . وعندي أن من ينحنى بين يدي هذا الهيكل الرفيع فانما ينحنى بين يدي الروح الالهية ، متجلية في هذه البنية الآدمية . وأنت إذ تضع يدك على جسم انسان فانما تلمس بها عنان السماء . »

« لهذه الاعتبارات كان بودى أن افعل ما لم يفعل احد سواي ، فلا اقتصر على الانحناء للرؤساء الروحانيين ، ومن يلبس قلانس اصحاب الدين ، كما كان يفعل الدكتور جونسون الانجليزى ، ولكنى اتمدى أولئك الى كل انسان يلبس اية قلنسوة ، أو لا يلبس قلنسوة ما . ولا غرو افلايزال - وان لم ينتسب الى زمرة الروحانيين - هيكلاً مقدساً ، تتجلى فيه القدرة الالهية ، وتسطع الآية السماوية ؟ ولكنى وآسفاه اجد هذا الانحناء لجميع الناس بلا تمييز ليس يجدى نفعا . لأن في قلب الانسان شيطانا كما ان فيه ملاكا ، والشيطان وحده هو الذى يفوز بالانحناء فى أكثر الاحيان ، اذ يضرب الغرور بها فى جيبه ، والغرور اجلى مظاهر الشيطان ، فى هذه الازمان . لهذا السبب وجب علينا أن نحفظ بانحنائنا وأن لا نجود به البتة .

« بيد أنى اذا كنت امسك عن اداء واجب الاحترام للانسان ، فلشد ما اغتبط بان أودى هذا الواجب لتلك القشور والاصداف التى تنزع عن جسم الانسان ، فتعرض على العين هيئته خالصة نقية ، غير مشوبة بشئ من شهواته الشيطانية : تلك القشور هى الملابس المتينة أو الثياب المطروحة . بل ألا ترى فى الواقع ان أكثر الناس انما يؤدون واجب الاحترام للملابس

بمعينها ، وليس للحيوان ذى القامتين الذي يختال في أذيالها ، من ذا الذي رأى منكم أحداً من اللوردات يحويه الناس بتحيته وهو في اسمال رثة واطمار بالية ؟ غير ان عبادة الثياب وهى على اجسام لا بسياها لا تكون خالصة لوجه الثياب ، بل ممذوقة بشيء من النفاق والخديعة ، لان الجسم يتعدى في كثير من الاحوال على حقوق الثياب فيقتصبها ما كان موجها اليها . فمن اراد ان يجتنب الكذب - وهو ام الخبائث - فليعدل بمبادته الى سبيل آخر ، وليعلم انه سيجد في الثياب المنزوعة وجهها صحيحاً لتلك العبادة التى تظل ملتوية معكوسة ، مادامت موجهة الى الثياب الملبوسة . وكما ان العابد الهندى يعتقد ان بيت الآله لا يقل عن الآله شرفاً وجلالاً ، فكذلك انا اعطى الثياب وهى منزوعة من خالص الأعظام ومصادق الأجلال ، مثلما ابذل لها وهى على ابدان لا بسياها - بل ازيد لها واربي ، لاني في هذه الحالة لا أخشى على نفسى غرورا ، ولا على غيرى خداعا .

«لله در الملابس العتيقة ! أية عظمة فيها وأى جلال ، وأية مهابة وأى وقار ! تتواضع في شرفها ، وتتجمل في مجدها ، بحيث لا نظر شرز ، ولا همز ولا لمز . تقابل الدنيا برزانة وسكينة ، وترقب الحوادث في هدوء وطمانينة ، لا تقتضى الناس شعار الأعظام ، ولا ترهب ان تفوتها منهم مراسم الاحترام . تحفظ القبعة صورة الرأس وهيئتها ، ولكن الفرور والغباء ، وما ينم عنهما من هذر وهذاء ، قدفات وتولى . ويمتد كم الثوب ، ولكن لا للاذى والضرب . ويتدلى السروال ، في ارتياح وانسدال ، غير مشدود ، ولا مجهود ، ولكنه يتعلق تعلقا رخيا ، ويتدرج تدرجا نديا . وينبسط الصدر ، في سكون ووقار ، غير خافق بالشهوات الجائحة ، والاطماع الجامحة ، لا يأنس للجوع سكارا ، ولا

للعطش اوارا . وهكذا تجمد الشباب نقية مطهرة ، لا تعلق بها ادراغ الشهوات ،
ولا تشوشها خواج النزغات ، فكانها وهى راكبة على مشجبها ملاك روحاني ،
أو خيال نقي ، هبط الى الأرض على صهوة براق سماوى !

« ولقد كان من عادتي - وأنا مقيم في مركز الحياة المتحضرة - عاصمة
بلاد الانجليز - أتأمل في أحوال البشر ، وأسائل القضاء والقدر ، تحت
سما ذلك الضباب الفاحم ، والدخان الكثيف المتراكم ، كانه بحر حالك من
المداد ، - اقول كان من عادتي يومئذ أن أيمم سوق الملابس القديمة ولا قصد
لى الا التذكر والعبادة . فأطوف بالخوانيت المملوءة بالثياب اللبسة ، وكأني
لفرط الخشوع أطوف بمعاكف الارواح الطاهرة . وأظل أتأمل تلك الملابس
في سكوتها الفصيح واتذكر كم شاهدت وكم باشرت من افراح واتراح ،
وشهوات ونزعات ، وفضائل وذنابل ، وكل ما ينطوى عليه سجن الحياة
من خير وشر ، وحسنات وسيئات . ايه ياخواني ! اياكم وذلك الانسان التي
لا ينوب قلبه خشوعاً في حضرة الملابس البالية . وانظروا بعين الاجلال
الى ذلك الامام الاكبر ^(١) الذي يدعوها اليه بصوته المبحوح ، من كل فج
طموح ، كانه اسرافيل ينفخ في الصور ، ليعث من في القبور . انظروا اليه
وعلى رأسه ثلاث قبعات كانه « البابا » ، وعلى ذراعيه الممدوتين أمثال الاجنحة
الخفاقة ، ينشرها فتجثم عليها الملابس المدعوة ، وكلما رفع ذراعه في الهواء
ارتفع صوته المميق الرهيب كانه ينبعث من جوف بوق ويصيح : « هلمى
الى ياخيالات الحياة فقد حانت الساعة وجاء يوم الحساب ! » تعالى اليه أيتها
الخيالات المرفرفة ، واعلمى أنه سيفمسك في مطهره ، وينزل عنك الادنامى

(١) معنى « لال للملابس القديمة .

والادران، بالمياه والنيران، وابشرى يوم تخرجين فيه إلى الحياة مرة أخرى
نقية الجيب طاهرة ! وأنت أيها الانسان الذي يوشك لهيب الورع
أن ينطفئ بين جنبيك والذي لم تشعر قط في حياتك بصباغة التعبد ورقة
الخشوع، إذهب يوماً إلى سوق الملابس القديمة، وطف في أنجائه، وجل
في أرجائه، ونأمل واعتبر، وتبصر وادكر، ثم خبرني ألا يزال قلبك خلياً
وعيناك جامدتين؟»

لا ريب في أن أكثر القراء، ونحن معهم، سيرون في هذا الكلام ضرباً
من المبالغة، فكثيراً ما تجولنا نحن أيضاً في سوق الملابس القديمة هذه، فما
كنا نشعر بشيء من صباغة التعبد ولا رقة الخشوع، ولعل بعض السبب في
ذلك يرجع إلى أن عملية التفكير والادكار كانت لا تزال تعطل عندنا بفعل
أولئك الدلائل والسماسرة الذين يقطنون في تلك الكنيسة^(١) ولا يبرحون
يتطفلون على المتعبد باقتراحات كلها دنيوية. أما تيوفلسدروخ فالظاهر أنه
كانت تستولى عليه حالة من تلك الحالات التي لا تدع لدلال أملا في بيع أو
شراء، فكان يترك هناك يتلوم ما شاء، لا يعطل تفكيره معطل، ولا يتطفل
عليه متطفل. لشد والله ما كنا نشتهي أن نرى ذلك الشخص الفيلسفي الضئيل
بقبعته المسنمة و« بنطلونه » الفضفاض، وقد اشتعل لهيب الصباغة في عينيه
وراح يحوب تلك السوق الموحاء، ذهاباً وإياباً، منغمساً في أعماق التأملات،
شارد اللب في رائع الاحلام والتصورات! لك الله أيها الفيلسوف لقد كنت
تنصت بينما غيرك يصخب ويلغو، وكنت تسمع بأذانك المرهفة حق
نحو العشب وهو ينفو!

الفصل السابع

النسائج العضوية

لقد يظهر لنا نحن الذين كان من نصيبنا أن نعيش في الدنيا وعنقاء المجتمع تحترق ، وتحترق في بطن شديد ، حتى ليكون من نعم الله علينا لو تم هذا الاحتراق في ظرف قرنين كما يزعم تيوفلسدروخ - نقول لقد يظهر لنا وهذا شأننا أنه ليس امامنا الا مستقبل رمادي ، وانه لن يتاح لنا أن نشاهد في مدى حياتنا غير مظاهر التخريب والتدمير . ولكن هوّن عليك فالاستاذ يرى غير هذا الرأي ، وذلك حيث يقول :

« ما كان التغيير ليتم عادة في أي شيء حتى الا على التدرج ، فالأفعى مثلاً لا تكاد تسليخ رداءها القديم حتى يكون قد حيك تحتها رداؤها الجديد . ولشدها تخطيء اذا كنت تحسب أن سبيل عنقاء المجتمع في التبدل هي أن تحترق أولاً حتى تصير ركاباً من الرماد الخامد ، وعندئذ تثب العنقاء الجديدة وثوباً كأنها خلقت بأعجوبة فتطير محلقة في الفضاء . كلامها هذه بسبيلها ! إن عمليتي الأَنْشاء والافناء يجريان سوياً في تلك الزوبعة النارية ، فبينما يذرى في الهواء رماد القديم تكون النسائج العضوية للجديد في سبيل التكوين ، ومن خلال عصف الرياح وثوران الزعازع توافي اذنيك نغمات أنشودة المماتة الرخيمة منتهية بنغمات أنشودة الميلاد التي هي ارحم وأعذب ، بل انظر بعينك في الزوبعة تجد ما أنا واصفه »

اذن فهل أيها القارئ ننظر بأعيننا في الزوبعة . أنه لا أمل لنا معشر الضعاف المساكين أن نعلم قرنين حتى يتاح لنا أن نستمتع برؤية العنقاء

الجديدة مكتملة الخلقة . اذن فلا أقل من أن ننظر اليها وهي في طور التكوين ،
ولنبداً بهذه الملاحظات التي يوردها الأستاذ عن النوع البشري بوجه عام . -
« عيشا ما تحاول انكار الحقيقة : انت اخي برضاك او رغمتك . ان
ما تستشعره لي من حقد أو حسد ، وان ما تفتريه عليّ في ساعات غضبك من
اكاذيب سخيفة ما هو الا عطف معكوس . افلو كنت آلة بخارية ،
أكنت تكثر باقتراء الاكاذيب علي ؟ كلا وربك ! بل كنت ادور وأطحن ،
غير محتفل بي ولا ملتفت اليّ سواء أسانت الطحن أو أجدته
« عجيب والله امر تلك العلائق التي تربطنا بعضها ببعض اما بعري
المودة الزائفة ، أو بسلاسل الضرورة الآزمة او كثيرا ما قلت في نفسي وقد
صادفت شعبا من تلك الاشباح المتبخرة الغريبة ، التي تبعث في ذهن
رائيها كل ما شاكلها من الخواطر الغريبة ، « أيه يا أخي افلو كفؤوا عليك
بفتة أناء من الزجاج كأعظم ما يتصوره المتصور - أي حادث يكون
ذلك لا بالنسبة اليك خاصة بل بالنسبة الى العالم كله عامة ؟ اذن لرأينا
خطابات البريد ترد اليك بقلة أو كثرة ، من كل صوب وحذب ،
فتصطدم بحيطان الزجاج ولكنها تسقط ولم يقرأ منها حرف . اذن
لا تقطعت رسائلك عن الناس اجمعين لا يصل اليهم منك سؤال ولا جواب .
اذن لا نحدث افكارك في خاطرك لا يتلقاها سمع محب ولا قلب ودود .
اذن لحرم الناس ثمرات عملك ونتاج يديك . اذن لا تقطعت عن أن
تكون قلبا عياذا أوردة وشرابين يأخذ ويعطي ، ويبعث سياله جاريا في
انحاء المكان ، وأثناء الزمان . نعم اذن لقد حدث فتق في رداء الوجود العظيم
العميم ، فصار واجبا رفوه !

« إن دورة العروق والشرابين ، وأعني تلك الخطابات والاشارات والرسائل الشفوية والطرود البريدية التي ترد اليه وتصدر منه ، إن هي الا كدورة دموية ظاهرة للعيان . أما الدورة العصبية ، ذات المسارب الخفية ، تلك التي بفضائها لا يذهب شيء من فعاله مهراق ، الا ويترك وجميع الناس أثره الأذق ، والتي بفضائها يدخل بما يرسم على سمعته ، للسرة أو السكابة على كل من لمح بنظرته ، بحيث لا يزال يولد كل جديد من المسرات والسكرات - هذه الدورة العصبية هي مما لا يرى بالعين ، بل يدرك بالوهم . أولم يبلغك أنه ما من هندي من متوحش أصريكا وصاندي كلاهما البحرية يتشاحن مع امرأته الا أصاب العالم من مشاحنته بعض الاذى ، فأقل ما في الامر ان ترتفع أسعار الفرو ؟ أليس من الحقائق العلمية ان هذه الحصاة اذا القيتها من يدي تغير لها مركز ثقل السكون ؟

« واذا كان الجيل الواحد يتواشج افراده بعضاً ببعض هذا التواشج العجيب ، فان ارتباط الاجيال المتعاقبة أحدها بالآخر لا يقل عن ذلك وثاقة ومتانة . ألم تفكر ملياً في تلك الكلمة العميقة المغزى : الوارثة ؟ ألم تر أننا لا نرث عن أسلافنا مجرد الحياة ، بل نرث معها متاعها وحطامها ، قواها واشكالها ، وأنا نعمل ونتكلم ، بل نفكر ونشعر ، كما علمنا آباؤنا الاولون ؟ من الذي طبع لك مثلاً هذا الكتاب المتواضع في فلسفة الملابس ؟ لا تلك الشركة التي تجد اسمها مرقوماً على غلافه ، بل كاديس صاحب طيبة (١) ثم فوست صاحب منتز ، وآخرون لا يحصى لهم عدد ولا يعرف عنهم خبر . وكذلك لو لم يوجد بولفيل الغوطي ما وجد شاكسبير الانجليزي . أيها الابله !

(١) أول من نقل الحروف الهجائية الى بلاد اليونان واخترع فن الكتابة .

أن الذي صنع ابرة خياطك ، وخاط لك ردائك ، ليس ذلك الصانع الذي تعرفه ، ولا الخياط الذي تمده ، بل هو تو بلسكان ، أول من استخدم الحديد في مرافق الانسان ا

« حقائق كانت الطبيعة شيئاً واحداً ومجموعاً حياً لا يقبل التجزئة ، فالنوع البشرى ، وهو الصورة التي تمثل الطبيعة وتنشئها والذي لولاه ما كانت الطبيعة ، هو كذلك من باب اولى . وفي جسم هذا المجموع الآدمي العجيب يجرى ، بين الكثير من التيارات الخفية ، ذلك التيار الملموس المرئى : تيار الآراء ، متمثلاً في المعاهد العلمية والمنشآت الدينية وعلى الاخص في الكتب . بديع والله ان تعلم ان الموت لا يعرف الى الفكرة سبيلاً ، وان صاحب الفكرة كما يحنيها وينشئها من الماضي برمته ، يورثها ويهديها للمستقبل برمته ، وكذلك ترى ان الفؤاد الذكى والعين الجلية اللذين كانا في القرون الاولى لم يذهبا ولم ينعدما ، بل هما باقيات فينا نحن أصحاب القرون الاخيرة ، فنحن بذلك القلب نشمر ، وبتلك العين نبصر .

« ومما هو جدير بالاعتبار ومفيد لتقدم هذا المجموع البشرى تقسيمه أجيالا . فالاجيال هي للبشرية المتعبة بمثابة الايام ، والوفاة والميلاد هما ناقوسا المساء والصباح اللذان يدعوانها الى النوم ثم الى الانتباه لاستئناف التقدم منتشرة الجوارح مجددة النشاط . والذي يستطيعه الآباء يستطيعه ويستمتع به الابناء ، ولكن لهم فضلا عنه عملاً خاصاً بهم وواجباً مفروضاً عليهم . وكذلك ترى كل شئ في تقدم مستمر وارتقاء ، فالفنون والمذاهب والموم والآراء ، كل ذلك لم يبلغ كماله ولم يكنه لا يزال يتدرج اليه . لقد تعلم نيوتن ما استكشفه من قبله كبلر ، ولكن نيوتن قد أوتي قوة سماوية جديدة ،

فلا بد له من الصعود الى درجة أرقى في سلم العرفان . وهكذا أيضاً جاء
الرسول المسيحى مكتملاً للمشرع الاسرائيلى . وإنك لتجد مثل هذا الترتيب
والثبوت في اعمال النقض والهدم ، التى هى من آن لآخر فرض واجب
وضربة لازب . فلوثر وجد من الدفء كفايته في احراق تذاكر الففران
التى أصدرها البابا ولكن فولتير لم يجد في ذلك الرماد الخابى صلاء كافياً ،
فاحتاج الى وقود جديد . ذلك شأن الانسانية اينما وجدت بها الفيتها في حياة
وحركة ، في تقدم بطيء أو سريع ، كالمعطاء اما محقة في كبد السماء ، ترفرف
بأجنحة مبسوطة وتملاً الآفاق بالغناء ، واما - كما تفعل الآن - مسفة الى الترى ،
ملفعة باللهيب واللاظى ، كى تعود فتحلق الى أفق اعلى ، وتغرد بصوت اصفى . «
وهنا يصرح الناشر بانه لا يلاقى في مبحث من مباحث هذا الفيلسوف
من الدهش والحيرة ، بل من العنت والعناء ، مثل ما يلاقيه كلما تعرض به
لموضوع السياسة . لذلك نضرب صفحاً عن الكثير من اقواله في هذا الصدد
ونكتفى بايراد العبارة التالية عن عبادة الابطال ، ولعلها احدى النسائج المضوية
التى خرجنا للمبحث عنها في هذا الفصل : -

« صحيح ان الانسان في هذا الزمان أصبح قادراً على كل شىء تقريباً
الا الطاعة ، وصحيح ان العاجز عن الطاعة عاجز لا محالة عن الحرية ، وعاجز
من باب أولى عن الحكم ، وان الذى ليس هو أدنى من شىء لن يكون أعلى
من شىء ، كلا ولا نظير امساوياً لشيء . ولكن اياك ان تحسب الانسان قد
فقد مع هذا ملكة الخشوع والاجلال ، وانما هى في رقدة لا تلبث ان تستفيق
منها ، والحق انه ليس أبغض الى ابن آدم من هذا الاستقلال الثائر حينما
يصبح ضرورة متحتمة . ذلك بأنه ليس الا في معاشرة اخوانه على الصفاء

والحبة يستطيع المرء ان يشعر بالطما نبنة ، وليس الا بالانحناء في خشوع امام
الذي هو أعلى منه يستطيع المرء ان يشعر بالرفعة .

« ومن ذا الذي يدري فلعل الوصف الحقيقي لعصرنا هذا الثائر المتمرد
ان الانسان قد تخلى بتاتا عن رذيلة الخوف ، وهي الاخس الادنى ، ولكنه
لم يتحل بعد بفضيلة الخشوع وهو الرفع الاسمي ؟

« ولانه لمن عجائب صنع الله أنه حيثما وجد شيء جدير بالطاعة ، لم يكن
في وسع الانسان إلا أن يطيعه . وانه حيثما تجلى السر الالهى ولو في أضغاف
لحمة ، كان من المحال على الانسان أن يقف أمامه جامداً غير خاشع ، لاسيما
إذا كان هذا التجلى يتراءى له في صورة أخيه الانسان . وكذلك لا يزال
يوجد في القاب الأدمى طاعة دينية صادقة ، كامنة مستترة ، بل ظاهرة
جلية - حتى في عصرنا هذا - بظهور « عبادة البطولة » . عجيبة والله هذه

الحقيقة القائمة وهي أن عبادة البطولة مازالت ولا تزال ولن تزال موجودة
في كل زمان ومكان ! ألا يرى القارئ في هذه الحقيقة حجر الزاوية الذي
يمكن أن تتوطد عليه دساتير الشعوب وأوضاع الحكومات على مدى الحقب ؟ »

وهنا يقول الاستاذ « أم هل نسيت باريس وفولتير ، وكيف كان ذلك
الشيخ المتهدم الفانى ، مع أنه لم يكن إلا فيلسوفاً ساخرأً متشككاً وشاعراً
متامقاً مستجدياً ، قد أصبح معبود أهل زمانه ، لاسبب سوى أنهم كانوا
يروونه أعظمهم وأفضاهم ، فكانوا جميعاً يتشرفون بالاندماج في حاشيته ،
ويتسابقون إلى المشى في ركابه ، حتى لكان الامراء منهم يرون الفخر كله
في الفوز بابتسامته من ابتساماته ، كما كان الحسان منهم يودن لو يفرشن

شعورهن مداساً لخطواته ؟ نعم لقد كانت باريس كلها يومئذ هيكلًا لعبادة البطولة ، وإن كان المعبود أشبه بالقرود منه بالإنسان ! »

ثم يستطرد الاستاذ قائلاً « فإذا كانت هذه الثمرة قد جنبت من الشجرة الفلانية فأي الثمرات تجني من الشجرة الناضرة ؟ إذا كانت أمثال هذه الفضائل تتجلى في أحمل فترة من تاريخ الإنسانية ، وفي أقفل بقعة من القارة الأوروبية ، يوم كانت الحياة الباريسية لا تعدو أن تكون مجموعة من الأعشاب المجففة والأزهار الصناعية ، فأى الفضائل يرجى ظهورها متى عادت الحياة رابية مورقة ، مهترقة موقنة ، وأصبح البطل المعبود آدمياً بحثاً ليس فيه من القرود أدنى شبهة ؟ ألا فلتعلم أن في الإنسان نزعة لا تستأصل للخشوع أمام كل شيء يستمد القوة من السماء ، بل أمام كل شيء يوهم بأنه يستمد هذه القوة . وإن كنت في شك مما أقول فما عليك إلا أن تقنع أى مغفل من أشد الناس غفلة وغباء ، أو أى مغرور من أشدهم تيهًا وكبرياء ، بأنه في حضرة نفس أكبر من نفسه وأنا الزعيم لك بأنه لا محالة جاث على ركبتيه خشوعاً ، وإن تكن مفاصله من فرط التصلب تحكى الحديد الصلب . »

وهلا يامرح القاريء فيما يلي نسائج عضوية من نزع آخر (أقرب إلى الحقيقة) تغزل وتحاك ؟

« أتقول انه لا توجد الآن كنيسة ؟ أتقول ان صوت النبوة قد خرس ؟ إنى أنازعك حتى في هذا . ولكن كيف كان الامر ألا ترى أنه لا يزال لدينا من التبشير ما فيه كفاية وغناء ؟ إنك لتجد في كل قرية راهباً مبشراً ، ابني لنفسه مغبراً ، يسميه في عرفه جريده ، ويلقى من ذؤابته على الناس عقيدته التي بها يدين ، داعياً إياهم إلى الصراط المستقيم - أأست تلقى إليه سمعاً صاغياً

وقلبا واعيا ؟ تأمل مليا تجد في كل مكان طائفة جديدة من القساوسة والنساك يهيئون لانفسهم نظاما ، وينهمكون في الارشاد والتبشير بحماسة وحرارة ، اما في نظير الصدقة واما لوجه الله . انهم دائبون في تحطيم الاصنام القديمة ، ولئن كانوا هم انفسهم في الغالب من الآثمين ، شأن محطى الاصنام في العادة ، فانهم ليخططون مواقع الكنائس الجديدة لمن يأتي بعدهم من الابرار الصالحين ، حتى يجد هؤلاء السبيل معبدًا ، والمكان لمستمعهم ممهدًا . أو لم أقل انه قبل أن يسلك الرداء القديم يكون قد حيك تحته الرداء الجديد ؟

« أقول انه لا يوجد الآن دين ؟ ضلة لك من أحق إلى أقرر أن الدين موجود . ألم تفكر مليا في هذا السيل الزاخر المزبد الذي نسميه الادب ؟ انه ليحوي قطعاً رائعة من صادق الادعية والاوراد سوف ينسحقها الزمن . وهلا تدري أن في هذا العصر نبيا يلبس للمصر لبوسه ويتحدث بلهجته ؟ ألا تدري انه يوجد في هذا العصر انسان تجلى له السر الالهى ، في كل رفيع وكل وضع من مظاهر المؤلف العاوى ، فراح بدوره يجلوه على الناس في اغان ملهمة تعيد للحياة حتى في هذا العصر - عصر الخرق والاهدام - ما كان لها من رفعة وقداة ؟ ألا تعرف إنسانا هذه صفته ؟ إلى أعزوه وأسميه - جوتا »

الفصل الثامن

الحقيقة الباطنية

في هذا القسم المدهش الخطير من الكتاب يصبح الاستاذ لأول مرة حارفا ربانيا يرفع عنه الحجاب ، ويصير الحقيقة واللباب ، ويتمكن أخيرا بعد

طول الرياضة والجهاد ، من تذليل فلسفة الملابس المصية القياد ، فيقبض على ناصيتها ظافرا موقفا . لقد كان عليه قبل أن يصل الى غرضه أن يكافح ما يعترض دون الحقيقة من مختلف الاشباح ، وكان شر ما يلاقيه منها شبحان هائلان ، بالوجود كله محيطان ، اعنى شبحى الزمان والمكان . بيد أنه قد أخذ بتلايهما وما زال بهما حتى مزقهما تمزيقا . وصفوة القول أنه ما برح يحقق فى الوجود حتى ذاب وتلاشى كل ما يغطيه من الاغشية الارضية ، والظواهر العرضية ، فاصبح وقد انكشف لعينه المبهورة السر المصوف من قدس الاقداس . نعم هنا تصل بنا فلسفة الملابس الى الحقيقة الباطنية ، فلم استطعنا أن نثب الوثبة الاخيرة الباقية علينا لالفينا انفسنا فى أرض الميماد . إذن فالشجاعة الشجاعة أيها القارىء ! لقد أطلنا التأمل فى هذا الفصل من الكتاب فلم نجد غير مفهوم ، كلا ! بل رأينا كلاً زدناه تأملا زادنا إنارة وإيضاحا . فقم أنت بواجبك مصوباً اليه كل ما أوتيت من روية وتفكير ، كما نحن محاولون أن نقوم بواجبنا بحسن الاختيار والترتيب .

والآن اسمع كيف يبدأ الاستدلال بكلمة هدى : « ما أحمق مغزى المعجزات ، إنه لا بعد غورا من كل ما نتصور ! بيد أن سؤال الاسئلة إنما هو : ما هى المعجزة ؟ لقد كان ملك صيام يرى فى قطعة الخبز معجزة ، فكل من تقدم اليه بمضخة هوائية وزجاجة من الأثير كان فى استطاعته أن يقوم لديه بمعجزة . كذلك جوادى الذى استطاعه والذى هو أقل معرفة من الملك الآنف الذكر أليس يرى أنى أقوم بمعجزة كلما شئت أن أبذل درهمين فافتح له حاجز المكس ؟ ولكنى اسمع الكثيرين يتساءلون « البست المعجزة الحقيقة إنما هي خرق للنواميس الطبيعية ؟ » وجوابى عليهم هو هذا

السؤال « وما هي ويحكم هذه النواميس ؟ » لقد يلوح لي أن قيام الميت من بين الاموات ما كان ليكون خرقا لها بل تأييدا لو اننا عرفنا منها بعض ما خفي عنا .

« وكأني ببعض المتنورين يصيح قائلا . « ولكن هل غاب عنك أن المعروف يقينا عن هذه النواميس أنها ثابتة لا تتغير ، وأن آلة الكون مقيدة في سيرها بقواعد لا تقبل التحوير والتبديل ؟ » لعل الامر كما تصفون يا أصحابي ! بل أنا أيضا لا يسعني غير الاعتقاد بان الله - الذي يؤكده الملهمون الاقدمون انه لا يتقلب ولا يتحول - هو في الواقع لا يتغير البتة ، وأن الطبيعة ، التي لك أن تسميها آلة الكون ، إنما تتحرك طبقا لقواعد لا تقبل تعديلا أو تحويرا . ولكني ، مع التسليم بكل هذا ، أعود فأوجه اليكم هذا السؤال القديم . « ترى ماذا عسي أن تكون هذه القواعد التي لا تقبل التبديل والتحوير ؟ »

وأراكم مستعجبون « انها مدونة في كتب المعلوم ، ومقيدة فيما جمع الانسان من التجارب » أو كان الانسان وتجاريبه اذن شاهدين يوم الخليفة حتى أحاطوا خبرا بكل ماجرى يومئذ ؟ أم هل استطاع علماءكم أن يفحصوا في أعماق الوجود حتى وصلوا إلى قراره ، وسبروا كل شيء في أغواره ؟ أم هل كان الخالق جل شأنه قد أطامهم على سره ، واستشارهم في أمره ، فوقفوا على خطة تدبير الكون ، وصار في طاعتهم أن يؤكدوا القول بان هذا الشيء مدون فيها وهذا غير مدون ؟ هيئات لا شيء ، من ذلك البتة . ان هؤلاء العلماء لم يذهبوا إلا حيث ذهبنا ، ولم يبلغوا إلا حيث بلغنا ، وكل ما

يبتازون به عنا أنهم يستشفون بضعة أشبار من أعماق ذلك الخضم الذي لا قرار له ولا ساحل ، ولا أول ولا آخر .

« إن كتاب لابلاس عن النجوم - الذي يشرح لنا كيف تدور بضع سيارات وتوابعها حول شمسنا الموقرة بسرعة معينة وفي مجرى مخصوص - هذا الكتاب له في نظري من القيمة ماله في نظر أي إنسان سوى ، ولكن أهذا هو الذي تدعونه نظام الكون ؟

« نظام الكون وما ادراكك ما نظام الكون : ان الثقب الناس نظرا واكبرهم عقلا ، مهما اتسع نطاق بصره وامتد قاب فكره ، لا يزال يرى ان الطبيعة ذات عمق لا قرار له وانفساح لا غاي له ، وان كل ما حصله البشر من التجارب والعلوم ينحصر في دائرة قرون معدودة وفراسخ محدودة . لقد وقفنا بعض الشيء على مجرى تصرفات الطبيعة في هذا الكوكب السيار ، ولكن من يدري على اي عمار عميقة اخرى يترتب هذا المجرى ، واي تروس ودواليب (من الأسباب) مما هو اجل واكبر ، يدير هذا الترس الأذق الأصغر ؟ ان السمكة الصغيرة قد تعرف وتألف جميع ما احتواه جونها الصغير من ثقب وزاوية ، وحصاة وقوقعة ، وظاهرة وحادثة ، ولكن هل تدرك السمكة سر مد المحيط وجزره ، وهل تحيط علما بمجاري التيارات ومهاب المرافف ، وهل لها الملم بأحوال الرياح الموسمية وشؤون الرياح التجارية وكسوف القمر وخسوفه ، هل تعرف السمكة جميع هذه الامور التي تتوقف عليها الحال في جونها الصغير ، والتي يحوز لها من ان لاخر أن تقلب نظامه وتنكر أحواله من غير أن يكون في ذلك خرق للنواميس الثابتة ، ولا اتيان لمعجزة خارقة ؟ كذلك مثل ابن آدم في هذا الوجود . فالسمكة الصغيرة هي

الانسان ، والجون الضيق هو هذا الكوكب السيار ، والمحيط الفسيح هو ذلك العالم الذي لانهاية لاتساعه ، والرياح الموسمية والتيارات الدورية هي النواميس الخفية التي تجري عليها المقادير في متعاقب الآباد .

« لانزال نتحدث عن كتاب الطبيعة . بلى انه لكتاب لاريب فيه خطه الله بقلامه . أترك تحاول أن تقرأه ؟ هل في طاقتك ، هل في طاقة أى إنسان أن يتهجى حروفه ، ولا أقول أن يقرأ مفرداته وجمله وأن يتلو صحفه الواسعة المنشورة في عرض السماوات والارض وعلى مدى الدهور والاجيال ، بما حوت من بدائع نثر وشعر ، وروائع فلسفة وحكمة ؟ بلى انه لكتاب مقدس مصون ، مسطور بحروف هير وغليفية سماوية ، فطوبى للانبياء أنفسهم اذا استطاعوا أن يفهموا منه سطرانا هنا وسطرانا هناك ؛ أما مجامع الفلاسفة ومحافل العلماء فاولئك يجاهدون جهاداً صادقاً حتى يوفقوا الى التقاط بعض حروفه المكتوبة بالخط العادى ، لا الهير وغليفى ، يتصيدونها من بين سطوره المعقدة وجمله المتعازلة فيؤلفون منها ما استطاعوا من الوصفات الاقتصادية ذات الفوائد الجزيلة فى الاغراض العملية . ولكن قليل هم الذين يتصورون أن الطبيعة شىء أجل وأعلى من مجلد ضخيم يحتوى مالا يحصى من أمثال هذه الوصفات ، وقليل هم الذين يدركون أنها شىء أعظم وأسمى من كتاب هائل عن تدبير المنزل وصناعة الطهى سوف يتوصل الانسان يوماً ما الى استظهار محتوياته واكتناه أسرارها . »

ثم يستمر الاستاذ قائلاً « إن العادة لتجملنا جميعاً بأها بخرفين . تأمل ملياً تجد أن المادة هى أعظم النساجين ، وأنها تنسج لكل ما يعمر الكون من أرواح وجنيات غلائل من الهواء ، ترتديها فتظهر بها لاعيننا وتقيم يمتنا فى

المصانع والبيوت خدمة امناء ، ومهنة نشطاء . ولكن طبيعتها الروحانية تختفى يد الدهر عن جمهور الناس . ولطالما تشككت فلسفة من ان العادة قد عصبت ابصارنا من اول الامر ، ومن اننا نفعل كل شيء بالعادة : حتى لنؤمن بالعادة ، ومن ان سوائر أمثالنا وبدهياتنا ان هي الا عقائد تلقيناها بالعادة ولم نكاف أنفسنا الارتياح في صحتها . بل حدثني : ما حقيقة الفلسفة ان لم تكن كفاحا مستمر مع العادة ومجهودا متجددا للخروج من دائرتها العمياء ، وصنع قيودها المسراء ؟

« إن ما تأتيه العادة من فنون الاضاليل وخدع الشعوذة شيء لا يحصى ، ولكن ربما كان امهر حيلها اقناعنا بأن الامر المعجز يصير بفضل التكرار غير معجز . صحيح اننا بهذه الوسيلة نستطيع البقاء في قيد الحياة ، لانه لا بد للانسان من ان يعمل كما لا بد له من ان يعجب . فالى هذا الحد تكون العادة للانسان مرضعة شفيقة ، تهديه الى مرأشده الصحيحة . ولكنها تنقلب مرضعة خرقاء أو بالحرى تصبح نحن رضعاء مغفلين ، اذا تمادينا في تصديق هذه الخدعة اثناء ساعات الفراغ وأوقات التأمل والاعتبار . هل حتم على ان انظر الى الظاهرة المعجزة بمحمود وبلادة لانى شاهدها مرتين أو مئتي مرة او مليون مرة ؟ لا أرى سببا يحملني على ذلك ، اللهم الا اذا كنت مجرد آلة صماء ليست عندها موهبة الفكر السماوية الا كموهبة البخار الارضية بالنسبة للآلة البخارية : أعنى قوة بفضلها ينسج القطن ، وبفضلها يحرز المال وما يقوم بالمال . »

بيد ان اخدع المظاهر الخادعة وابلغها في اخفاء المعجب ههنا انك تظهر ان الرئيسيان ، المحيطان بالحياة من جميع الاركان ، اعنى الزمان والمكان . انهما رداء ان يغزلان لنا قبل الميلاد وينسجان ، فلا تكاد النفس ، تلك النفخة

الالهية اتهبط الى هذا الوجود حتى يحيطا بها ، ويضمها ويسميها ،
فيكونا لها كالرقعة الشاملة يترأى عليها كل ماعداها من الهاويل ، أو قل
كاللحمة والسدي يحاك بهما كل ماسواهما من الاشباح . وعشاما نحاول ، ونحن
في هذه الحياة الدنيا ، أن نخلعهما عن أنفسنا ، بل كل مانستطيعه أن نشقهما
شقاً لا يلبث إلا ريثما نسترق من خلاله لهة ثم يمود ملتئماً في أمرع من
خطف البرق .

« لقد زعموا أنه كان » لفور تينانس « طقية تدعي طقية الاماني ، إذا
لبسها وتمنى أن يكون في أى مكان لم تكن إلا لهة الطرف حتى يحد نفسه
فيه . بهذه الوسيلة تغلب فور تينانس على المسكان وأخضعه ، بل أفناه وأعدمه .
فلم يعد لديه شيء يدعى « هناك » بل أصبح كل شيء لديه « هنا » . فلو أن
تاجر قبعات اتخذ لنفسه حانوتاً في مدينتنا ، وأنشأ يبيع للناس قبعات
كهنه على جميع الاشكال ، أى دنيا عجائب ومعجزات يصبح يومئذ هذا
الوجود الذي نحن فيه اثم تصور أن تاجراً آخر اتخذ لنفسه في الصف
المقابل من الشارع دكاناً أخرى ، وجعل يبيع فيها قبعات لأفناء الزمان ، كما
جعل زميله يبيع في حانوته قبعات لأفناء المسكان ، أى غرائب وبدائع تصبح
يومذاك في منالنا ! تالله لو تحقق ذلك ما ترددت لحظة في شراء قبعتين من
كلا النوعين ولو بأخر درهم معي . يا لله أأضع فوق رأسى إحدى القبعتين
ثم اتصور مجرد التصور أنى في أى مكان شئت من ملكوت الله ، فإني
إلا لهة الطرف حتى أجدني هناك اثم أضع على رأسى قبعتى الاخرى واتصور
كذلك أنى في أى زمان شئت ، فإني إلا لهة الطرف حتى أجد نفسى
قد انتقلت الى ذلك الزمان ! هذا العصر الحق هو المعجب الانهم : هذا

التنقل من مبدأ الخليفة الى منتهاها - في هذه اللحظة أكون حاضرا في القرن
الاول من العهد الماضي أتحدث وجها لوجه الى سنيكا وبولص ، وفي اللحظة
التالية أكون حاضرا في القرن الواحد والثلاثين من الزمن الآتي أتحدث
أيضا وجها لوجه الى سنيكا ذلك الزمان وبولصه ممن لا يزالون مختبئين في
ضمير الغيب ، وسوف تتمخض عنهم الايام بلا ريب !

« أم هل تحسب هذا أمرا محالا لا سبيل الى تصويره ؟ أفي ظنك أن
الماضي قد تلاشى ولم يعد الا ماضيا ، وأن المستقبل لا ينفك معدوما وليس إلا
مستقبلا ؟ إن الجواب على ذلك ليخاص اليك مقدما من هاتين الملتكيتين
العجيبتين المركبتين في خلقتك : الذكرى والامل . فمن خلال هذين المسريين
الخفيين تستطيع أنت أيها الراصف في القيود الارضية أن تستحضر الماضي
والمستقبل ، وأن تناجيهم ما وان لم يكن إلا بالعبارات المبهمة والامارات الصامتة .
صحيح أن أستار الالمس لا تنفك تنسدل ، وأن أستار الفد لا تنفك ترتفع ،
ولكن هذا لا ينفي أن الالمس والفد كلاهما كائني موجود . أنفذ بصرك خلال هذا
الغشاء الزماني وأنظر في الابدية ، نعم وصدق ما تراه مكتوبا في قدس الاقداس
من سريرة الانسان وما لم يزل المفكرون يقرؤونه في تأمل وخشوع على
مدى الازمان : أعني أن الزمان والمكان ليسا هما الله ، وإنما هما من صنعه ، وأن
عند الله كل مكان قائم هنا ، وكل زمان راهن الآن .

« وبعد أفلا تدرك في هذا لحظة من مر الخلود ؟ يا الله ! أهذا
القبر الذي أودعته شخص المحبوب بعد أن فاضت روحه بين يدي ،
والذي يرفع لي على البعد كأنه علم شاحب حزين من أعلام الطريق ،
ينبئني كم قطعت في وحدتي من الفراسخ الموحشة المتعبة - أهذا القبر

لبس الا طيفا شاحبا ، وخيالا كاذبا ؟ أوليس في الحق ان الفقيد العزيز على
لا يزال قائما مع الله هنا ، كما نحن قائمون واباء هنا ؟ ألا فلتعلم أنه لا يفنى ولا
يمكن ان يفنى غير الاشباح الزمنية ، اما الروح الحقيقية لاى شىء كان او
يكون او سوف يكون فقائمة هنا ، الآن والى ابد الآبدى .

« لسنا ننكر ان من الامور المناسبة العادلة التى لا مناص منها ولا محيد
ان تكون تصوراتنا وتخيلاتنا وافكارنا فى جميع شئوننا العملية مكيفة
محددة بتأثير الزمان والمكان ، وهما القالبان الذهنيان اللذان افرغنا فيهما لى
نطبق المعيشة فى هذا الكوكب السيار . ولكن الذى لا ندرك وجه الحكمة
فيه ان يكون لهما مثل هذا التأثير والسلطان على تأملاتنا الروحانية المجردة ،
بحيث يعميان ابصارنا عن رؤية العجائب المحذقة بنا من كل صوب وحذب .
تأمل مليا فى فعل الزمان والمكان ، وانظر كيف يحجبان عنا بنشائهما الرقيق
ما يخطف الابصار من نور الرحمن . ألا يكون من المعجزات مثلا أن امد
يدى فامسك بها قرص الشمس فى كبد السماء ؟ ومع ذلك الا ترائى يوما امد
يدى وامسك بها كثير من الاشياء ، ثم ارمى بها ذات النمين وذات اليسار ؟ أفأنت
إذن طفل مسن حتى تتوهم ان سر المعجزة انما ينحصر فى كثرة الاميال ، او فى
عظم الاثقال ، ويفيب عنك ان المعجزة الحقيقية الياهرة انما تنحصر فى استطاعتى
مد يدي ، وفي أن لى قوة امسك بها أى شىء ؟ هذا مثل واحد من الامثلة
التي لا تحصى على ما يفعله بنا المكان من صنوف الخدع وضروب التمويه .
« وأما من جهة الزمان فالامر أسوأ حالا وأضل سبيلا . فإذا سئلت
عن الساحر الأكبر ومخفى العجب الاعظم ، فقل هو الزمان الخادع ، ولو كانت
لهينا طقبة لاخفاء الزمان نلبسها ولو مرة فى العمر ، لرأينا أنفسنا فى عالم من

المعجزات لا يقوم أمامه كل ماورد في أساطير الاواين من عجائب السحر
وبدائع المخلوقات . ولكننا لسوء الحظ لا نملك مثل هذه الطاقة ، والا انسان
مخلوق عاجز لا يستطيع رؤية شيء بدونها .

« أليس من العجب العجيب مثلا أن يشيد ارفيوس جدران طيبة
لابشئء سوى نضات القيثارة ؟ إذن فحدثني عن شيد هذه المدينة التي أسكنها ،
فوطد اساسها ، ورفع سمكها ، ودعم عمدانها ، وهندس بيوتها ، ونظم طرقها
وأصواقها ؟ اليس هو ارفيوسا آخر ، أعلى من الاول كلمة وأرفع صوتا ، أقام
بين الناس في مالف الدهور ، فهداهم إلى الحضارة والنور ، بنضات مواعظه
البالغة ، وموسيقى حكمته المنزلة ؟ إن ارفيوسنا الاسمي كان يطوف في البقعة
المقدسة منذ ثمانية عشر قرنا ، وكانت الحانة المذبة السماوية تقرر آذان الناس
فتأخذ بمجامع قلوبهم وألبابهم ، ولا تزال حتى اليوم ، بما فيها من الاخلاص
والصدق ، ترن في مسامعنا ، وتفيض في قلوبنا ، فتهدينا إلى الخير والحق .
أليكون الامر عجبا إذا تم في ساعتين ، ثم لا يكون عجبا إذا تم في دهرين ؟
ليست طيبة بالمدينة الوحيدة التي رفعت بنيانها موسيقى ارفيوس ، بل مامن
مدينة تبني ، ولا من مهمل جليل يؤدي ، إلا ويكون السرفيه ، والموحي به
موسيقى ارفيوس ملهم .

« امط عن بصرك غشاء الزمان ، وتعقب بنظرك إن كنت ذا عينين
السبب القريب الاذني ، إلى سببه البعيد الاقصى . هل الدفعة التي يسري أثرها
متنقلا في سلسلة طويلة من مرن الكرات ، تختلف في جوهرها عن نفس
هذه الدفعة لو أنها وجهت مباشرة إلى آخر كرة فارسلتها طائحة في الفضاء ؟
لهفي على طاقة لاخفاء الزمان انقلك بها من البدايات إلى النهايات ! إذن

لا نكشف الفطاء عن بصيرتك ، ولفرق فؤادك في بحر من النور والمعجب ،
ولا تضح لك أن هذا العالم البديع هو ، حتى في أحقر مظاهره ، مدينة الله
ذات القبة المزدانة بالسكواكب والدراري . إذن لرأيت مجدالي القدير يستطعم
في باهر ضيائه ، وبارع لآلآئه ، من كل نجم في الخضراء ، وكل نجم في
الغبراء . ولكن ما الحياة ، والطبيعة التي هي رداء الله الزماني لا تزال تخفيه
عن أعين الجهلاء ، وإن كانت تجلوه لبصائر الحكماء ؟

« ثم هل في الوجود شيء هو أدخل في باب المعجب المعجز ، من طيف
حقيقي يرى بالعينين ، ويلمس باليدين ؟ لقد ظل الدكتور جونسون طول
عمره يتوق إلى مشاهدة طيف كهذا ، فاستطاع إلى بغيته سبيلا ، مع أنه
طالما اختلف إلى ظلمات القبور ، وقرع تواريخ الموتى . حنة له من غي الحمق
هلا خطر بباله أن يجيل طرف القلب ، كما يجيل طرف العين ، في تيار الحياة
الزاهر الامداد ، الذي مازال يحبه من صميم الفؤاد ؟ هلا خطر بباله أن ينظر
مرة ، ولو إلى ذات نفسه ؟ أنت بعينك أيها الدكتور التقى ، طيف حقيقي
ترى بالعين وتلمس باليد كما يشتهي قلبك ، وبالقرب منك ملايين من الاطيف
تعبير الطريق على جانبيك . ها أنا ذا أعيدها مرة أخرى ، أمط عن البصر
غسله الزمان ، واختصر عمر الانسان إلى ثلاث ثوان : ثم قل لي ماذا كنت
أنت ، وماذا نكون نحن ؟ ألسنا أرواحا ، أو أطيفا مربلت هياكل الابدان ،
فابرزت للعيان ، وما هي الا طرفة العين حتى تتلاشي كالهباء ، وتدرج في طي
الخفاء ؟ حقيقة عامة ليست باستعارة ولا مجاز : أنا ننشأ من العدم ، ونظهر
في صورة البدن ، ونحن بعد أطيف تحيط بها الابدية ، والدقائق ضد
الابدية أجيال وآزال . أفلا تهبط إلينا أغاني الحب والايان كأنها تنثر عن

أوتار عيدان سماوية ، أو كأنها نشيد المقرين في عليين ؟ ثم أفلا تسمع لنا ، في لفظ الخصومة والجدال ، صريراً وعزيفاً كاصوات الجان ، وهلا ترانا طوراً ننساب في الخفاء ، ضعافاً مشؤمين مخيفين ، وطوراً ندور في مراقصنا الهوجاء ، صخاين متوثبين معربدين - حتى ينفحنا الصباح بنسيمه يدعونا الى دار القرار ، ويستيقظ الليل الهاجس مسفراً عن وجه النهار ؟ أين الاسكندر المقدوني ؟ أين الفوارس تهتف حوله في حمس الوغى ؟ أين الكتائب تلمع أسنتها في رونق الضحى ؟ هل أقامت بعمده ، أم اقتفت أثره ، فتلاشت كلها واختفت ، كما تختفي العفاريات اذا أزعجت ؟ أين نابليون وجحافلُه ؟ أين الوقائع والملاحم ، أين الانتصارات والهزائم ؟ هل كان كل ذلك الاقنصا للأطياف وطرادا ، أو حش الليل بضجيجه المرعب ثم املس املاساً ؟ - أطياف ! ان منها في هذه اللحظة نيف وألف مليون يدبون على أديم الغبراء ، والشمس في كبد السماء ، يختفي منها بضع خمسين ، ويظهر منها بضع خمسين ، قبل أن تدق ساعة جيبك دقة واحدة .

« يا لله ! ما أعجب هذا الامر وما أهوله ! أكلنا سيكون طيفا في المستقبل ، بل كلنا في الواقع ذلك الطيف المستوهل ؟ انى لنا بهذه الجوارح والاعضاء ، ماهذه القوة العاصفة ، والدماء الحامية ، والشهوات المتلهبة ؟ كل هذا غبار ، بل هباء : جهاز من الظل يحيط بالنفس ، ويكون من حين الى حين مهبطاً للوحي . أنظر الى ذلك الفارس المستلثم ، ممتطياً جواده العتيق ونار الحمية تلتهب في عينيه ، والبأس والقوة يجيشان في قلبه وساعديه : ولكن الفارس والجواد ليسا الاخيالا يترأى ، وقدرة تتجلى . يطان الارض في رزاة وثبات ، كأن الارض مهاد وثيق : ضلة له ! ان هي الاغشاء رقيق ،

ينشق في لمح البصر ، فاذا الفارس وجواده في قعر هاوية لا يناهها مسبار .
مسبار ؟ كلا ان الوهم نفسه ليكل دون تعقبهما . فيا للعجب منذ قليل من الزمن
لم يكن لهما وجود ، وبعد قليل من الزمن لم يصير لهما وجود ، عفى عليهما
الفناء ، ولم يترك منهما حتى العفاء .

« وكذلك سنة الله في خلقه من البداية الى النهاية . جيل بعد جيل
يكتسي رداء الجسم ، ويخرج الى عالم الشهادة من ضمير الغيب ، حاملا رسالة
الله بين يديه . يبذل كل ما رزق من حول ومن أيده ، فواحد في طاحون
الصناعة ناصب ، وآخر على جبال العلم البواذخ صاعد ، وثالث على صخرة
الشحناء يتحطم وأخاه في كفاح ناشب - وما هي الا كرة الطرف حتى
يدعى الرسول الى وطنه السماوى ، فيسقط عنه الرداء الدنيوى ، ويمس
عن العيون املاس الطيف الخفى . كذلك يمر موكب البشر برعودهم وبروقهم
في قطر تباع ، وصفوف سراع ، يخترقون أعماق الابدية كأنهم فيلق علوى
يحمل صواعق السماء ونيرانها . كذلك نطلع معشر البشر من ظلام الغيوب ،
فنعبر الارض ، وهى مأخوذة ذاهلة ، مسرعين فى جلبية وقصيف ، ثم نغطس
مرة أخرى فى ظلام الغيوب . فاذا جبال الارض من عبورنا قد نسفت ،
واذا بحار الارض قد ردمت : ومن للارض بدفعنا ، وهى مادة فانية ، ونحن
أرواح من الحق باقية . لنا أثر فى كل بقعة مجهل ، وطبع قدم فى كل صخرة
جامد ، تقرأ ساقتنا المستأخرة ، ما خلف الطلائع المستقدمة . ولكن ناشدتك
الله ! من أين والى أين ؟ المشاعر لا تدرك ، القلب لا يعرف ، انما ننقل من
الغيب الى الغيب ، من الرب الى الرب :

العيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال سارى . »

الفصل التاسع

نظرة استعراض

هنا يمرض هذا السؤال الخطير : ترى هل أتيح لكثير من القراء أن يبلغوا معنا أرض الميعاد ، وهل شرعت فلسفة الملابس تتكشف أخيراً عن غوامضها ، وتفصح عن بواطنها ؟ لقد كانت الرحلة طويلة شاقة ، حيث ابتدأت من تلك الاغلفة الممروسة المبتذلة من قطنية وصوفية يضمها الانسان على ظاهر جسده ، ثم انتقلت الى أرديته اللحمية العجيبة وأجهزته الاجتماعية المدهشة ، حتى أوغلت الى أردية نفسه وغلائل روحه : الى الزمان والمكان ذاتهما . والآن وقد نزلت عن جوهر الانسان الابدى الروحاني تلك اللفائف والاعطية ، أراه قد شرع يتكشف عن حقيقة ؟ هل في استطاعة كثير من القراء أن يلمحوا ، كما سن خلال زجاجة كدرة ، عناصر الطبيعة الادمية ، وأن يميزوا منها ما هو ثابت دائم ، وما هو قلب حوّل ؟

ان ناشر هذه الصحف ما كان يتوقع توقعاً جدياً ، بل كان يتمنى مجرد التمني ، ان يتمكن كثير من القراء من اجتياز ذلك الجسر المضطرب الذي لم يسمع بمثله لا في الاوائل ولا الآخرين ، والذي قد يرفق الناشر بمعونة المولى الى انهاءه ، ان لم يكن الى اتمامه . نعم ما كان في استطاعتنا ان ننشيء فوق ذلك الخضم المعجاج ، عقداً راسخ الدعائم معبد المنهاج ، بل كان كل ما في طاقتنا ان نلقي على صدره الرجراج سلسلة متمعة من الارماث العائمة ، متجشمين في ذلك من المشاق ما تجشمنا ، ومكابدين من المخاطر ما كابدنا .

ولكن هل من المستبعد ان يوجد هنا وهناك في الالف واحد من ذوى البصائر الثاقبة قد تمكن هو وأمثاله القليلون من اجتياز هذا الجمر بالرغم من كل صعوبة؟ ايه يا معشر الاخوان الموقفين! أهلا بكم وسهلاً! وصداً في عملكم صمداً! ان العين بالرغم من هذا الظلام الحالك ان تلبث حتى تألف ما يحيط بها، وان اليد ان تلبث حتى تهتدي الى أغراضها، ولن يمضي إلا القليل حتى يلحق بكم سواكم، وحتى يبنى غير هذا الجمر جسور أخرى، بل من يدري فلعل جسرنا هذا الواهن المضطرب قد يصالح ويرم أثناء اجتيازكم اياه جيئة وذهاباً، فيصبح متيناً غاية المتانة، وصالحاً للعبور حتى للعرج؟

بيد انه لا يسعنا إلا ان نتساءل: أين ذهبت تلك البقية التي لا تحصى ممن بدأوا معنا هذه الرحلة لمؤمنين جذلاً وأمثالاً ولكننا لانراهم الساعة بجانبنا؟ ان أكثرهم قد نكص على عقبيه، ثم وقف يحدق إلينا عن بعد، مندهشاً من أقدامنا على هذا المصير المجهول. وكثيرون غيرهم كانوا أوفر من هؤلاء شجاعة فأخذوا يتقدمون ولكن عثرت بهم أقدامهم، فسقطوا في غمار اليم تتقاذفهم أمواجه، بعضهم نحو هذا الشاطئ، وبعضهم نحو ذاك. وهؤلاء حقيقون بأن نمد اليهم يد المساعدة، أو بأن توجه اليهم على الأقل كلمة التشجيع. أو دعنا نقول في غير استعارة ولا مجاز - والحق ان الاستاذ قد عدانا بهذا الأسلوب - هل يمكن ان يخفى علينا ان كثيرين من القراء يقرؤون الآن هذا الكتاب مصدعي الرؤوس يتساءلون في حيرة: ما الغرض الذي اليه يرمى، وما الفائدة التي منه ترجى؟

أما ان كان القصد تموين كيسك أو مساعدة أداتك الهاضمة من أي

طريق آخر فاعلم أيها القارئ ان هذا الكتاب لا يؤدي الى غرض ما، ولا ترجى منه فائدة ما. بل هو على العكس من ذلك، لانه يكلفك بعض الشيء. ولكن اذا كانت الاستاذ، ونحن عن طريقه، قد سرنا بك الى وادي الاحلام، فاستطعت أن تنظر ولو خلسة من خلال سجون الملبس الى مملكة المعجائب، وان تشاهد وتحس ان حياتك اليومية محاطة بالعجب، ومبنية على العجب، وان كل ما يصدق بك، حتى هذه اللحظة والسر اويل، هي معجزات وخوارق - اذ لم كنت قد افدت فائدة لا تقوم بمال ولا تقدر بضمن.

وفوق هذا أو لم يتبين لك الآن أن كل الرموز ان هي إلا ملبس، وان كل المظاهر التي يتراءى فيها الروح للبصر أو للبصيرة ان هي إلا ملبس. ومن ثم كانت فلسفة الملبس هذه فلسفة عالية، خليفة اذا درستها أعمق الدرس بان تؤتى ثماراً شبيهة، وجديرة بان توضع في صف واحد مع العلوم القانونية والاقتصادية، بل بان تشرف عليها من عل باعتبارها مصدروحيها ومبعث روحها؟

واذا نحن تركنا جانباً هذه الناحية العالية من فلسفة الملبس فانتلنا نجد أية ناحية أخرى مما اتضعت الآولها شأنها وخطرها، ألا وهي خليفة بان تؤدي لدى البحث الى نتائج عمالية جمة. فلنصرف النظر عن تلك الخواطر الخصبية من خلقية وسياسية ورمزية التي تزدهم على ذهن فيلسوف الملبس وهو لما يتجاوز عتبة مباحثه، ولنغض الطرف عن تلك الفكر الفنية التي تنطوي تحت كل زي وطرارز والتي سوف تتمخض متى أحسن ابرازها عن تطورات خطيرة - لنضرب صفحاً عن كل هذا ولنجل الطرف لحظة

فما يمكن ان يدعى القسم اللباسي من ابناء آدم - في تلك الطائفة التي
يصح ان تسمى حيوانات الملابس ، تلك المخلوقات التي تعيش وتعيش في
الملابس وتستمد مادة حياتها وغذاء روحها من الملابس : أعني المتأقين
والخياطين .

والحق ان هذه الطائفة لانزال تلقى من الرأي العام ، الذي لما هتد بنور
الفلسفة ، ظاماً وعنتاً . ذلك بانه لا ينفك يسيء فهمها ، بل لا يبرح ينتهك
حرمة الانسانية في حقها ، كما سوف يتضح لك من كلام الاستاذ في
الفصلين التاليين .

الفصل العاشر

عشيرة المتأقين

يحسن بنا باديء بدء أن نأتي على تعريف المتأق تعريفاً عاماً دقيقاً
فالمتأق هو إنسان يلبس الملابس ، إنسان لا هم له ولا شاغل ، ولا غرض له
ولا مأرب إلا لبس الملابس ، فكل ملكة من ملكات عقله وروحه وكل
موهبة من مواهب كيسه وجسمه قد وقفت وكرست بشجاعة وبطولة
على هذا المطالب الأوحده والغاية الفذة : لبس الملابس بحكمة ولباقة . فهو
يعيش ليلبس اذا كان سواه يلبس ليعيش ، قد أدرك بالفطرة وعفو البديهة
من خطير شأن الملابس ما تجرد لشرحه في مجلد ضخمة فيلسوف من فلاسفة
الامان منقطع النظير في سعة اطلاعه وتوقد قريحته ، حتى لتجسب ذلك
الانسان قد نزل عليه من الملابس وحى والهام ، فهو شاعرها المفلق وصاحب

فكرته المبدع ، وهو شأن كل صاحب فكرة لا يقر له قرار أو يتفت ما يحيش في صدره من خليجاتها .

غير عجيب إذن أن يعتمد المتأنيق وهو ذلك المتخصص المبدع الى ابراز فكرته من حيز القوة الى حيز الفعل ، وان يخرج الملائ في زى مسين وأن يعيش بين الناس شاهداً وشهيداً لما للملابس من مزايا خالدة وفضل مبین . لقد دعونا شاعرا رهل في ذلك من بدع ؟ ألا تراه يتخذ من جسمه قرطاساً منشوراً يرقم عليه بمداد من بارح الاصباح نصيدة غزلية لعشيته ، بل ملحمة حماسية للناس أجمعين ! بل اذا سلمنا بما هو جائز وقلنا إن المتأنيق لا يعدم نصيبه من موهبة التفكير وانه مله بعض الشيء بمحققة الزمان والمكان ألا ترى حينئذ أن في اخلاصه المتناهي للملابس وفي تطوعه لتضحية الابدی في سبيل الوقتی والباقي في سبيل الفانی - نقول ألا ترى في ذلك نوعاً (وان كان معكوساً) من ذلك المزج والتوحيد بين الوقت والابدية ، ذلك المزج الذي رأيناه سر النبوة وجوهرها .

ثم انظر ماذا تراه يطالب من الجزاء على هذا الاستشهاد وعلى ما يقدم للناس من آثار شعر وآيات نبوة . انه لا يبتغى على ذلك أجراً غير الاعتراف بوجوده والتسليم بانه كائن حى ، شىء منظور ، أو جسم يعكس أشعة النور . هو لا يبتغى منك فضة ولا ذهباً ، ولا جاهاً ولا حسباً ، وانما يلتبس نظرة من نظراتك ، ويستمتع لفتة من لفتاتك . أنظر اليه وسواء عليه أفهمت أم لم أفهم معانيه الباطنية ، ونطانت أم لم تنطن الى مفارقه الروحية ، بل حسبته منك أن تنظر اليه وكفى . ألا بعداً لهذا العالم الجحود ورؤسا ! يبعثر قواه البصرية ذات اليمين وذات اليسار موزراً على التامسج المصبرة وتارة على

المخاليق المشوهة ، ثم يضمن ، ألا بلمحة عجي أو بلمحة شذرا ، على أعجوبة
المجائب وخارقة الخوارق : الانسان المتألق .

عجبا والله ! يهمل المتألق هذا الاعمال ، فلا يعنى علماء الحيوان بتعيين
منزله بين فصائل ذوات الشدى ، ولا يحفل علماء التشريح بتشريحه ، ولا
تهتم الحكومات بوضع نماذج منه فى المتاحف ، ولا نعبأ المحافل العامة بحفظ
انواع منه فى معقم السوائل . يبالغ المتألق فى تزيين شخصه وتزييف
هندامه ولكن عبثا تذهب آثاره ، فان الجمهور الاعمى مشغول عنه بطالبه
الحيوانية وحوائجه البهيمية ، قد أعرض عنه صفحا ، وطوى دونه كشحا .

حقا لقد مضى عصر التطلع كما مضى من قبل عصر الفروسية ، ولكننا
نرجو أن تكون فترة نurm لا انقطاع ، فهاهى فلسفة الملابس قد نهضت
تبعث الاول من مرقده ، وتنتشر الثانى من ملجده . ومتى فقه الناس أسرار
هذه الفلسفة تكشف لبصائرهم حقيقة المتألق ، فاذركوا معانيه الخفية ، وحلوا
رموزه الباطنية . ونحن رجاء ذلك نسوق لهم فيما يلى قطعة مقتطفة من كتاب
الفيلسوف عليهم يستمينون بها على تفهم الموضوع واستجلاء غوامضه :

« فى هذه الاوقات المضطربة التى طردت فيها الروح الدينية من أكثر
الكنائس ، فهى اما قد قبعت مخبئة فى قلوب الصالحين تنطلم وتتشوف
وتعمل للتجلى فى صورة جديدة ، واما قد خرجت هائمة فى انحاء الارض
كأنها الروح الحائر يلتمس التقمص فى الجسم المناسب له - فى هذه الاوقات
المضطربة غير عجيب ان تعمد الروح الدينية الى التقمص على سبيل التجربة
فى كثير من المظاهر الغريبة - مظاهر التعصب والخزعبلات . فترى البدعة

نخرج اثر البدعة ، والشيعية تظهر بعد الشيعة ، ولكنها لا تلبث ان تتلاشى
متحولة الى مظهر جديد .

« واطهر ما يشاهد هذا في بلاد الانجليز ، لأنها ، وهى اوسع البلدان
ثروة واسوأها تعلما ، قد احتوت اصلح العناصر (واعنى عنصرى الحرارة
والظلمة) لتوليد أمثال هذه الخزعبلات . ومن احدث ما نجم هنالك من هذا
القبيل شيعة المتأقين ، واذا كان لمذهب هذه الشيعة ارتباط وثيق بموضوع
هذا الكتاب فقد رأينا من المناسب ان نثبت هنا ما جعمناه عنها من قليل
المعلومات .

« صحيح ان بعض الصحفيين الانجليز ، وهم قوم لا يفقهون من الروح
الدينية شيئا ، يعتبرون هذه الطائفة أصحاب مذهب دنيوى لا مذهب دينى .
ولكن صاحب العين البصيرة لا يلبث أن يتبين ما ينطوي عليه مذهبهم
من معانى الزهد والتقوى بل من معانى التضحية والبذل . على انى لست
أدرى بعد الى أى فريق تنتمى هذه الشيعة : الى عباد الاوتان ، أم الى عباد
الابطال ، أم الى القائلين بتعدد الارباب . وأكبر ظنى ان مذهب المتأقين
هذا هو صورة جديدة مطابقة لمقتضيات العصر من ذلك المذهب الفطرى
العتيق : مذهب « عبادة النفس » . لهذه الاسباب وبحسب ما اتضح لى حتى
الآن ، ليس لى اعتراض على من شاء أن يسمى هذا المذهب صورة جديدة
من عبادة الشيطان .

« وكيفما دار الامر فأصحاب هذا المذهب - شأن أصحاب كل مذهب
جديد - هم قوم متحمسون ، يظهرون كثيراً من الشجاعة والجلد ،
ويتحاشون التدانس بمخالطة غيرهم ، ويميزون أنفسهم بنوع مخصوص من

اللباس وأسلوب مخصوص في الكلام . وجملة القول انهم مخلصون لمذهبهم يحاولون أن يعيشوا عن الدنيا بمعزل ، وأن لا يصيبهم من أرجاسها قذى . « ول هؤلاء القوم معا بدهم ، وتسمى في عرفهم : معارض الازياء ، أو أبهاء الرقص ، وأكثر ما يقيمون مناسكهم في جوف الليل ، ولهم كهانهم وكاهناتهم ، ولكن هؤلاء لا يتقلدون مناصبهم طول العمر . وهم يتكتمون شمائهم كل التكتم . ولهم أيضاً كتبهم المقدسة وتسمى في عرفهم الروايات الحديثة . « ولقد وفقت ، بتكبد شيء من النفقة طبعاً ، الى اجراز طائفة من هذه الكتب ، فأكبت على قراءتها محاولاً تفسيرها ودراستها بكل ما أوتيت من فهم وما عندي لموضوع الملابس من تحسس . ولكن تعبي ذهب ادراج الرياح ، ولأول مرة في حياتي وجدت أن ملكة القراءة ، تلك التي مازلت اعتد بها ولا أحسب أحداً ينكرها عليّ ، قد عجزت ولم تفن عنى شيئاً . فعبتاً ما كنت أستجمع كل قواي ، وعبتاً ما كنت أبذل أقصى مجهودي ، اذ كنت لا أكاد أتناول الواحدة من هذه الروايات وأقضي في مطالعتها لحظة حتى أحس كأن دويهاً لا يملأ صياخ أذني ، وكأن دمدمة مرعبة تمزق غشاء مخي ، ثم يقب ذلك سبات مغناطيسي كأشد ما يكون السبات اجهاداً للأعصاب وازعاجاً . فاذا حاولت أن أدافع هذا الكابوس عن نفسي ، وأن لا أستسلم له الاستسلام كله تولاني شعور لم يخالجنى أبداً من قبل مثله ، فأحس كأنني هابط في منعدر الهذيان ، وكأنني أوشك أن يغمرني على انغماء يفقدني كل احساس . وأخيراً بناء على أمر الطبيب ، وخشية أن تصاب كل قواي العقلية والبدنية بالتلف وأن يحل بيني انحلال عام ، أقلمت كارها ، ولكن مصماً ، عن هذه المحاولات المهلكة العقيمة . عجبا والله اهل في

الامر سر ، هل ههنا أمثال تلك الارصاد التي يزعمون انها تحرس هياكل المؤمنين من تهجم الكفار ؟ بيد انه كيفما دار الامر فما نحسب القارىء ، بعد هذا الاخفاق بالرغم من هذه الجهود ، الا مفسحاً لنا ساحة العذر اذا جاءت الصورة التي نحن موردوها عن عشيرة المتأقين مبتورة غير وافية

« واذ كنت غير مستغن لا عن حياتي ولا عن حواشي فليس في الارض قوة تستطيع حملي على ان افصح مرة أخرى رواية من هذه الروايات . ولكن من حسن الحظ ان تمتد الي ، واني لفي هذه الحيرة ، يد من السحاب جاءتنى ، ان لم يكن بالفتح المبين ، فعلى الاقل بالخلاص . ذلك اني كنت ذات يوم أفض لفافة بها بعض المطبوعات الواردة من بلاد الانجليز ، فوجدت بين الطيات الداخلية من غلافها بعض الاوراق المطبوعة كما هي العادة ، فلم استنكف ان انظر فيها بنوع من الاحترام كالذي يستشعره المسلمون حتى للاوراق المنبوذة ، حيث يصادف أحياناً ان يقف الاستاذ على معلومات طريفة . فليتصور القارىء دهشتي اذ وجدت على بعض هذه الاوراق السائبة التي يخيّل الى انها جزء من مجلة انجليزية ما يشبه ان يكون مقالا عن نفس هذا الموضوع : موضوع الروايات الحديثة . فسرعان ما أخذت في قراءته وبحثه ، فاذا به على غموضه يتضمن هنا وههنا لمحات نيرات في صميم مذهب المتأقين ، وأهم ما عثرت عليه من هذا القبيل بيان بما يصح ان يسمى اركان ملة الاناقة أو وصاياها المقدسة . واذ لم يكن عندي ادنى شك في صحة المصدر المستقى منه هذا البيان فاني أبنته هنا بنصه ، ومبالغة في الحيلة من الوقوع في الخطأ ها أناذا أترجمه للقراء بحرفه : -

أترجمه للقراء بحرفه : -

« أركان الملة »

- (١) غير مباح ان يكون في تفصيل الثياب شيء على هيئة المثلث ، وغير مباح كذلك ان يكون فيها شيء من التجميد من الخلف .
- (٢) الياقة أمر مهم جداً ويجب ان تكون منخفضة من الورا
- (٣) لا شيء أدل على سلامة ذوق المرء من خواتمه
- (٤) مباح للناس ، مع مراعاة بعض القيود ، ان يلبسوا صدارات بيضاء .
- (٥) يجب ان يكون البنطلون ضيقاً جداً حول الفخذين .

« يناقض شيعة المتألقين هذه على خط مستقيم شيعة بريطانيا أخرى ، اصل منشئها في ايرلندة ولاكنها آخذة في الانتشار في كل مكان من الجزر البريطانية . واذ لم يكن لهذه الشيعة كتب دينية تفسر مبادئها وتوضح مذهبها فإنه يحيط بها من الغموض مثل ما يحيط بشيعة المتألقين التي وان تكن لها كتب مقدسة الا انها كتب كعدمها لا يستطيع العقل البشري ان يفقه من اسرارها شيئاً . واعضاء هذه الشيعة يتسمون باسماء مختلفة باختلاف أماكهم ، ولكن هنالك اسماً جامعاً يطلق على العشيرة كلها وهو الفقراء الارقاء ، فنكتفي به ونضرب عن سائر الاسماء صفحاً .

« وانه ليكاد يكون من المتعذر ان نهتدى الى ما تعتقه هذه العشيرة من معتقدات نظرية ، وان تقف على آرائها في الـكون وفي الانسان وفي حياة الانسان ، وأن ندرك ما يحتاج الفرد من اعضائها من العواطف وهو ينظر خلفه الى الماضي أو يتلفت حوله في الحاضر أو يتطلع أمامه الى المستقبل . وانه ليلوح للمتأمل في نظام هذه العشيرة انه مصطبغ بصيغة الرهبنة ، فانك تراهم مقيدون بنذرين من نذور الرهبان : نذر الفقر ونذر الطاعة . وهم

يتسكفون بهذين النذرين ، ولا سيما نذر الفقر ، أشد التمسك . بل لقد علمت
أنهم منذورون للفقر حتى قبل مولدهم . أما النذر الثالث من نذور الرهبنة وهو
نذر الصفاق فليس ثمة ما يحملني على الظن بأنهم يتقيدون به . .

« والظاهر أنهم يقلدون عشيرة المتأقين في مبدأهم الاعظم وهو اتخاذ
لباس مخصوص . بيد أنه لا أمل للقاريء في أن يجد هنا وصفا لهذا اللباس
الذي لا سبيل إلى وصفه بهذه الأداة العاجزة : أداة اللغة . والواقع أنه ليس
الاجموعة لا تحصى من الخرق والمزق والرقع متخذة من جميع أصناف
الأقمشة وجميع ضروب الألوان ، وهم يدرجون أجسامهم في طيات تعاريجهم
وتلافيفهم بطريقة غريبة غير معروفة . واجزاء هذا اللباس مترابط بعضها
ببعض بمجموعة من الازرة والاربطة يضاف إليها في كثير من الأحيان
حزام من الجلد أو من الكتان أو من القش يلف حول الخصر . والظاهر
أنهم يفضلون القش ، حتى لقد يتخذون منه نعالهم في أكثر الأحيان .

« ولقد يخيّل إلى المتأمل أن هؤلاء القوم هم من عباد الأرض ، فإنهم
لا يخرجون عن أحد فريقين : فريق دائم على الحفر فيها مغرم بالعمل في
جوفها (١) ، وفريق محبوس في خلوات خاصة لا عمل له إلا التأمل في المواد
المستخرجة منها ومعالجتها (٢) ، ولذلك تراهم كلما يرفعون أبصارهم نحو
السموات السماوية ، وإن فعلوا ففي جهود لا تحتاجه عاطفة . وهم يعيشون في
مساكن مظلمة ، بل لقد تراهم يعمدون إلى تكسير زجاج نوافذهم حينما
يمجدون شيئا منه ، ثم يسدون بها بعض الخرق أو ماعداها من المواد الكثيفة
حتى تعود إلى المكان ظلمته المناسبة . وهم ، شأن كل عباد الطبيعة ، معرضون

(١) يقصد عمال المناجم (٢) يقصد عمال المصانع

لا تفجارات من التحمس تبلغ حد التوحش ، فتراهم يحرقون الآدميين ،
 ان لم يكن في كشبان الاوثان الخشبية ، فبين جدران الأكواخ الطينية .
 « ولهؤلاء القوم من حيث المأكل قواعد راعونها ، فهم جميعاً على ما يظهر
 من أكلة الجذور ، وقليل منهم يأكلون السمك المملح ، أما ما عدا ذلك من
 أصناف اللحوم فمحرم عندهم . على أنهم يحملون أكل الحيوان الذي يموت
 موتاً طبيعياً ، فهم في ذلك يناقضون المسامين والبراهمة . وأكثراً ما يأكلون
 الجذر المعروف بالبطاطس ، يأكلونه قفاراً بلا ادم . وأما شرايهم فلونان
 متناقضان أشد التناقض : الابن وهو أرق السوائل مزاجاً ، و « البوتين » وهو
 أعنف الأشربة سورة . ولقد اتضح لي أن أذوق هذا الشراب فإذا به يحوى
 نوعاً من الكحول في أعلى درجة من التركيز ، وإذا به على الجملة احرق مادة
 تذوقها لسانى ، ولك أن تسميه اذا شئت ناراً سائلة . على أنهم يستهلكون
 منه كميات غزيرة ، ووجوده بوفرة أمر لا بد منه في جميع حفلاتهم الدينية .
 ولقد أعطانا أحد السياح الارلنديين صورة لداخلية بيت أهله على
 ما يظهر من اتباع هذه الملة . وهكذا سيتاح للقراء من الالمان أن يشاهدوا فقيراً
 ارلندياً ، كأنهم يرونه بأعينهم ، بل أن يشاهدوه وهو يتناول طعامه . وكنا
 قد عثرنا في تلك الصحيفة القيمة التي وجدناها في غلاف الألفافة على صورة
 لداخلية بيت لأحد المتأقين . فرأينا من باب المقابلة أن تثبتها هي الأخرى هنا .

وصف لمسكن فقير

« يشتمل الأثاث على قدر كبيرة من الحديد ومنضدتين من الخشب
 ومقعدتين وكريسين وزق للبوتين . والجزء الأعلى من المسكن عبارة عن

صندلية يصعد اليها بسلم وينام فيها أهل البيت . أما القسم الأسفل فمسطور
شطرين : واحد للبقرة والخنزير والآخر لجلوس أهل البيت والضيوف .
ولما دخلنا البيت وجدنا أهله يتناولون الطعام ، وكانوا احد عشر شخصا ،
وكان الأب جالسا في صدر المائدة والام في الناحية المقابلة له والاولاد
مصطفون على الجانبين ، وكانت المائدة عبارة عن كتلة من الخشب في وسطها
نقره تلقى فيها محتويات قدر البطاطس ، وعلى أبعاد متساوية بطول دائرتها
ثقوب صغيرة يوضع فيها الملح . وكان فوق المائدة وطاب مملوء لبنا . أما عدا
ذلك من الادوات كالملاعق والشوك والصحاف ، ومن اطيب الاطعمة
كاللحوم ولباب البر والجمعة فكل هذا قد استغنى القوم عنه . وكان رب
البيت رجلا عريض اللواح ، أغبر السحنة ، شديد الاسر ، يمتد شدة من
الأذن الى الأذن . أما زوجته فامرأة ملوحة البشرة ولكنها مليحة التقاسيم ،
وكان الصغار عرايا يلتهمون الطعام بشهية العقبان .

وصف لمسكن متأنق

« غرفة » توالي « فاخرة الرياش ذات ستار بنفسجية وكراسى واراتك
من اللون عينه ، وبها منضدة على جانبيها من آتان بطول الانسان ، وفي ناحية
أخرى منضدة أصفر حجبا مرصمة بالصدف وعليها زجاجات عدة مملوءة
بانواع الطيوب والعطور ومرتبة على نظام بديع . وفي الجهة المقابلة ادوات
الاغتسال وكلها من خالص الفضة . وعلى اليسار خزانة الملابس من خشب
الصندل العاطر تنص بما أودعت من فاخر الثياب وتحتل رفوفها السفلى ازواج
عدة من الاحذية هي الغاية في صغر الحجم ودقة الصنع . وعلى اليسار باب
منخفض يلمح منه الناظر غرفة الحمام تتألق بمحتوياتها تألقا »

« هاتان هما الشيعتان اللتان تقسمان فيما بينهما الشطر غير المستقر من الشعب البريطاني - والظاهر أن شيعة الفقراء ، أولا الاجراء كما يدعون أحيانا ، آخذة كل آن في الازدياد عددا وقوة. أما شيعة المتأقين فليس من طبعها ان تسعى لاكتساب الانصار ، ولكنها تعتمد على مواردها الوراثية العظيمة ، وهي قوية باتحادها خلافا لشيعة الاجراء التي لا تزال متفرقة احزابا لا تجمع بينها رابطة . ولذلك ترى المتأقين يقتحمون الاجراء بميونهم ، ولكن لعل ساعة الامتحان اذ يتبين بجلاء أي الشيعتين أحق بأن تقسم الاخرى بنظرها ليست بعيدة كل البعد .

« والذي يلوح لي أن هاتين الشيعتين ستقسمان بلاد الانجليز فيما بينهما يوما من الايام ، بعد أن تضما اليهما كل ما هنالك من الطبقات التي هي الآن فاصلة بينهما ، وغير منتمية الى أيهما . عندئذ نجد الشعب البريطاني قد انشطر الى معسكرين : معسكر المتأقين ومن يلوذ بكنفهم ، ومعسكر الاجراء الارقاء ومن ينضوي الى لوائهم . واني لاشبه هاتين الشيعتين بدوامتين فوارتين قد انفجرتا على الجانبيين المتقابلين من الارض اليابسة تبدوان الآن كأنهما عينان هدارتان مز بدتان لا يعجز الانسان ردمهما ، ولكن تأمل فيهما مليا ، تجد قطريهما يزدادان اتساعا في كل آن ، انهما في الواقع فوهتا بركان متصل باعماق الهاوية التي ماهذه الارض اليابسة الاقشرة رقيقة على مشنها الموار . وهكذا تجد الارض الفاصلة بين الدوامتين آخذة كل يوم في الانهيار ، كما تجد كلا من الفوهتين آخذة كل يوم في الاستنهار ، حتى لا يبقى فاصل بينهما الا برزخ أدق من الصراط ، ثم لا يلبث هذا حتى يكتسح أيضا ، وعندئذ -

عندئذ لا يروك إلا أبواب الجحيم قد انفتحت ، فإذا الطوفان الذي يفرق
طوفان نوح في ضحضاحه !

« أو قل إذا شئت إن هاتين الشيعتين هما أشبه شيء بآلتين كهربائيتين
هاتين لا نظير لهما ، مشتملتين على بطاريات متضادة : أحدهما وهي شيعة
الاجراء ذات بطاريات سلبية ، والآخرى وهي شيعة المتأنقين ذات بطاريات
إيجابية ، فهذه تجذب إليها كل مافي الأمة من كهربائية إيجابية (أعني المال)
وتلك تجذب إليها كل مافي الأمة من كهربائية سلبية (أعني الجوع) . ولئن
كنت لم تلمح فيما يذها حتى الآن الا شرارات متقطعة جزئية ، فانتظر قليلا
حتى تصبح الأمة كلها في حالة متكهربة ، حتى تعود الكهرباء الحيوية
باسرها ، لا كما كانت في حالة تمادل صحي ، بل منشطة شطرين منغلين
من إيجابي وسلي (من مال ومن جوع) كل منهما مشحون بمفرده في بطارياته
الخاصة . إذ ذاك يكفي أن يحرك طفل أصبعه حتى يلتقي الضدان ، وعندئذ
- عندئذ تقع الواقعة التي تذر الارض في دمادمها رمادا هائيا ، فإذا الشمس قد
فقدت أحد كواكبها السيارة ، وإذا القمر أصبح لا يرهب خسوفا !

« أو قل إذا شئت ... »

كلا ! بل حسبنا تشبيهات واستعارات لا ندري في الواقع اينما ، نحن ام
الاستاذ ، قد بذ صاحبه في ميدانها .

لطالما عتبنا على الاستاذ لميله الى الاسهاب والافراق ، ولطالما آنسنا منه
نزعته الى الباطنية والى تأمل كل شيء من الناحية الدينية ، ولكن الحق أن
هذه النزعة وذلك الميل لم يفسدا عليه نظره ، الذي عهدنا به اثقب من الشهاب ،
كما أفسداه عليه في هذا الفصل المعنون « بعشيرة المتأنقين » . ام هل ترى الاستاذ

لا يقصد بقوله هذه الى الجسد ولكن الى التهم، وانه ليس من الغباوة والغبالة
بحيث يتكلف أن يكون؟ أما لو كنا زاءا نسان عادى لما ترددنا فى الرد بالاجاب،
ولكن بالنسبة لرجل غريب الاطوار كالأستاذ لا يستطيع المرء أن يخلص
من الارتباب .

والآن نورد ملاحظات الأستاذ عن طائفة الخياطين ، ومن حسن الحظ
ان رأينا هنا يتفق تمام الاتفاق ورأى الفيلسوف كما دونه فى الصفحة الأخيرة
من كتابه ، اذن فلنتركه يدلى الى القارىء بكلماته الختامية : —

« لا بد أن ينقضي نيف وقرن ونزاع الحرية الدامى مشبوب لظاه ، وشيطان
الظلم يذهب بضحاياه ، وملاك العدل يأخذ شهداءه ، قبل أن يعترف للخياطين
بمقوقهم فى الآدمية ، وقبل أن يندمل بهذا الاعتراف آخر جرح فى جسم
الانسانية .

« والواقع أنه اذا كان فى تاريخ الغباوة شىء يدعو الى العجب ، فهنا
يحق لنا أن نقف ونعجب . لقد نبئت فكرة انتشرت ايمانا انتشارا ، واستقرت
فى الأذهان ايمانا استقرارا ، مؤداها أن الخياط ليس بأنسان ، وانما هو جزء من
الانسان . فأصبح الخياط وكل ما يلبسه موضع الازدراء ، حتى لو أنك نبزت
أمرأ بقلب خياط لاجتلبت بذلك عداوته اللداء .

« ولكن اذا لم يكن سهرى الليالى الطوال ، ومواصلتى البحث بلا
تعب ولا ملال ؛ سيذهبان أدراج الرياح فلست أشك فى أن الدنيا ستنبذ
الآن هذه الفكرة الخاطئة ، وفى أنه سوف يتضح للناس بكل جلاء أن الخياط
ليس انسانا فحسب ، بل هو بمعنى ما خالق أو آله

لقد قيل عن فرانكلن انه انتزع الصاعقة من السماء والصولجان من الملوك ، ولسكنى أقول متسائلا : ايها أعظم شأننا ، الذي يعطى ويمنح ، ام الذي يسلب وينزع ؟ الاترى الى الخياط كيف يتناول الانسان عاريا فيخرجه من يديه كاسيا ، عليه رداء ، لامن مجرد الصوف أو القطن ، بل من المجد والعلاء ، والسؤدد والسناء ؟ اليس هذا النسيج البديع ، نسيج الهيئة الاجتماعية بما حوى من حلل ملوكية وطياليس كهنوتية انتشلت الانسانية من حالة العرى والتفرق فنظمتها هيئات متعاونة وجماعات متضامنة- اليس هذا النسيج من صنع الخياط وحده ، كما أقننا على ذلك غير مرة الدليل الساطع ، والبرهان القاطع ؟ بل حدثني اليس كل شعرائك وهاميك الروحانيين ضربا من الخياطين المجازيين ؟

« وهذا اذن هو الذي يجلس في حانوته منكس الرأس ، قد ضربت عليه المسكنة ، وتناولته من كل ناحية نظرات الاحتقار ! ايه أيها المضطهد المستضام ! ارفع رأسك وانظر بعين الامل المشرقة ، وابشر بقدوم عهد سعيد . اطالما جلست في حانوتك مكباً على عملك ، كانك ناسك في صومعته ، مستغرق في العبادة ، يستنزل من السماء أطيب بركاتها على عالم يسخر منه ويهزأ به . ولكن صبرا ! صبرا ! ها هي تبشير الفجر قد لاحت من خلال السحب السوداء ، مبشرة بان ظلمات الجهل توشك أن تتمزق ، وبان وجه الصباح يوشك أن يشرق ، وعندئذ تؤدي اليك الانسانية دينها المعطول مضاعفا ، ويصبح الناسك المزدرى معبوداً مبجلاً ، نعم ويصير الكسر رقاً صحيحاً ، بل مربعا ومكعباً . »

(تم الكتاب بعون الله)

فهرست الكتاب

رقم الصفحة

(الكتاب الاول)

الفصل الاول . مقدمة	٩
» الثاني . مصاعب في سبيل النشر	١٤
» الثالث . ذكريات	١٧
» الرابع . مميزات وخصائص	٢٨
» الخامس . الدنيا في الملابس	٣٥
» السادس . في المباديل والملابس التاريخية	٤٠
» السابع . الدنيا مجردة من الملابس	٤٢
» الثامن . في التجرد	٤٩
» التاسع . المادية والروحانية	٥٣
» العاشر . نظرة الى الامام	٥٨

(الكتاب الثاني)

الفصل الاول . المنشأ	٦٨
» الثاني . عهد الطفولة	٧٤
» الثالث . عهد الدراسة	٨٣
» الرابع . في سبيل البحث عن عمل	٩٧
» الخامس . عهد الغرام	١٠٨

الفصل السادس . احزان تيوفلسدروخ	١٢٣
» السابع . استحكام اليأس	١٣٢
» الثامن . في سبيل الشفاء	١٣٨
» التاسع . انبلاج الأمل	١٥٠
» العاشر . الختام	١٦٢

(الكتاب الثالث)

الفصل الأول . أعظم حادثة في التاريخ الحديث	١٦٩
» الثاني . الملابس الدينية	١٧٥
» الثالث . في الرموز	١٧٩
» الرابع . مجد العمل	١٨٦
» الخامس . المنقاء	١٨٩
» السادس . الملابس القديمة	١٩٤
» السابع . الذسائج العضوية	١٩٩
» الثامن . الحقيقة الباطنية	٢٠٦
» التاسع . نظرة استعراض	٢١٩
» العاشر . عشيرة المتأقين	٢٢٢

اصلاح خطأ

ص	سطر	الخطأ	الصواب
١٨	١٩	ذهنى	ذهن
٢٤	١٤	الفيلسوف	لفيلسوف
٢٦	١٢	عملنا	علمنا
٣٧	٩	الصفات	الصفة
٤٦	١٣	بموتة	بموتة
٤٧	٨	وتصاوير	تصاوير
٥٥	٣	المشوهات	الشوهات
٧١	٨	ليجديان	ليجديا
٧٢	١٦	أباى	أبى
٨٤	١٧	كان	كانه
٨٧	١٠	التقويل	التقتيل
٨٨	٦	السرو	السرو
١١٠	٩	مائة	مائة
١٢١	١	تسمى	ونظرات تسمى
١٢٣	١٤	الخيرة	الخاوية
١٤٠	٢	يلحفك	يلفحك
١٥٣	٣	ستائره	ستائر
١٥٨	١٥	وتعلل	وتعمل



